كتاب الحكمة،
والفضائل المستعادة
خمسون فضيلةً لبناء الإنسان

طبعة أولى

٢٠٠٧

*

جميع الحقوق محفوظة

*

منشورات المكتبة البولسية
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب : ١٢٥
هاتف : ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس : ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف : ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس : ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – شارع سيّدة النجاة – مُقابل مُطرانيّة الرّوم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس : ٠٨/٨١٢٨٠٧

سلسلة
صفحات روحيّة
٣٥

كتاب الحكمة،
والفضائل المستعادة

خمسون فضيلةً لبناء الإنسان

تأليف: جان غيتّون (عضو الأكّاديميّة الفرنسيّة)
وجان جاك أنتييه

ترجمة: أديب مصلح

٢٠٠٧

وُضع هذا الكتاب بالفرنسيّة بالعنوان التالي:

LE LIVRE DE LA SAGESSE ET DES VERTUS RETROUVÉES

Cinquante vertus pour construire l'homme

Par

JEAN GUITTON (de l' Académie Française)

et JEAN - JACQUES ANTIER

توطئة

جان غيتّون هو من أَبرز المفكّرين الفرنسيّين، ومن أَعظم الفلاسفة المسيحيّين، في القرن العشرين.

وُلد مع ذلك القرن، عام ١٩٠١، وغاب مع غروبه، عام ١٩٩٩، فكان شاهدًا عليه، واكب مسراه، واستشرف وجه القرن الحاليّ.

كان تلميذ الفيلسوف الشهير هنري برغسون، ثمّ صديقه. وقد علّم تاريخ الفلسفة، في جامعة السربون، سنين طويلةً.

انتُخب عضوًا في الأَكّادميّة الفرنسيّة، وكان له نتاجٌ وفيرٌ في ميادين كثيرةٍ، ولا سيّما في الفلسفة، والنقد الدينيّ، وعلم الاجتماع. وناهز عدد مؤلّفاته خمس مئة كتابٍ، تُرجم الكثير منها إلى معظم لغات العالم.

من خلال إنتاجه الغنيّ والمتنوّع هذا، يتجلّى إنسانٌ يحيا بكلّ كيانه، ومفكّرٌ يغوص في أعماق الكون، ومؤمنٌ راسخ العقيدة.

استشاره عظماء بلاده، فديغول حاوره، وفرانسوا ميتيران، قُبَيْل وفاته، حطّ بطائرة هيليكوبتر أَمام «كوخه» الريفيّ، وناقشه مدى ساعتيْن، حول اللّه، والإيمان، والمصير.

عُدّ أوّل لاهوتيٍّ علمانيٍّ، وكان صديقًا للباباوات بيّوس الثاني عشر، ويوحنّا الثالث والعشرين، وبخاصّةٍ، بولس السادس، الذي كان له صديقًا ونجيًّا سحابة سبعةٍ وعشرين عامًا. وبفضل هذا الحبر الأعظم، كان جان غيتّون العلمانيّ الوحيد الذي شارك في نقاشات المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وأُعطي حقّ المداخلة فيه.

تميّز جان غيتّون بفكرٍ منفتحٍ يسكب عليه الإيمان أنوار السماء. وقد تمثّل

طموحه في الجمع، جمعًا وثيقًا، بين مقتضَيَيْن طالما ساد الاعتقاد بأنّهما متنابذان، يستعصيان على التوافق: فكرٍ نقديٍّ يقظٍ ونشيطٍ، وإيمانٍ راسخ الأركان.

يقظة فكره لم تهمل أيّةً من وقائع عصره، ومن القضايا الكبرى التي أثارتها. ولكن لم تبْهر أيّةٌ من تلك الوقائع – وهي، بطبيعتها، عابرةٌ – ذهنه المسلّح بالإيمان.

أُسلوبه يقرن العمق بالوضوح، والدقّة بالمرح والنضارة، ويضفي على الجدّ حيويّةً تفيض جرأةً. وقد امتلك موهبة حصر القضايا التي تبدو، في ساعتها، مستعصية الحلّ، في حدودها النسبيّة الصحيحة، ووضع الحدَث العرضيّ العابر في إطار النوايا والغايات.

لم يكفّ، يومًا، عن تعميق فكره وإيمانه، يحدوه حرصٌ على إِضاءة الحاضر، وتلقّف ما، في هذا الحاضر، يحمل بذور المستقبل.

ولم يتوقّف، حتّى آخر أيّامه، عن الكتابة. وقد ارتدت الكتب التي صدرت له، في سنواته الأخيرة، صيغة حوارٍ مع كتّابٍ، وصحفيّين، جهدوا في استنباط بعض مخزوناته الثرّة من الحكمة والخبرات التي تراكمت لديه، على مدى قرنٍ كاملٍ. ولئن كانت صيغة الحوار لا تتيح له، دائمًا، الاسترسال في إِبراز عمقِ آرائه، إلاّ أنّها فرصةٌ لإِغناء القرّاء بكنزٍ من الخبرات التي يصوغها بعباراتٍ مقتضبةٍ، واضحةٍ، مدهشةٍ، تثير الأذهان، ولها، في النفوس، وقعٌ مدوٍّ. وربّ تلميحٍ ذكيٍّ، محكم السبك، أكثف مغزًى، وأنفذ تأثيرًا من صفحاتٍ مستفيضةٍ!

هذا الكتاب الذي نضع ترجمته بين أيدي قرّاء العربيّة، كان آخر حواراته، وقد استعرض، من خلاله، معظم الفضائل والخصال الكفيلة بتوفير الرقيّ والسعادة للبشر. إنّه ليس تعليمًا صارمًا من فوق منبر، ولا هو بحثٌ فلسفيٌّ معقّدٌ، بل هو تدفّق سجيّةٍ مسترخيةٍ ومتحفّزةٍ، معًا، وعصارة خبرات قرنٍ، وزبدة حياةٍ طويلةٍ حافلةٍ بالتأمّل والسعي نحو الحقيقة، ومخزونٍ ثرٍّ من الحكمة.

أَديب مصلح ٢٠٠٦/٨/٨

تمهيد

مولد رجاء

وُلد هذا الكتاب من حديثٍ مرتجَلٍ مع جان غيتّون (Jean GUITTON)، في شقّته الباريسيّة، المطلّة على حديقة اللوكسمبورغ، في أُمسيّةٍ رائعةٍ من أماسي الخريف، حيث تلوّن شمس المغيب ذؤابات الأشجار بالذهب والأرجوان. وكان قد استحوذ عليّ إحساسٌ كثيفٌ لم ينجم عن فكرة عالمٍ نباتيٍّ يهدّده الشتاء القادم بالموت، بقدر ما كان ناجِمًا عن تعميقٍ يمهّد لولادةٍ جديدةٍ، عتيدةٍ.

وفجأةً حطّم الفيلسوف الصمت، وتدفّقت من شفتَيْه أقوالٌ غريبةٌ، معلنةً أنّ العالم يتمخّض عن أحداثٍ مدهشةٍ، يؤسفه ألاّ يكون موجودًا ليشهد حدوثها. وكان ينوّه بتحوّلٍ سيطرأ على الجنس البشريّ.

كنت مفتونًا، أتأمّل ذلك الوجه الحبيب، الذي يناهز، من العمر، مئة عامٍ، وجه ذلك الحكيم الذي علّمني الكثير، صاحب الرؤى الذي لمحتُ عبور غمامةٍ في ناظرَيْه الرؤيوِيَّيْن. فاستوضحته، قلقًا:

– هل يعني التحوّل ألَمًا؟

فلم يجب، وظلّ نظره محدّقًا إلى داخله، فألححتُ:

– ما الذي يتوجّب فعله؟

فأدلى بهذا القول:

– العودة إلى مبادئ الأَخلاق، والتشبّث بها، ولكأنّها طَوْف نجاةٍ في العاصفة، أو كأنّها سفينة نوحٍ جديدةٌ.

«مبادئ الأخلاق». هذه العبارة القديمة أثارت فيّ ذكرياتٍ مدرسيّةً، وأعادت إلى ذاكرتي اسمَيْ أرسطو وسپينوزا. مبادئ الأخلاق، علم الفضائل، عالَمٌ بأسره هوى إلى النسيان، ولكن مثلما تُنسى أُسس بيتٍ، فهي لا تشاهَد، ولكنّها قائمةٌ، أسسٌ لا يمكن الاستغناء عنها، مثلما لا يمكن الاستغناء عن الله.

«العودة إلى مبادئ الأخلاق» طيلة أَسابيع، نضجت تلك الفكرة في ذهني، ثمّ إنّها، بمساعدة بعض الأصدقاء، انبثقت. وذات يومٍ، عرضتُ على الفيلسوف خطّة «كتاب الحكمة، والفضائل المستعادة»، فأشرق وجهه، وابتسم، ولكأنّه استعاد شباب أُستاذ الفلسفة في معاهد «تروا» و«مولان»، و«ليون» ثمّ في جامعات «مونپيلييه» و«السربون». ثمّ هزّ رأسه. وكنت أتوقّع منه قولاً مثل: «لقد طعنتُ في السنّ!»، ولكنّه استغرق في التفكير، وأخيرًا، بصوته الهابط من علٍ، الذي يشوبه شيءٌ من اللهاث، إذ إنّ سرعة تفكيره كانت تقطع عن الكلام أنفاسه، قال: «أجل، ينبغي التحدّث عن الحكمة، فهي أساس الفضائل. يجب إعادة اكتشاف الينابيع الجوهريّة، وتفجيرها».

وعقب لحظات تريُّثٍ، استأنف قوله، بحميّةٍ:

«ولكن، اليوم، لم يَعُدْ ممكنًا فرض أيّ شيءٍ، وبالتالي ينبغي إثارة الاهتمام، وتوليد الرجاء، وإظهار الفضيلة، في إطار منظرٍ جميلٍ: مثل قمّةٍ مكلّلةٍ بالثلوج، أو شروق شمسٍ، أو مغيبها، كما هي تغيب، هذا المساء، على حديقة اللوكسمبورغ. الجمال! ففي الواقع الجمال والطبيعة صنوان، ومن أجلهما أنا عشتُ».

ثمّ أضاف:

– لا بأس في كتيّبٍ لا يدّعي تلقين أيّ شيءٍ، بل يقتصر على إيقاظ الأذهان على الحكمة التي لا سعادة، ولا وجود، بمعزلٍ عنها.

وشرع الاندفاع يستحوذ عليّ. واستأنف، هو، حديثه:

– كتابٌ للمستقبل يقدّم حكمةً منسيّةً، ويستعرض قضايا الألفيّة الثالثة المثيرة، هذه الألفيّة التي لا يراها قاتمةً إلاّ من أُحبطوا، واستسلموا، قبل الأوان. نحن، اليوم، مُشبَعون بالإعلام، كما لم نُشبَع، قطّ، من قبل. هذا الإسراف في الإعلام يفضي إلى زعزعة الأذهان، وإنّما ما نفتقر إليه هو الحكم السديد، والقدرة على التمييز بين الجيّد والسيِّئ، وفنّ السلوك في أعقاب تحليل المعلومات. وفي سبيل ذلك، لا مناص من التمرّس بالحكمة.

لقد انطلقت الفكرة، وتبنّاها بكلّ قلبه، في مثل فرح طفلٍ. لقد استعاد مبرّرًا للحياة، وهتف، بغتةً.

– ينبغي أن أُنجح عودتي إلى الظهور.

ابتدأ العمل، وجالت بخاطري عبارةٌ قالها «ألبير كامو»: «إنّ جان غيتّون يضفي وضوحًا على أكثر الأفكار دقّةً، بفضل أسلوبه الرائع. وهو يبثّ حرارةً في الأفكار المجرّدة، وهوًى في الموضوعيّة، بفضل رفعة نفسه».

كنت أُصغي إليه، وأنا غارقٌ في مقعدٍ مغلّفٍ بمخملٍ مهترئٍ، وهو يقول:

– إنّ أخطر ما نواجهه، في حقبتنا هذه، هو انفصام العُرى التي كانت تربط الفكر بالأشياء، والإنسان بالطبيعة، والابن بالأمّ، والمواطن بالوطن، وجهود الفكر بوجودٍ منظّمٍ، غائمٍ ورائعٍ معًا، يشمل الوطن، والأرض، والدين المعاش في الزمن، وبالإجمال، التجسّد، بكلّ أنواعه ووجوهه، والفضائل، لا الفضيلة، تلك اللفظة المبهمة، التي غالبًا ما تتّصف بالرياء، بل كلّ الجهود التي تجسّد الجمال والخير، والحقّ، في حياةٍ بشريّةٍ تخلق التناغم بين الكائنات والأشياء.

ثمّ تابع:

– إنّ كلّ ما هو ملجأٌ، وحضنٌ، وعونٌ، وغابةٌ، وأرضٌ، يتعرّض للزوال. لقد استعضنا عن السلام بأنماطٍ متعاقبةٍ من الإفراط، التي يحاول بعضها إصلاح البعض الآخر. ومن ثمّ، تبدّدت مفاهيم الاحترام، والخَفَر، والاتّزان، والبساطة، وغابت الأُمّهات.

– لا الأمّهات فحسبُ، بل، أيضًا، الآباء والمعلّمون.

أجل. وهذا ما يدهشني ويخيفني. ففي وقتٍ يتعرّض فيه، على كوكبنا، الجنس المفكّر لأزمةٍ منقطعة النظير، يقدّم لنا معظم قادة الفكر عالَمًا لا معنى له، حيث ينتهي كلّ شيءٍ إلى عدمٍ. في أيّامنا، تعاني الشعوب جوعًا إلى طعامٍ آخر، وقد سئمت الشبيبةُ العدميّةَ، إذ تتعذّر الحياة، ويتعذّر استمرارها، بمعزلٍ عن مبرّرٍ لها.

ونهض الفيلسوف، وتأمّل، بتوقٍ، رفوف مكتبته التي أَمست شبه خاويةٍ، إذ إنّه، منذ عامٍ، ما انفكّ يهب كتبه، كنوزه، بغية التجرّد والصبوّ نحو الجوهريّ. وتناول كتابًا مهترئًا، وبحث عن صفحةٍ، حيث جاء، في رسالةٍ وجّهها «إرنست پسيكاري» إلى أُمّه، أيّامًا معدوداتٍ قبل مصرعه على الجبهة الفرنسيّة، بتاريخ ٥ تمّوز ١٩١٤: «إنّ الحياة صعبةٌ على النفس السامية الراغبة في العمل الخيّر، ولكنّها وحيدةٌ».

وتساءلتُ: إن كانت الحياة صعبةً على النفس المختارة، وعلى جميع النفوس الطيّبة النوايا، فهي، بالحريّ، أشدّ صعوبةً على جميع الذين يبحثون، وهم لا يعلمون، وفي قلبهم تطلّعٌ مُبهَمٌ إلى عالمٍ آخر.

وكان في ذلك إشارةٌ نيّرةٌ، ودعوةٌ إلى مواصلة الحوار، بُغية الجمع بين خواطر الفيلسوف التي لا تخلو من عاطفةٍ، ومشاعر الصحفيّ الملتصق بحياة كلّ يومٍ، وبات ذلك هو مطمح هذا الكتاب.

إلى أين تمضي البشريّة؟

لم يكن قد غرب عن بالي الحدْس المنذر الذي جعل الفيلسوف يتحدّث عن «التحوّل»، فاستوضحتُ:

– إلى أين ماضيةٌ البشريّة؟

– إنّها في عشيّة تحوُّلٍ جسيمٍ، بل في عشيّة طفرةٍ، وهذه نظرةٌ متفائلةٌ. أمّا المتشائمون فيرون أنّها تجري إلى الكارثة، إلى تدميرٍ ذاتيٍّ شاملٍ، إلى

انتحارٍ جماعيٍّ. وهذا يعني أنّ استمرار الحياة البشريّة غير مضمونٍ سلَفًا، لأنّ التقدّم الأخلاقيّ والروحيّ لم يواكب التقدّمَ التقنيّ، والمادّيّ، والفكريّ. فلنراقب الوقائع التي جرت في الزمن، وديناميّة تطوّرنا. فقد احتاج إنسان ما قبل التاريخ إلى مئة ألف سنةٍ كي يبتدع أداةً، ويخترع النار. كان كلّ شيءٍ يحدث على غرار ما يحدث في عالم الحشرات، حيث لا شيء يتطوّر. ثمّ تناول الإنسان قدَره بيده، واخترع التقدّم. ومع ذلك انصرم خمسون عامًا قبل الانتقال من الشراع إلى البخار. أمّا اليوم، فتتطوّر السيّارة، أو الطيّارة، أو الحاسوب، في غضون سنواتٍ معدوداتٍ.

– وهل هذا يُخيفك؟

– بل هذا يسائلني. فنحن نشهد تسارعًا عشوائيًّا في العلم، وفي جميع الميادين، لا معايير له. فبفضل وسائل الاتّصالات، التي لا تني تكتسب سرعةً تتزايد باطّرادٍ، غدا الإعلام فوريًّا وعالميًّا. كلّ شيءٍ تغيّر. وتمّ الانتقال من حضارة المكتوب إلى حضارة الصورة، مع أنّ المكتوب يبقى هو التعبير الأساسيّ عن الفكر. ولكنّ وعاء العلم، الذي كان ورقًا، أخلى مساحةً واسعةً للأسطوانة الليزريّة، فأمسى قرصٌ مدمّجٌ واحدٌ، يحتوي على مئتي ألف صفحة كتابٍ، بمتناول الجميع. وفي خطٍّ موازٍ، بواسطة الآلة، حلّت الأتمتة، أكثر فأكثر، محلّ الأيدي البشريّة. وغدًا سيصبح بوسع إنسانٍ وحيدٍ قابعٍ أمام حاسوبه النفاذ إلى العلم كلّه.

– ليس في هذا ما يدعو إلى التشاؤم، بل العكس هو الصحيح.

– إنّها جيّدةٌ في ذاتها، مسيرةُ التقدّم التقنيّ، وسيادة الحاسوب، والتخصّص المفرط، وانتشار الآلات في كلّ مجالٍ، غير أنّها تنشئ مضارّ تهدّد بناء حضارتنا، كاتّساع رقعة البطالة، وتعميق الهوّة بين شعوبٍ حقّقت، بنجاحٍ، انطلاقاتها الصناعيّة، وشعوب العالم الثالث المهملة؛ فضلاً عمّا تولّده الآلات من تلوُّثٍ، وعن الإفراط في البحث عن زيادة الإنتاجيّة الزراعيّة، وعن الطاقة النوويّة، والمغالاة في التسلّح، وتكاثر

الشعوب الفقيرة، في حين تتدنّى أعداد الشعوب الغنيّة، وعن تهديد الإرهاب، وهو سلاح الفقراء، الرهيب. إفراطٌ في كلّ مجالٍ. وما هو الأخطر، حيال التقدّم التقنيّ العشوائيّ، هو أنّ الجنس البشريّ يكاد لا يشهد أيّ تقدّمٍ أخلاقيٍّ.

ما هو التحوّل المُرتَقَب؟

تلمّس الفيلسوف هواجسي، التي كان يقاسمني إيّاها، والتي كانت تعبّر عنها وجوه الفلاسفة التي رسمها بريشته، وعلّق صورها على الجدران: پول ڤاليري، تيلار دي شاردان، هيدغر، برغسون. وتابع حديثه:

– إنّ البشريّة تواجه وضعًا لم تعهد له، من قبل، مثيلاً. فنحن لا نعرف ما ينتظرنا، ولا نملك نموذجًا يساعدنا على مواجهة هذا الخطر. ولا تتّسع لنا فسحةٌ كافيةٌ من الوقت كي نتأهّب له. إنّنا ندخل حقبةً تتّسم بالماورائيّة، ونحن مغمضو الأعين. ولكن لا أحد يرغب في الخوض في هذا المضمار، بل إنّ العالم يؤثر الاقتصار على ما يدعوه پاسكال: «حلول التسلية واللهو».

– هل هذا هو جوابك على سؤال: «إلى أين يمضي التطوّر؟».

– أجل. إنّنا نشهد الأحياء يتطوّرون نحو مزيدٍ من التعقيد. ويواكب هذا التطوّر، لدى الإنسان، يقظةٌ، واتّساع آفاق الوعي. وأنا ممّن يعتقدون أنّ الوعي الأسمى يبلغ ذروته في الخبرة الصوفيّة.

– هل هذا يعني أنّنا على طرفَيْ نقيضٍ من التطوّر التقنيّ الصرف؟

– أنا لا أُعارض سوى الإسراف.

وتجرّأتُ فقلتُ:

– يقترح الحكماء لجم التقدّم، وتوقّفًا مؤقّتًا يتيح للوعي الأخلاقيّ ردم هوّة تأخّره.

– توقّف؟ هذا محال، إذ لا يملك الجميع كلّ شيءٍ. فثمّة شيءٌ أَو أحدٌ يرغمنا، من وراء الستار، على المضيّ قُدُمًا. ونحن نعاني رغبةً عنيفةً في استخدام الأجنحة، على حدّ قول سقراط؛ إذ إنّنا ما عدنا نبحر فوق نهرٍ عريضٍ هادئٍ، فهذا النهر قد أضحى سيلاً محصورًا بين منحدَرَيْن صخريَّيْن، ولا منفذ آخر له. قد نغمض العينَين، ونسدّ الأذنين، غير أنّ متيقّظي الحواسّ يسمعون هدير الشلاّل، والنياغارا الذي يهوي إليه نهر الحياة.

– وهل أنت تسمعه؟

– أجل، فالإشارات السلبيّة كثيرةٌ، وجميعها تؤكّد ضرورة التغيير، قائلةً: لا يمكن أن تستمرّ اللامساواة، وعجز أكثر المجتمعات ادّعاءً للتقدّم عن توفير عملٍ لشبّانها؛ والمدن اللاإنسانيّة المحاطة بضواحٍ يائسةٍ بائسةٍ؛ وتداعي الأُسرة، وانحلال الأَخلاق، وفساد الرؤساء، والعنف، والعنصريّة، والبغض. وإنّه لذو مغزًى عميقٍ أنّ الأتمتة، أي التقدّم التقنيّ الحاسم، عوضًا عن إنتاج فسحات فراغٍ يستخدمها الجميع كي يتثقّفوا، ويعمّقوا حياتهم الروحيّة، ويكتشفوا غنى عالمنا الداخليّ، ويعيدوا اكتشاف الحبّ، قد أنتجت، في الواقع، وفي أحسن الأحوال، قومًا متخَمين، أصابهم التلفزيون بالبلادة؛ وفي أسوأ الأحوال، قومًا مهملين، هم بذور ثوّارٍ، ومتعاطي مخدّراتٍ، وجانحين. لست أستثني سوى أقلّيّةٍ ضئيلةٍ ممّن وجدوا السبيل إلى الاحتفاظ بالقِيَم السليمة، وتنميتها.

واقترحتُ:

– هذا التقدّم العشوائيّ لا يهدّد فقط أنماط الوجود، أي الأَجساد، والمدن، والأُمم، بل أنماط «الجوهر»، أيضًا.

– أجل، إنّ الجوهريّ مهدّدٌ، أي ليس، فقط، نموذج الكون المادّيّ، ورؤيته الميكانيكيّة والمادّيّة، التي جعلتها نظريّة «الكمّات» (Quantique) موضع تساؤلٍ، بل أيضًا، الحبّ، والأُسرة، والإنجاب، والحياة، والتربية، والثقافة، ومعنى الحياة، وتعريف الطبيعة البشريّة، وبالطبع، مفهوم الله، وهو السبب الأوّل والأخير.

وهكذا تفوّه، للمرَّة الأولى، باللفظة التي كانت تراوده. فقلت:

– إن كان العالم، كما نرجو، لا تحكمه الصدفة، فيمكننا التساؤل لمَ لمْ يجعل الخالق التقدّم الأخلاقيّ يواكب التقدّم المادّيّ الذي سمح به، درءًا للفوضى.

– لقد أجاب شاتوبريان على هذا الاعتراض بقوله: «لقد واكبتْ، دائمًا الكوارث المريعة فسادَ الأخلاق. وربّما أقام اللّٰه تلازمًا بين نظام العالم المادّيّ، ونظامه الأَخلاقيّ، بحيث إنّ أيّة بلبلةٍ في هذا النظام الأخير، تُحدث تغييراتٍ لا بدّ منها، في النظام الآخر». هذا هو مكمن رجائنا.

ما هي غاية الحياة؟

طرحتُ، حينئذٍ، سؤالاً جوهريًّا آخر:

– ولكن، ما هي غاية الحياة؟

وتردّد طويلاً قبل أن يجيب:

– إذا بسّطنا، يمكننا القول إنّ غاية الحياة هي الحياة عينها. بصفتي مخلوقًا جسديًّا، لديّ عطشٌ إلى الوجود، وأنشُد الحياة، والمتعة، وأهرب من الألم والموت. غير أنّني أكثر من حيوانٍ. وبصفتي إنسانًا، وكائنًا أخلاقيًّا، أنشد الخير، أي الواجب، والعدل، وأحيانًا القداسة. وبصفتي فنّانًا، أنشد الجمال الذي يمثّل، لي، سَنى الحقّ وصورة الخير. وبصفتي فيلسوفًا، مبرّر حياتي هو الحقّ. إذن، الوجوه الثلاثة للمثل الأعلى هي: الخير، والجمال، والحقّ. وكلمةٌ واحدةٌ توجز كلّ ذلك: الحبّ.

– واضحٌ أنّ الحبّ هو غاية الحياة!

اندفاعي جعله يبتسم ويعلّق:

– ولكن، من هو القادر على تحقيق قول القدّيس يوحنّا الرائع: «الحبّ يكفي»؟

– إنّ المعضلات التي يواجهها الإنسان جسيمةٌ. وكذلك هي تساؤلاته: ما هي الحقيقة؟ هل الكون «آلةٌ»، أم هو حزمةٌ من الطاقات تفعّلها فكرةٌ رحبةٌ؟ ما هو جوهر المادّة؟ أين تبدأ وأين تنتهي حدود واقعنا: الصغير اللانهائيّ الكامن في الذرّة، أم الكبير بلا حدودٍ الثاوي في الكون الكلّيّ؟ من هو خالقه، ومن يدير نظامه؟ وما دور الإنسان في هذه المجموعة، دور الجسد، ودور المادّيّة؟ وما هو جوهر الروح؟ وما معنى وحدة النفس والجسد، وهذا المزيج – أو هذه المساكنة – الذي يبدو مستحيلاً؟ ولمَ ثمّة شيءٌ، وليس عدمٌ؟ وبالتالي، ما هو معنى الكون والحياة، ومكان الإنسان في الكوْن، ما هو مكاني فيه، ومكانك؟ وما هي الحياة الروحيّة، تلك القمّة التي تلامس هوّةً لا حدود لها؟ وما هي الحرّيّة، تلك النزعة الغريزيّة الموغلة في الهشاشة، والمعرّضة لكثير من المخاطر؟ حيال عجزنا عن الإجابة على هذه التساؤلات الأساسيّة، التي تنال من عزيمة العالِم، بل من عزيمة الفيلسوف، أحيانًا، نضطرّ إلى الانكفاء على السؤال العمليّ الذي كنّا نطرحه: هل نحن في نهاية العالم أو في بدايته؟ هل نحن على عتبة العدم، أم على عتبة الأبديّة، عبر تحوّلٍ سرّيٍّ؟ هل نحن آخر المسيحيّين أم روّادهم؟ آخر البشر أم طليعتهم؟

على الحائط كانت معلّقةً صورةٌ لپاسكال رسمها جان غيتّون بريشته. وفي نظراته كانت تجول كلّ تساؤلات البشريّة. وتابع الفيلسوف قوله:

– كلّ شيءٍ يدافع عن النظريّة الثانية، مع أنّنا ما زلنا نجهل ما سنصير إليه، غدًا. وبما أنّ الإنسان أُعطي حرّيّة الاختيار بين «لامعقول» النفي، و«سرّ» النَعَم الذي نجيب به الحبّ، فإنّني أختار السرّ، أختار الكلّ وأرفض العدم، أختار الحبّ، فهو أعظم حدَثٍ ينعم به الوضع البشريّ، وهو قمّة التحوّل الذي لا يُفرض فرضًا، بل يُقدّم؛ أختار الفرح والسعادة. أختار الوجود، هذا الجوهر المعرّض للعطب، والذي يتعذّر، مع ذلك، تدميره. إنّني أختار الحرّيّة.

– كانت تيريز مارتان تقول: «أختار الكلّ».

– إنّي أتأهّب، بذلك، لاستقبال تحوّلي، في الرغبة، والرعدة، والرجاء.

الفناء، أو التحوّل نحو الأسمى

فكرة الخيار بين اللامعقول والسرّيّ، أقضّت مضجعي. من المحقّق أنّ جموحِ التقدّم العلميّ الذي يواكبه انحطاطٌ أخلاقيٌّ، لا يمكنه أن يستمرّ طويلاً، على نفس الوتيرة من السرعة. ولن يلبث أن تتفجّر منه، على ضوء النور الساطع المنبعث من الهوّة، ضرورة الخيار بين العدم والكيان، فلم يبقَ أمام البشريّة سوى نهجَيْن: الفناء، أو السموّ والتحوّل. وليس للشبيبة من خيارٍ سوى أن تنهك ذاتها في الجنس، والمخدّرات، وكلّ ضروب الإفراط، أو إعادة اكتشاف الحبّ الصادق، منبع كلّ رجاءٍ.

عندما التقيت الفيلسوف ثانيةً، في الغداة، استقبلني بفرحٍ قائلاً:

– ينبغي، أوّلاً، تدارس ما يجبُ إزالته: العَرَضيّ والمؤقّت، والإفراط، وما يجب إبرازه، أي الحفاظ على ما في كنوز الماضي من جوهريٍّ، والتطوّر المتدرّج، والاستمراريّة؛ التوافق بين شباب الأجيال الدائم، مع الحفاظ على ما ينطوي عليه الشباب من جوهريٍّ، أي اندفاعه الخلاّق. وينبغي التشبّث بفكرةٍ محدّدةٍ عن الإنسان، مثلما يحافظ الربّان على توجّه سفينته، ليلاً. ينبغي إنقاذ الجوهر، وتذوّقه.

– لمزيدٍ من الإيضاح: نحن لا نتوقّع تحوّلاً واحدًا، بل تحوُّلَيْن: ترقية الروح الذي ينبغي أن تكون له الأولويّة على المادّة، وإعلاء شأن الحبّ.

– إعلاء شأن الروح بواسطة الحبّ، وإعلاء شأن الحبّ بالروح. هذا الخيار المتفائل يسلتزم منّا مساهمةً نشيطةً وشخصيّةً. فنحن خُلقنا أحرارًا، ولن نخلَّص بمعزلٍ عنّا. ولن نقوى على تخطّي العتبة الحاسمة، باكتفائنا بحلولِ تسويةٍ. ليس أمامنا سوى وسيلَتَيْن لحلّ القضايا التي يطرحها استمرار وجود الجنس البشريّ: التدمير، أو العودة إلى السراط القويم: أي

الاضطراب الذي يولّد الفوضى والموت، أو تبنّي نظامٍ للعالم يحقّق، أخيرًا، التناغم، نظامٍ روحيٍّ، أخويٍّ، يطبعه الحبّ.

وجال بخاطري: «منذ ألفي عام، وهذه فترةٌ ضئيلةٌ بالقياس إلى الوجود البشريّ، جاء المسيح، مرسلاً من قبل الله، وربّما كان هو الله نفسه، وقد راعه ما انتهت إليه خلائقه، لكي يعطينا المفتاح المدعوّ «الحبّ». وسألتُ:

– كيف نجتاز هذا العبور؟

– كما قلت لك: بالعودة إلى الفضيلة.

– هذه الكلمة ليست رائجةً، اليوم.

– ولكنّها راجت، طويلاً، وستستعيد رواجها، رغبةً فيها، أو تحت ضغط الحاجة إليها. في كلّ مكانٍ من العالم يسعى مال الفساد إلى بسط سلطانه. والفضائل تحاكي الآجرّات التي تكوّن المسكن الأخلاقيّ.

– هذه، أيضًا، لفظةٌ لم يعُد يترجّع لها أيّ صدًى.

– ولكن يجب تبيّن هل يريد البشر المتعة أم الحياة.

– إنّهم يبتغون الاثنتين معًا، فهما مطلبٌ مشروعٌ.

– ينبغي، إذن، اختيار نمطٍ من المتعة لا يتعارض من سنَن الحياة، وغايتها السرّيّة. ينبغي أن يُضفى على الفضيلة نضارةٌ قشيبةٌ، وعلى الحكمة زخمٌ متجدّدٌ، وعلى الأخلاق رونقٌ. وسيثمر ذلك فرحًا. شئنا أم أبينا، علينا أن نختار.

وتمتمتُ:

– خيارٌ. في الحياة، وإزاء نزعاتنا الغريزيّة، نواجه، دائمًا، خياراتٍ نستعين عليها بالحذَر والتعقّل. ووفقًا لما يكون عليه خيارنا من صوابٍ أو خطإٍ، نحصد ضحكًا أو دموعًا، ولكن ما تعني الحكمة، اليوم؟

– الحكيم هو من يحسن الخيار بين الخير والشرّ، أو أقلّه بين القدر الأدنى من الشرّ والشرّ الأقصى، بين ما يقود إلى النجاح، أو ما يؤدّي إلى الفشل.

هو من يجيد التمييز.

– ولكنّ ذلك غير متوفّرٍ للجميع. لماذا؟

– التمييز لا يُعطى، بل يُكتسب. للفظة «الأخلاق»، اليوم، صدًى سلبيٌّ لأنّها تنطوي على فكرة قسرٍ تبدو متعارضةً مع حلم الحرّيّة. والصعوبة ناجمةٌ عن أنّ المبادئ الأخلاقيّة، والنظام، والفضيلة، هي شروط بلوغ الحرّيّة الحقّة، والسعادة الدائمة الوحيدة.

– ولكنّ العموم لا يرغبون في الخضوع لهذه الشروط، بل، كما قيل في أيّار ١٩٦٨، (تاريخ ثورة الطلاّب في فرنسا) إنّهم يريدون كلّ شيءٍ، في الحال، وبلا جهدٍ، و«المنع ممنوع». عن ذلك نشأت موجة الإباحيّة التي نشهدها. فما الذي أوصل إلى هذا الوضع؟

– كي يبلغ الولد سنّ الرشد، عليه أن يفكّر بنفسه. وهذا العبور الصعب يقتضي التشكيك بأمورٍ كثيرةٍ، وربّما قليلةً أو كثيرةً.

– وفي غمرة الشكّ، ينتفي الإيمان بأيّ شيءٍ.

الشكّ يولّد الإباحيّة

رمق الفيلسوف لوحةً صغيرةً رُسم عليها وجهٌ ماكرٌ لامرأةٍ ترمز إلى «الإبهام»، وقال:

– من الرائج، سياسيًّا، أن يكون المرء إباحيًّا، أي أن يُقلع عن أيّ اقتضاءٍ صارمٍ، وثمّة نزعةٌ إلى الاستعاضة عن اليقين الدينيّ، والأخلاقيّ، والعلميّ الذي كان، من قبلُ، سائدًا، بضربٍ من القلق والريبة.... حتّى الكنائس لم تعد تلقّن حقيقةً مطلقةً آتيةً من الله، لكيلا تُتّهم بالتزمّت، ويمضي البعض إلى أبعد من ذلك، فيضعون موضع الشكّ كلّ ما هو في

مبادئ الأخلاق، ناجمٌ عن القانون، أو عن المعاهدات الأكثر قدسيّةً في الظاهر: مثل العلاقات الأسرويّة، وشرائع السلوك بين الرجال والنساء، واستخدام الخيرات، والملكيّة، والتربية، والرجاء، والطقوس الدينيّة، وفكرة الازدواجيّة البشريّة، والخطأ، وبالإجمال كلّ البُنى العلويّة، التي كانت تُلبَس ثوب الحقيقة.

– بحجّة احترام الكائن البشريّ، والليبراليّة، والحرّيّة، بتنا نُشيد بما كنّا، في الأمس القريب، نزدريه عند خصومنا. أليس لدى هؤلاء الكثير ممّا يلقّنوننا؟

– إذن، يبدو كلّ شيءٍ ملوّثًا بالشكّ. لقد فقدنا الثقة بكلّ ما كنّا، قديمًا، نفخر به، وما كان يرسّخ سلامنا النفسيّ، إذ كنّا نمتلك ملء الحقيقة. وشيئًا فشيئًا فقدنا الإيمان به: بعض جوانب غامضة من الإيمان؛ كلّ ما في الأخلاق يبدو انتقاصًا من الحرّيّة، وكلّ ما كان كفيلاً بصدم المُلحدين والفجّار. أليس لهؤلاء حقّ العيش وفقًا لمبادئهم «الأخلاقيّة»، ولو كانت أنانيّة؟ لقد انتبذنا فكرة الخطيئة، والحكم الإلهيّ بعد الموت، وكلّ ضرورةٍ أو فائدةٍ للتضحية، وقبول الألم. وحتّى إن كنّا، في سرّنا، ما زلنا مؤمنين بهذه الفضائل، فنحن نمسك عن التكلّم عنها.

– إذن، فلنتكلّم عنها بلا خجلٍ، ولا حرجٍ، عاملين بنصيحة القدّيس بولس: التمعّن في كلّ شيءٍ، والاحتفاظ بما هو جيّدٌ، ومفيدٌ. وبذلك ننعتق من الشكّ المدمّر، ونصوغ أشخاصًا ناضجين مؤهّلين للحياة وللسعادة.

وردّ جان غيتّون بقوّةٍ:

– ليس المطلوب الحفاظ، بأيّ سعرٍ، على أهداب التقاليد النخرة، بل العودة إلى تقاليد العقل، وإرث مبادئ الأخلاق الطبيعيّة، والوفاء للتقليد العريق اليونانيّ الرومانيّ، وللتقليد المسيحيّ، تلك التقاليد التي وهبت الحضارة الغربيّة قسطًا من الخير يتعيّن الحفاظ عليه: كالحرّيّة، والسخاء، وحقوق الإنسان، والإخاء، والصدق، والعدل، والشرف، وجذور احترام

الذات والآخرين، والصداقة؛ ورفض القبول بتفوّق الأنانيّة والرداءة على الحبّ والفهم، وهذا يقتضي الإقلاع عن التماس الثأر والراحة في أحضان النقد، والالتزام الشخصيّ بما نقول ونفعل، وأن نغذّي، في ذواتنا، تجربة الأفضل، وأن نعُدّ تحقيق إنجازاتٍ عظيمةٍ مشتركةٍ، خيرًا مقدّسًا.

الشبيبة والأخلاق

كان سؤالٌ لا يني يُراودني:

– هل سيرحّب الشباب بهذه الرسالة؟ فعندما نحن نستوضحهم، نستشفّ لديهم تطلّعًا إلى السعادة والحياة، ممزوجًا بقلقٍ عميقٍ.

– لقد كان الشبّان المفكّرون، دائمًا، قلقين.

– ولكن كان لديهم معالم يرجعون إليها، فيستعيدون توازنهم. أمّا اليوم فقد فقدوها، ما خلا استثناءاتٍ، كما يحدث في أيّام الشبيبة العالميّة، فهم لا يعترفون بقائدٍ أو بمعلّمٍ. ومن ثمّ تبدو لهم قضايا الحياة: العمل، والسياسة، والعالم، والبيئة، مستعصيةً على الحلّ. أمّا التقاليد التي شدّت عضد أجدادهم، فتبدو لهم باليةً، غير متوافقةٍ مع الأزمنة الحديثة.

وشردت أنظار جان غيتّون، لحظاتٍ، قبل أن يُجيب:

– الأخلاق تلقّن الولد أنّ حرّيّته تتوقّف حيث تبدأ حرّيّة الآخرين، وإلاّ فالحياة الجماعيّة تتعذّر، وتسود شريعة الغاب حيث الأقوى يفترس الأضعف. وهذا ما يحدث في بعض الضواحي. فحيث ترفض أقلّيّةٌ قويّةٌ قواعد الأخلاق، ومبادئ السلوك المتّفق عليها، تفرض شريعةُ الغاب نفسها. ولا تلبث أن تنتفي حياة الجماعة، ويهوي المجتمع إلى تدميرٍ ذاتيٍّ. ويؤدّي فقدان الأمان إلى فرار الإداريّين المؤهّلين، ممّا يُجهز على المجتمع.

الثورة والتحوّل المطلوبان هما استبدال الكره بالحبّ، والأنانيّة ببذل الذات. الشبان كفيلون بفهم ذلك جيّدًا، وبأن يفيضوا سخاءً عندما يتبنّون مثالاً رفيعًا.

فقلت :

– رغم ظواهر تجاوزاتٍ مقلقةٍ، يبدو لي، على الأقلّ، أنّ العالم يشهد نموّ ضربٍ من الأخلاق النفعيّة. فبما أنّهم ينعمون بمزيدٍ من الحرّيّة، بات الشبّان أقلّ رياءً، وقد أدرك بعضهم أنّ لا جدوى من اللاّاكتراث، ومن التحايُل، بل لا بدّ من تغييرٍ جذريٍّ في العقليّة. ولكن يلزم أكثر من ذلك: ينبغي أن يُزرع في الشباب تذوّق ما هو شاقٌّ، وقويٌّ، وعسيرٌ، بل تذوّق التضحية. وليست تلك مهمّةً مستحيلةً، إن بوشر بها باكرًا، وهذا يقتضي التزام الأَهل بمسؤوليّاتهم.

– تلقين الشباب مبادئ الأخلاق لا يُجدي نفعًا إن لم يسانده مثال الكبار، وحبّهم المجرّد، الصامت. فالحبّ هو مفتاح الحلّ، ومفتاح التحوّل.

تلقين الأخلاق، أم إغداق الحبّ؟

«أَحبب، تحيَ» هذا ما يقوله إله العهد، وهذا ما كرّره القدّيس يوحنّا: «نحن نعلم أنّنا قد عبرنا من الموت إلى الحياة، لأنّنا نحبّ إخوتنا». كان «ستان روجييه» (Stan Rougier)، لدى استقباله شابًّا مسطولاً، بفعل المخدّرات، يبدأ بالتأهّب لحبّه. وهو يعترف: «كنت أردّد في ذاتي: «يا ربّ، أعطِني أن أُرحّب به، واجعلني أُحبّه»، فقد كنت أخشى أن أُلقي عليه دروسًا في الأخلاق».

وقد عبّر «أندريه كونت سبونڤيل» (André Comte-Sponville) عن ضرورة إعطاء الحبّ وتلقّيه؛ فقال: «نحن لا نحتاج إلى الأخلاق إلاّ من جرّاء افتقارنا إلى الحبّ، ولذلك نحن في حاجةٍ حارقةٍ إلى الأخلاق... ونحن لا نشعر بهذه الحاجة إلاّ بفضل القليل من الحبّ، الذي أُعطيناه، والذي أفلحنا في الحفاظ عليه، أو الصبوّ إليه، واستعادته... لا يُخلق الإنسان فاضلاً، بل يصبح فاضلاً بالتربية، ومبادئ الأخلاق، وبالحبّ».

ثمّ، إنّ، في أيّامنا، فيضًا من المعلومات. وأكثر من أيّ يومٍ مضى،

نحن لسنا في حاجةٍ إلى معرفةٍ، بل إلى قدوةٍ، وإلى أفكارٍ نيّرةٍ بسيطةٍ، توضّح مبادئ هاديةً. علينا أن نتقصّى بعض نقاطٍ ملموسةٍ مستقاةٍ من خبرات البشريّة، وعلينا اكتناهها بإصرارٍ ورجاءٍ.

* *

لم نضع هذا الكتاب، نحن الاثنين، وحدنا. بل أدخلنا فيه شهادات شتّى الكتّاب الذين نقاسمهم الرجاء والحبّ. ولم نغفل غمزات الريّابين، والنقّاد، والمتذمّرين، ففي الواقع لا ينفصل الظلّ عن النور. وإن نحن بحثنا عن كنوز التقاليد، فقد فعلنا ذلك، بعيدًا عن التقيّد بكلّ حذافير تلك التقاليد.

سيتضمّن هذا الكتاب حكمةً متواضعةً، تستمدّ تأكيداتها من التجربة المعاشة، حكمةً ملهمةً يجد فيها ذواتهم جميعُ أصحاب النوايا الحسنة، رجالاً ونساءً، ولا سيّما «النفوس الصغيرة» التي كانت تؤثرها القدّيسة تيريز الطفل يسوع، النفوس الرقيقة، المتقشّفة، المتواضعة، الحريصة على إتقان كلّ عملٍ، وعلى الحبّ.

كان القدّيس بولس يعي مشقّة هذه المهمّة، وهو الذي كتب بتواضعٍ:

«أجل، إنّي أعلمُ أن الصَّلاح لا يسكن فيّ، أي في جسدي، إذ في وِسْعي أن أريد الخير، وأمّا أن أفعله، فلا؛ لأنّ ما أريد من الصَّلاح لا أفعلُهُ، وأمّا ما لا أُريد من الشرّ فإيّاه أَفعل» (روما ٧: ١٨– ١٩).

هذا التغيير الذاتيّ العميق، هو الصراع اليوميّ، بكلّ ما يعتوره من صعودٍ وهبوطٍ، من نجاحٍ وفشلٍ، فكلّ يومٍ تبدأ الحياة بانطلاقةٍ جديدةٍ مع اليقين بأنّ تغيير العالم يبدأ بتغيير الذات.

جان جاك أَنتييه

الحبّ

مرادفاتٌ: هوًى، عشقٌ، مودّةٌ، صداقةٌ، حنانٌ، عطفٌ، محبّةٌ.

أضدادٌ: بغضٌ، لامبالاةٌ، عدائيّةٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «أحبب، وافعل ما تشاء. مقياس الحبّ، حبٌّ بلا قياس». (القدّيس أوغسطينس)

«الحبّ، هو الابتهاج». (أَرسطو)

«الإنسان الحرّ هو ضرورةٌ مفعمةٌ حبًّا». (نيتشه)

«الحبّ يعمل ولا عهد له بكلَل». (ميلان كونديرا)

تعريفٌ: الحبّ هو اندفاعٌ جسديٌ، أو عاطفيٌّ، أو روحيٌّ، يحمل كائنًا نحو آخر، بغية الابتهاج، أو العطاء. إنّه محرّك الحياة: يخلق ويُمتع. الجاذب الجنسيّ يشترك به الحيوان والإنسان، ويفضي إلى توالد الأَجناس، ولكنّه، لدى الإنسان، قد يكون منفصلاً عن هذه الوظيفة. وحينئذٍ قد يكون مدرجةً إلى الانحطاط، وقد يكون معراج سموٍّ.

ثمّة ثلاثة أنماطٍ من الحبّ، كفيلةٌ بالتداخل:

الشبَق: أو العشق الجسديّ، الجنسيّ. رغبةٌ حسّيّةٌ في آخر، يعبّر عنها الهوى، وغالبًا ما تعاش حرمانًا وألَمًا.

المودّة: الحبّ الجسديّ يتطوّر إلى حنانٍ. يتخطّى كونه مجرّد غريزةٍ حيوانيّةٍ، أو شهوةٍ جامحةٍ، ويغدو عطاءً يولّد فرحًا وازدهارًا. وهو يتمثّل في الحبّ الزوجيّ المكتمل، والحبّ المتبادل مع الأولاد. وهو أيضًا الصداقة. غير أنّه يظلّ مشوبًا بشيءٍ من المصلحة.

المحبّة: إنّها الحبّ المبذول بلا مقابلٍ. إنّها الخير الأَمثل. المؤمنون يجدون منبعها في اللّه، فاللّه حبٌّ.

ثمّة، إذن، تعارضٌ بين حبّ الهوى والشهوة، وحبّ المودّة، والمحبّة، فهاتان تعبّران عن حبّ لطفٍ وصداقةٍ، وتستهدفان خير الآخر لا استملاكه. وغالبًا ما يتجاور الشعوران.

حبّ الهوى ليس فضيلةً. ويقول «كانت» بهذا الشأن: «الهوى قضيّة شعور، وليس قضيّة إرادةٍ، فأنا لا أستطيع أن أُحبّ، لأنّني أريد أن أُحبَّ، ولا لأنّه يتوجّب عليّ أن أُحبّ. ومن ثمّ فإنّ واجب الحبّ منافٍ للعقل». ففي الواقع «الحبّ لا يؤمَر به، بل هو الذي يأمر»، على حدّ قول «سبونڤيل».

ولكن بقدر ما يمضي المرء قُدمًا في الحكمة والفضيلة، يتجرّد من الرغبات الأنانيّة، ويترقّى في معارج الحبّ. إنّه يشرع بحبّ ذاته، ثمّ يحبّ آخر، ثمّ يحبّ الآخرين، وهكذا «يولد العطف من الشهوة، إذ إنّ الحبّ يولد من الرغبة، ولكنّه يسمو بها سموًّا يشيع الفرح والرضى. وهذا الحبّ هو فضيلةٌ، لأنّه يبتغي خير الآخر، وهذا هو الصلاح عينه» (كونت سبونڤيل)

ذاك هو المثل الأسمى، بل، على حدّ قول «كانت»، «مثال القداسة الأعلى». إنّه يقودنا وينير دربنا، إنّه فضيلةٌ لأنّه تميّزٌ وصبوٌّ إلى الكمال. وهو معجزةٌ، «فالحبّ الذي يحقّق مبادئ الأخلاق، يحرّرنا من واجبات الأخلاق». وقد قال القدّيس أوغسطينُس: «أحبب وافعل ما شئت».

الحبّ هو، إذن، مبدأ كلّ شيءٍ.

حوارٌ

– **أَنتييه:** من أين ينشأ الحبّ؟ هل هو ينشأ فقط من الغريزة البهيميّة، كما يدّعي فرويد؟ أنا لا أستطيع أن أومن بهذا الرأي. وهل هو ينشأ من مكانٍ آخر، وما هو؟

– **غيتّون:** في سفر «نشيد الأناشيد»، هذا النشيد العشقيّ التائه

---

(١) هنري برغسون (١٨٥٩– ١٩٤١): فيلسوفٌ فرنسيٌّ، دافع عن الروحانيّة ضدّ المذاهب الوضعيّة والمادّيّة. كان له تأثيرٌ بليغٌ على مفكّري عصره. نال جائزة نوبل عام ١٩٢٧.

في العهد القديم، يرى اليهود والمسيحيّون رمزًا إلى الحبّ الإلهيّ، وكأنّ لا وجود إلاّ لحبٍّ واحدٍ. وقد استوضحتُ في ذلك «برغسون»[1]، الذي كان يعارض نظريّة فرويد. وهو يرى أنّ الأقدمين لم يكتنهوا ملء معنى حبّ الرجل والمرأة، هذا الحبّ الزوجيّ، اللاتعدّديّ، الذي اكتشفته المسيحيّة. لا بدّ، إذن، من معرفة ما كان في البدء، ومن أين تدفّق الحبّ على الأرض. وأوضح برغسون قائلاً: «في نظري لم يكن الجسد هو البادئ، بل الروح. لم يكن الحبّ الجسديّ هو الأوّل، بل، على نقيض ذلك، الحبّ الإلهيّ. ولئن استقى الصوفيّون عباراتهم من عشّاق الأرض، فهم إنّما يستعيدون ما يخصّهم».

– **أَنتييه:** ولكنّك لم تُعرِّف الحبّ.

– **غيتّون:** الحبّ هو تسامٍ هادئٌ للإرادة التي تتّحد بما ترغب فيه، وتتمتّع به مسبّقًا. ولكنّ الحبّ ليس امتلاكًا، بل قد يكون البُعد، والحرمان، والبحث الحائر، من العوامل التي تغذّي الحبّ. وهذا يُدخل قسطًا من الأَلم في تكوين الحبّ. فحتّى الامتلاك في الحبّ، لا يحول دون الأَلم من عدم امتلاك المزيد، ومن التطلّع إلى التوغّل في الامتلاك، غير أنّ الحبّ، أيضًا، ينطوي على فرحٍ، وعلى متعةٍ، ولكأنّ المرء ينعم، حقًّا، بما يرغب فيه. ولذلك يتعذّر فعل أيّ شيءٍ بمعزلٍ عن الحبّ.

– **أَنتييه:** هل ينبغي أن نسمّي، حقًّا، حبًّا تلك النزعة التي تدفعنا إلى التمتّع بالآخرين، أو، على نقيض ذلك، إلى تضحية ذواتنا من أجلهم؟ ثمّة نمطان من الحبّ، ولا بدّ من التمييز بينهما، باستخدام لفظتين متباينتين: الشهوة، والمحبّة.

– **غيتّون:** الشهوة هي رعشة الغريزة الجنسيّة. حبّ الشهوة هذا لا يستهدف سوى مصلحته، ويلتمس المتعة أكثر من التماسه الفرح.

إنّه لا يحبّ الآخر حقًّا، بل يحبّ ذاته من خلال علاقته بالآخر. انحراف الحبّ هذا الذي يخاطب حواسّنا ينمّ عن شهيّةٍ شاذّةٍ إلى المحسوس. هذا النمط من الحبّ، في سبيل الذات، يتجلّى في شتّى العلاقات. أمّا المحبّة، فهي، على النقيض، تدفعنا نحو آخر، وإلى التمتّع بما يصيبه من خيرٍ، وإلى تخيّل كلٍّ، نحن منه جزءٌ، فحسبُ.

– **أَنتييه:** إذن، كيف ينبغي أن نحبّ؟

– **غيتّون:** كي نحبّ علينا أن نُقيم، منذ البدء، في نهاية الشوط، وأن نمتلك المستقبل الذي لم يحضر بعد. الحبّ إذن، يتضمّن الإيمان والرجاء. إنّ الحبّ يتجسّد في ارتباط الرجل والمرأة. هذا الأسلوب في تمنّي ما لا نملكه، وفي التماهي معه، بفضل نوعٍ من الفتنة، ينطبق، تقريبًا على كلّ شيءٍ، حتّى على الذات. أمّا الحبّ السامي، فهو ابتغاء الكون في أفضل حالٍ، والاتّحاد، مسبّقًا، بما سننتهي إليه.

– **أَنتييه:** ثمّة، إذن، صراعٌ، بين الجسد والروح. فما الحلّ؟

– **غيتّون:** التصعيد والتسامي. إنّ الحبّ البشريّ محكومٌ عليه، جوهريًّا، بعدم الاكتمال. فهو لا يحتفظ بهويّته، إلاّ بفضل تغيير الصيغة، والروح، والطبيعة. هذا التغيير يتمّ نحو الأعلى، ويُقحم الماضي (الغريزة) والجسد في واقعٍ أسمى، وحينئذٍ يغلّف الروح النزعات الجنسيّة. إنّ سرّ كلّ حبٍّ هو أن يرقّي إلى ذاته الرموز التي تتدنّى عنه، ويستوعبها في نوره. في عمليّة التحوّل هذه التي يحدثها الحبّ حيال الجسد ينبغي أن نبحث عن الخلاف الناشب بين الجسد والروح. فدَوْر الروح هو تولّي مسؤوليّة ما ينبغي روحنته في المادّة وفي الحياة، وتحقيق تحوّلٍ كاملٍ في طاقات الكون.

– **أَنتييه:** ما هي مفاعيل الحبّ؟

– **غيتّون:** أوّلاً الفرح. المتعة هي الفرح الفاعل. وهي تحتلّ درجةً فوق الامتلاك. إذ يمكن الامتلاك بمعزلٍ عن المتعة، ولكن لا تتيسّر

المتعة بمعزلٍ عن امتلاكٍ حقيقيٍّ. والاندفاع هو الشعور الذي ينتاب المرء عندما يحسّ، في أعماق قلبه، مثل إلهٍ متخفٍّ، ومبدإٍ يحدوه ويمكّنه من الخَلْق. الحميّة، أيضًا، هي ثمرة الحبّ، وهي تتميّز بالاستعجال، والكثافة، والمسيرة النشيطة، لدى من يرجو ويؤمن. ومن نتائج الحبّ، أيضًا، الحنان، والرقّة، والوفاء.

– **أَنتييه:** لم نتكلّم عن حبّ الصغار.

– **غيتّون:** ثمّة الكثير ممّا يقال في هذا الشأن. ظواهر الحبّ هذه تتجلّى في أفراحٍ وأحزانٍ تنطوي على جوهر كلّ حبٍّ. إنّها أروع أنماط الحبّ والآلام، لأنّها فائقة الطهر.

– **أَنتييه:** لندخل الآن في سرّ الحبّ العميق، وفي كلّ مظاهره، من الجسديّة حتّى الروحيّة.

الحبّ الجسديّ

هو حبٌّ ماديٌّ، جنسٌ، شهوةٌ، حبّ هوًى، إنّه «إيرُس»، إله الحبّ لدى الإغريقيّين، ابن أفروديت إلهة الحبّ والخصب.

كلّ شيءٍ بدأ من خرافةٍ عتيقةٍ، خرافة كائنٍ هو رجلٌ وامرأةٌ معًا، أي الكائن البشريّ المكتمل. ولكنّه لأسبابٍ مجهولةٍ (ربّما تمرّد على الخالق؟) شُطر إلى جزئين، فكان أحدهما ذكرًا والآخر أنثى، وكُتب عليهما أن يبحث أحدهما عن الآخر إلى أن يلتقيا، ويستعيدا وحدتهما. هذه الرغبة تدفع صوب الحبّ الجسديّ، الاندماجيّ، الشبق. وهي تقوم على فكرة الوحدة الأصليّة السالفة. وثمّة، أيضًا، فكرةٌ دينيّةٌ (عودة النفس إلى الله) وفكرةٌ نابعةٌ من فلسفة فرويد (وحدة الأمّ والولد المفقودة)، وأخيرًا فكرةٌ بيولوجيّةٌ، (في ميدان الحياة كلّ شيءٍ يبدأ بانقسام الذرّة).

ولئن كان اتّحاد كائنَيْن، (شراكتهما) ممكنًا، فانصهارهما متعذّرٌ. ففي ما يتخطّى التزاوج، يبقى واقع الأنا ووحدته. المثاليّ، في هذه الدنيا، يقتضي امّحاء الأنا، وهذا يعني الموت.

وفي منطقٍ أكثر علميّةً، الحبّ الجسديّ هو اندفاعٌ غريزيٌّ مدوَّنٌ في جيناتنا، ويحمل الرجل والمرأة على الاتّحاد بهدف الإنجاب، وضمانًا لاستمرار الحياة وتجديدها... وفي سبيل ذلك يستخدم الجنس جواذب رغبةٍ ولذّةٍ يصعب مقاومتها. ومن ثمّ فإنّ حبّ الشهوة هذا، لا يتّسم بأيّة فضيلةٍ، وإن نحن تكلّمنا عنه، هنا، فلأنّه الحركة الأولى من ظاهرةٍ جسيمةٍ تقود إلى الحبّ الروحيّ، إلى المحبّة.

الحبّ الجسديّ، إذن، ليس اندماجًا، بل هو لقاءٌ عذبٌ بين

وحدتَيْن. وله شأنٌ محقّقٌ، عندما ينجح. فجوهر الحبّ الجسديّ هو البحث الناجم عن رغبةٍ في ما ينقصنا. «فالحبّ رغبةٌ، والرغبة تعبيرٌ عن افتقارٍ»، على حدّ قول «كونت سپونڤيل».

ولكنّ الحبّ الجسديّ لا يرتوي أبدًا، إذ إنّه يقوم على الرغبة، وإذا ما ارتوى أمسى حزينًا، ولا يبقى فيه من الحبّ أثرٌ. ولا يولد من جديدٍ إلاّ بتجدّد الرغبة في ما ينقص. إنّه يحاكي العطش.

حوارٌ

– **أَنتييه:** الحبّ الجنسيّ هو ابتكار الطبيعة والخالق في سبيل الحثّ على ضمان استمرار الأجناس الحيّة. ولكنّه، في الجنس البشريّ، هو أكثر من ذلك. فمعظم العلاقات الجنسيّة تتمّ بمعزلٍ عن أيّة غايةٍ في الإنجاب، ولا غاية لها سوى المتعة. فما هو رأيكم في الهوى الذي يستولي على كلّ الكيان؟

– **غيتّون:** حبّ الهوى هو نارٌ، جمرٌ، يحرق أكثر ممّا يضيء، ينشأ من حركةٍ بدائيّةٍ غير واعيةٍ، من حادثٍ طارئٍ لا يُشاهد. إنّه تاريخٌ غريزيٌّ قديمٌ، يطفو على سطح الذاكرة. وحينئذٍ لا يعود الحبّ قائمًا على الخيار الحميم، ولا على العطاء المتبادل، بل على تحوّلات اندفاعٍ مرتبطٍ بالحياة.

– **أَنتييه:** الحبّ الجسديّ هو، إذن، واقعٌ من نارٍ، من الخطير العبث به، مثل الطاقة النوويّة التي قد يكون استخدامها مفيدًا، وقد يكون وبيلاً مدمّرًا. فمن أين هو يستمدّ قدرته التفجيريّة، اللامتناسبة مع الجسد؟

– **غيتّون:** حبّ الهوى هو زيغان الطهر العلويّ، ومن ذلك يستمدّ إغراءه. أجل ليس ثمّة تناسبٌ بين علاقة الرجل والمرأة، وأثر هذه العلاقة على الوضع النفسيّ الإنسانيّ. فعندما يتخطّى الحدث العامل الذي يحدثه، وعندما تفجّر شرارةٌ مستودع بارودٍ، وعندما تنهار

إمبراطوريّةٌ إكرامًا لشامةٍ على خدٍّ، ففي ذلك الدليل على أنّ الحبّ يحرّك قوّةً كمينةً تتخطّاه.

– **أَنتييه:** هذه القوّة هي الحياة. وتحاكيها إدهاشًا الصدفة التي تبدو وكأنّها مفجّرها.

– **غيتّون:** لقد سمّاها فرويد «ليبيدو» (Libido)، الشهوانيّة، وهي قوّةٌ مجهولةٌ، تحاكي ما يدعوه اللاهوتيّون «الشهوة». إنّها قدرةٌ تثير فينا عوالم، وهي وسيلة الأَجناس لقهر الموت.

– **أَنتييه:** ولكن كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة؟

– **غيتّون:** بوسع الحبّ أن يرتدي وجهَيْن: وجهًا عاديًّا، وآخر مثاليًّا، خفيًّا عن الحواسّ، وجهًا زمنيًّا، وآخر لازمنيًّا، فبحجّة الحبّ تُقحَم بذورٌ أبديّةٌ في الزمن والمدّة. حبّ الشهوة هو القدسيّ في حالته الخاميّة. لا تفسير له إلاّ بما يفوق الطبيعة، من جرّاء عجز التفسير الطبيعيّ. إنّ تفسير الحبّ يقتضي المضيّ إلى ما يتخطّى الحبّ، شأوًا بعيدًا.

– **أَنتييه:** ألا تكمن هنا الأزمة التي تعانيها البشريّة، في الصراع بين الجسد والروح، الروح الذي يبتغي التجسّد في جسدٍ يتمرّد على الروح؟

– **غيتّون:** ذلك هو الواقع. إنّ مصدر القلق وما ينتجه من أَزَمةٍ في الوضع البشريّ يكمن في هذا الصراع. فالازدواجيّة المدوّنة في الجسم البشريّ تبدو مستعصية الحلّ. وقد خيّل للبشر أنّ الأخلاقيّة المسيحيّة، والضغوط الاجتماعيّة، والمحرّمات، بلجمها جموح الغريزة، ستفضي إلى إلغاء الاضطرابات التي عزاها فرويد إلى كبت هذه الغرائز. ولكن ليس هكذا تُستعاد البراءة، ولا يُستعاد الفردوس بالعزوف عن التضحية.

– **أَنتيه:** بعبارةٍ أُخرى، الإنسان مزدوجٌ، ممزّقٌ بين البهيمة والملاك.

– **غيتّون:** هذا محقّقٌ، بل إنّ الإنسان مشطورٌ إلى اثنين، واحدٍ يسمو فوق الحواسّ، ويرقى إلى المستوى الصوفيّ، والآخر خاضعٌ للحواسّ، شهوانيٌّ. هذه الازدواجيّة مدوَّنةٌ في طبيعتنا قبل أيّ تحديدٍ أخلاقيٍّ لا دورَ له سوى دور إِطارٍ، تمليه الحكمة التي تسعى إلى وحدة الكيان. وقد تجلّت هذه الحكمة بوضوحٍ في المسيحيّة التي حاولت استبدال حبّ الشهوة بالمحبّة، أو بالحريّ السموّ بحبّ الشهوة إلى المحبّة «أغاپي». بالتالي، ووفقًا لسنّة الطبيعة، سيحدث الصراع بقدر ما يتعذّر تعايش قيمتيْن وحبَّيْن في روحٍ واحدٍ، حيث تقضي القيمة الأقوى على القيمة الدنيا.

– **أَنتيه:** ولكنّ الجسد لا يستسلم. ألأَجل ذلك تكلّمت عن التضحية؟

– **غيتّون:** إنّ مقاومة الجسد، المتمثّلة في رفضه الاعتراف بتفوّق الروح، تحاول التماس المبرّرات، وتجهد في التسامي، بحيث يصعب تمييزها، ممّا يخفي الصراع الذي يسعى إلى التواري عن الوعي.

– **أَنتيه:** ذلك هو الكبت الذي يستفيض فرويد في التكلّم عنه! وإذن، فما نلحظه من قلقٍ في مجتمعاتنا ناجمٌ عن تمويه الصراع وإنكاره، أكثر ممّا هو ناجمٌ عن الصراع نفسه؟

– **غيتّون:** أعتقد ذلك. فهذا الإنكار يفضي إلى انتشار الحالات الشاذّة، والمبهمة، واللاإنسانيّة، في ذواتنا، وفي المجتمع. وكان من الأَولى الاعتراف بوجود هذا التمزّق الداخليّ، والسعي إلى تخطّيه بالتضحية، والفضيلة، والحكمة. فبمعزلٍ عن هذه كلّها تظلّ اللذّة غير مضمونةٍ.

– **أَنتيه:** وإذن، لم تبتدع المسيحيّة هذه الازدواجيّة، بل أبرزتها،

وبالتالي زادتها حدّةً. فاستحقّت لوم من يرفضون سنّة التطوّر الكبرى، الجاهدة في روحنة الجنس البشريّ. فهل التضحية هي الحلّ للخروج من هذا المأزق؟

– **غيتّون:** ينبغي إخضاع الجسد للروح، والتجرّد عن جزءٍ من ذاتنا لصالح جزءٍ آخر أسمى. فالروح لا يقوى على التوافق مع حركتَيْن متنابذتَيْن. وما التضحية، حينئذٍ، سوى وعدٍ بمُتَعٍ أرفع سموًّا.

– **أنتييه:** هذا يعني أنّ ليس كلّ شيءٍ متاحًا في مضمار الجنس. ولكن كيف يمكن إفهام ذلك؟ وكيف التجرّؤ على المسّ بحرّيّة الممارسات، من غير التعرُّض للنبذ والإدراج في فئة السلفيّين، المُتخلّفين؟ لا ريب أنّ الجميع يدينون الاغتصاب، والعبث الجنسيّ بالأطفال، وسفاح القربى، فهل ينبغي المضيّ إلى أبعد من ذلك؟ إنّ الكنيسة تحرّض على الإخلاص بين الأزواج، وعلى انتهاج سبل العفّة من أجل تحديد الولادات، وبين المخطوبين، وفي سبيل تفادي السيدا. هل هذه التدابير هي من مقتضيات الحكمة، أم إنّها مُثلٌ متعذّرة المنال؟ فالوثنيّون ما كانوا يعدّون حرّيّة الممارسات الجنسيّة رذيلةً، في حين جعلت الكنيسة من الإباحيّة خطيئةً. ويرى البعض أنّ ذلك يؤدّي إلى الكبت وإلى تسميم الروح. فما هو جوابك؟

– **غيتّون:** فلنبحث عن منشأ هذه الأزمة. إنّ المسيح أسّس حبّ الرجل لامرأةٍ واحدةٍ، وكانت سنّته هذه ثوريّةً، إذ إنّها جعلت من الحبّ الزوجيّ ارتباطًا وثيقًا، رقيقًا، دائمًا، بين رجلٍ واحدٍ وامرأةٍ واحدةٍ، وبذلك أسبغ عليه بعدًا روحيًّا.

– **أنتييه:** أين تكمن ثوريّة سنّة يسوع؟

– **غيتّون:** لدى الإغريقيّين القدامى كان نمطان من النساء: سيّدة تُنجب المحاربين، وغانيةٌ عند مفترق الطرقات مهمّتها تهدئة النزوات

الجنسيّة. السيّدة القابعة في المنزل كانت محترمةً، ولكنّها لم تكن عشيقةً، وكان لا بدّ للرجل القديم من امرأةٍ أُخرى كي يشبع شهواته، وكان ثمّة فصلٌ بين فعل الإنجاب المقدّس، والمتعة، أي إرواء الشهوة.

– **أَنتييه:** هذا الفصل كان سائدًا في المجتمع البورجوازيّ الغربيّ حتّى القرن العشرين، إذ كان للرجل زوجةٌ محترمةٌ في المنزل، هي أمّ أبنائه، ولكنّه كان يلتمس متعته في الخارج حيث يعاشر عشيقةً، يستبدلها كما يروق له.

– **غيتّون:** وفي إسرائيل، قديمًا، ظلّت المرأة، طويلاً، أثمن ما في قطيع الرجل، الذي يسيطر عليها. كان تعدّد الزوجات مباحًا، وكان الملوك يمارسونه على أوسع نطاق. وكانت المرأة عبدةً.

– **أَنتييه:** وهي ما زالت كذلك في بلدانٍ عديدةٍ. ولكن تمّ تحوّلٌ كبيرٌ عندما نالت المرأة حقّ المساواة مع الرجل.

– **غيتّون:** لقد طالب المسيح بالمساواة بين الرجل والمرأة، باسم الخليقة الأصليّة: فكلاهما أبناء الله. ومنذئذٍ لم تعد المرأة مجرّد أمّ أبناءٍ، بل غدت زوجةً، أيضًا. وأمسى الإخلاص المتبادل بين الأزواج هو سنّة الأخلاق، في المساواة.

– **أَنتييه:** وبذلك نشأ مفهوم الخطيئة الذي أثار حفيظة نيتشيه، وفرويد، وجميع «الملحدين».

– **غيتّون:** هنا تتمفصل ثورة الجنس حيث تلتقي كرامة المرأة بحرّيّة الرجل. وما نعت «الخاطئة» سوى ضربٍ من الكرامة السوداء. فهو يرفع من شأن المرأة حتّى في سقطتها. فوضع انحطاطها يسعه، دائمًا، أن ينقلب، بدليل المجدليّة التي أعاد لها الإنجيل أهليّتها، ووضعها في المقام الأوّل بين النساء، بعد العذراء مريم. ومن ثمّ، فإنّ يسوع لم يُدِن الجنس، ولكنّه دعاه إلى الاكتمال، عن طريق التطهّر، والتجسّد

في كائنٍ معيّنٍ.

– **أَنتييه:** وهذا ما يجعل الذكَر يتمرّد.

– **غيتّون:** ينزع الرجل، دائمًا، إلى الفصل بين النشوة الروحيّة والمتعة الجسديّة. وهو يبتغي السموّ من جانبٍ، والمتعة من جانبٍ آخر، وينشد كائنًا من أجل الحبّ الطاهر المهذّب، وآخر من أجل اللذّة.

– **أَنتييه:** وهذا يعود بنا إلى الصراع بين الجسد والروح.

– **غيتّون:** ولذلك أراد البعض تحرير الإنسان من سيطرة الجنس الذي اعتبروه تفاهةً. ولكنّ الغريزة الجنسيّة تأبى أن تُحتقر، وهي لا تفسح لنا من الحرّيّة إلاّ بقدرٍ لا يفوق كثيرًا حرّيّة البهيمة.

– **أَنتييه:** بمناسبة الحديث عن البهيمة، يقال إنّ من يستغرق في المُتع يحاكي بهيمةً. وهذا، برأيي، منتهى الخطأ.

– **غيتّون:** فعلاً. فعند الحيوان الجنس منتظمٌ، وخاضعٌ لإيقاعٍ كونيٍّ. أمّا لدى الجنس البشريّ (ولا سيّما عند الرجل) فهو قابلٌ للإثارة، على نحوٍ شبه مستمرٍّ. إنّه متحرّرٌ من الضرورات الحيويّة، ويبرز في وقته وفي غير وقته. ولكأنّه ينفصل عن الحياة كي يقتحم الروح، ويفسد العلاقات بين الروح والحياة.

– **أَنتييه:** أجل، إنّه لأَمرٌ غريبٌ. فلدى الحيوان حاجةٌ، وعند الإنسان رغبةٌ. والغريزة الحيوانيّة تضبط الحاجة بيُسر: فالحيوانات تتسافد وتتزاوج خاصّةً في الربيع من أجل التوالد. أمّا الإنسان فهو، أبدًا، تحت ضغط الرغبة.

– **غيتّون:** البون شاسعٌ بين عبء الحاجة وزخم الرغبة، بين النداء الفيزيولوجيّ، والدعوة النفسيّة. والرغبة هي من الحدّة بحيث تتجاوز دائمًا الحاجة، وتستبدل الحاجة برغبةٍ هذيانيّةٍ، يصعب كثيرًا التغلّب

عليها، من جرّاء صعوبة مقاومة دوار الصورة والخيال.

– **أَنتيبه:** هذا يفسّر خطر الصور الخلاعيّة التي تروّجها بعض وسائل الإعلام لأغراضٍ تجاريّةٍ. والواقع أنّ موجةً جنسيّةً مبتذلةً تغزو العالم. وأمّا الإِنذارات المؤثّرة التي يطلقها البابا، وبعض قادة الأخلاق، فتشبه نغمة الناي المنفردة في سمفونيّة بيتهوڤن الريفيّة. لا أحد يصغي إليهم، إلاّ لكي يستنكر ويسخر. فهل السلوك الجنسيّ الذي تقترحه المسيحيّة، بغية الحفاظ على الحبّ الحقّ، بات عبئًا يبهظ البشر؟

– **غيتّون:** إنّ الإجابة بالإيجاب تعني الإطاحة بدعوة الإنسان إلى الترقّي بالغريزة، في جوٍّ من الحرّيّة. إنّنا نخوض مرحلةً عابرةً من التطوّر. فهل سيستطيع الإنسان، إثر تخلّيه عن الغريزة الحيوانيّة، أن يسيطر على ذاته في سبيل مصلحةٍ عليا؟ إنّ واجب البابا وجميع السلطات الأخلاقيّة، هو التذكير بالخيارات الداعية إلى التسامي.

– **أَنتيبه:** وهذا لا يروق للجميع.

– **غيتّون:** قد تؤدّي المحظورات إلى تهييج الجنس، وإدخالنا في الدروب المظلمة المفضية إلى ما يدعوه نيتشيه الرذيلة. فهل على الكنيسة من غضاضةٍ إن هي ذكّرت الكائنَ بطبيعته الحقّة، منبع سعادته وسعادة الجنس المتجسّد العاقل؟ أجل إنّ المسيحيّة تدعو نار الجنس إلى الانضباط، كما هي منضبطةٌ لدى البهيمة، بالسليقة، لا بالإرادة والعقل. المسيحيّة توجّه هذه النار صوب كائنٍ آخر حرٍّ وعاقلٍ. وبذلك تتحوّل الشهوة إلى مودّةٍ ومحبّةٍ، وحينئذٍ لا تنتفي الشهوة، بل تصبح نارها غذاءً للمحبّة.

– **أَنتيبه:** إن كان الإنسان حرًّا حيال مصيره، فلا شيءَ، مضمونٌ. وهل أنت متفائلٌ بشأن المستقبل؟

الحبّ الزوجيّ

رأينا أنّ حبّ الهوى والشهوة يتميّز بالرغبة المضطرمة في ما يفتقر إليه. وهذه الرغبة تتلاشى بالامتلاك، وبالارتواء، فما السبيل إلى الحفاظ على السعادة والفرح، إذ لا فرح إلاّ في الحبّ؟ المشكلة تتمثّل في الاستمراريّة، التي يضمنها الفنّ الزوجيّ بامتياز، الذي لا ينفي الشهوة، ولكنّه يضبطها. فمن أحبّ وأُحِبّ، تطلّع إلى المشاركة. والمشاركة تفترض غياب الأنانيّة، وهذا الغياب هو مفتاح الزواج الناجح، الدائم.

ولكن ما السبيل إلى وقاية الحبّ من رتابة العادة، والتصلّب، والجفاف، والكآبة؟ السبيل هو تحقيق خير ما فينا، وما يتوقّعه الآخر منّا، وبإِعطائنا، أقلّه، بقدر ما نأخذ؟ فلئن كان الحبّ الجسديّ امتلاكًا، فالحبّ الزوجيّ بذلٌ، وتبادلٌ. وإلاّ «لما كان الحبّ سوى رفاهٍ زريٍّ يقتسمه اثنان، وحماقةٍ متماديةٍ»، على حدّ قول نيتشيه. فالرجل ينشد، عبثاً، اللذّة والسلام، والمرأة تلتمس سُدًى، الهوى والسعادة، وعندما لا يعثران عليهما في المنزل، يبحثان عنهما خارجه، فلا بدّ من شيءٍ آخر يمكّن من تحمّل الحياة المشتركة.

الزواج الناجح هو سعادة الوجود معًا، في وضوح رؤيةٍ تامٍّ، وفي تعاملٍ حسنٍ. إنّه الصداقة والرقّة، إنّه على حدّ قول «أندريه كونت سپونڤيل»: «التواطؤ، والإخلاص، والمرح، وحميميّة الجسد والنفس، المتعة المتجدّدة، البهيمة المقبولة، والمروّضة، المنتصرة والمقهورة في آنٍ واحدٍ». هو أيضًا «وحدتان متقاربتان تقاربًا وثيقًا، تتبادلان الاهتمام، والاحترام، تسكن إحداهما الأخرى، وتساند إحداهما الأُخرى. فرحٌ

رقيقٌ، بسيطٌ، أنسٌ، سلامٌ، ضياءٌ، نظرة الآخر، صمتٌ، إصغاءٌ، قوّةٌ مستمدّةٌ من الثنائيّة». سرّ هذه السعادة؟ هو، أوّلاً، العزوف عن الانصهار في واحدٍ، وعن خرافة الهوى الملتهم الذي تضجّ به الرغبة الأنانيّة؛ والصدوف عن الحبّ المجنون في سبيل ترسيخ الحبّ العاقل الحقّ. هنا يصبح الحبّ فضيلةً، وحكمةً

ليس الاعتياد هو العدوّ الوحيد للحبّ الزوجيّ. فالحياة الزوجيّة تفقد توازنها، عندما يحدو أحد الطرفين روحُ سيطرةٍ لا عهد له بالتنازل. وحينئذٍ، يحدث انسحاق من لا يملك القدرة على المغادرة، أو الذي يؤثر التضحية بذاته في سبيل الأولاد، أو يتمّ الانفصال، وحينئذٍ يتعيّن على الأقوى أن يعي، قبل فوات الأوان، ويبادر إلى ديناميكيّة بذل الذات. وكما قال «پاڤيزي» (Pavese) في مذكّراته: «ستكون محبوبًا يوم تستطيع إظهار ضعفك، على ألاّ يستغلّه الآخر كي يؤكّد قوّته». فمن تخلّى عن السلطة، والامتلاك، والأنانيّة، يُعطى كلّ ما سوى ذلك، علاوةً، أي الحبّ الحقّ، أو كما يقول «غوتيه»[1]: «الأنوثة الخالدة التي ترقى بك صوب السماوات».

التمتّع بالحبّ من غير القضاء عليه: ذلك هو تحدّي الحبّ الزوجيّ الذي يدوم في ما يتخطّى إرضاء الرغبة، والذي يشفينا من الهوى كي يشرع لنا باب السعادة.

حوارٌ

– **أَنتيبه:** هل هذه المفاهيم قد اندثرت وباتت غابرةً؟ ومع ذلك تجتاح الأجيالَ الجديدةَ رعشةٌ. فرغم تناقص الزواجات المطّرد، سواء في الكنيسة أو في البلديّة، يُلاحظ اهتمامٌ متجدّدٌ بسرّ الزواج. فهل ذلك ناجمٌ عن حنينٍ إلى الماضي، أو عن صحوةٍ؟

– **غيتّون:** عن كليهما. فعندما يشهد الشبّان نجاح حياة أجدادهم،

(١) يوهان ڤون غوته (١٧٤٩ – ١٨٣٢) من أعلام الأدباء الألمان. من أشهر روائعه:

واحتفالهم باليوبيل الذهبيّ في جوٍّ تغمره السعادة، يتساءلون عن الزواج المثاليّ، الذي لا يعود، في نظرهم، مجرّد معاملةٍ رسميّةٍ، أو وهم صداقةٍ، بل يغدو شعورًا بحالة حياةٍ دائمةٍ، مرتكزةٍ على صخرة الوعد، في وحدةٍ جوهريّةٍ.

– **أَنتييه:** فلنتحدَّث، أوّلاً، عن الخطوبة، لا عن الزواج التجريبيّ. هل أنت تدعو إلى خطوبةٍ حقيقيّةٍ، يلتزم فيها الخطيبان بالعفّة، كما كان الأمر مرغوبًا فيه قديمًا؟

– **غيتّون:** نعم.

– **أَنتييه:** في سبيل ممارسة مهنةٍ يبدأ الحدَث بالتدرّب. وحتّى الرهبان والراهبات يخوضون فترة ابتداءٍ قبل إبراز النذور. فعلامَ استثناء الزواج، حيث الالتزام أعمق حميميّةً؟

– **غيتّون:** لا بدّ من التحقّق هل المعرفة التي تسبق الزواج هي معرفةٌ حقّةٌ، نابعةٌ من حبٍّ صادقٍ. الخطوبة ينبغي أن تحاكي ربيعًا، فترة تريّثٍ وتوقّعٍ، وعدًا لا شكّ في تحقّقه. إنّها مرحلة الحبّ الأولى، انفتاحٌ على معرفةٍ، دهشةٌ، وسرٌّ. إنّه لحسنٌ أن لا يبدأ حبّ الرجل والمرأة، صدفةً، وعشوائيّةً، في فوضى المشاعر، بل أن تكون انطلاقته نيّرةً ومحفوفةً بالسرّ، فترة تأهّبٍ طالما انتُظرت، رسميّةً، طقسيّةً، يتعانق فيها الفرح والرصانة، التوقّع والعطاء.

– **أَنتييه:** الخطوبة تتيح التلاقي والتحابّ. ولكن غالبًا ما يتمّ الزواج بمنأًى عن تعارفٍ حقٍّ.

– **غيتّون:** لطالما تساءلتُ أيٌّ من هذين الفعلَيْن: التعارف أم الحبّ هو الأصعب في العلاقة بين كائنَيْن، ولأيٍّ منهما الأسبقيّة. وانتهيت إلى اليقين بأنّ السبيل إلى الحبّ، هو التعارف، أوّلاً. وفي ذلك

حجّةٌ لصالح الخطوبة.

– **أَنتييه:** إثر إتمام مراسم الزواج، يطير العروسان نحو «قمر العَسل»[٢]. فمن أين جاءت تسميته القمر؟

– **غيتّون:** المفهوم الشائع هو أنّ الامتلاء، أو كمال الحبّ، لا يدوم أطول من مدار شهرٍ قمريٍّ.

– **أَنتييه:** وهل هو دائمًا، للزوجة، شهر عسل؟

– **غيتّون:** هنا يبرز الفرق بين الرجل والمرأة. فالفريق الذكريّ يتّسم بمزيدٍ من الوحشيّة. أمّا الفريق الآخر فهو أكثر تأثّرًا، وأقلّ تيقّظًا للّذة. والتوافق لا يتحقّق بالمفاجأة والعنف، بل لا بدّ من الوقت، والاحترام، وتنازل القوّة لصالح الرقّة. ولا يمكن أن يتمّ ذلك إلاّ برهافةٍ تتضافر فيها السيطرة على الذات، والشعور الحميم بالآخر. لقد كنّا نعيش في عالمٍ يحكُمه الذكر، ما عدا استثناءاتٍ ضئيلةً. وقد آن الزمن الذي تستعيد فيه المرأة إنسانيّتها. ولا ريب أنّ لهذا التقدّم أثرًا على تجربة الحبّ، الذي غدا أوفر إنسانيّةً، مليئًا بالاحترام والصمت، حيث وحدتان تشتركان، وتلتزم كلٌّ منهما حدودها، وتكرّم إحداهما الأُخرى.

– **أَنتييه:** لا ريب أنّ التوافق الجسديّ بين الزوجين ضروريٌّ، ولكنّه غير كافٍ لترسيخ حبٍّ دائمٍ.

– **غيتّون:** لا، ليس كافيًا، فللروح وللفكر الأولويّة على الجسد. وكلاهما واحدٌ، وهنا تكمن روعة سرّ حبٍّ قدّسه القسَم، وتقدّسه، لدى المؤمنين، الصلاة.

– **أَنتييه:** ثمّ هناك سعادة اثنين يحيان معًا.

– **غيتّون:** هذه الشراكة التامّة التي تطبع فترة الزواج الأولى،

تزخر، كلّ يومٍ، بالروائع. فالمرأة، بحكمها السليم، ونضارتها، تُشيع في نفس الرجل الطمأنينة. والرجل يُطمئن المرأة بقوّته. ثمّة تكاملٌ في الطباع، والمواهب، والقدرات. الطباع الحائرة، القلقة، التي تعبث بها الوساوس، تلقى أخيرًا مرسًى آمنًا. والوجدان الأخلاقيّ، الذي كان فينا كمينًا، يتجلّى من خلال الكائن المحبوب، فيغدو أكثر تسامحًا، وترتدي السعادة معنًى يوميًّا.

– **أَنتيبه:** وعندما يظهر الولد؟

– **غيتّون:** لا يسعه إلاّ أن يُحدث، في الحبّ، تغييراتٍ عميقةً، فإنّه، بحضوره، يخلق الحبّ من جديدٍ، ويبرّره، ويجسّده. وهكذا يتجلّى الحبّ مجدّدًا، من خلال الولد، مرتديًا هيئة كائنٍ منبثقٍ من الحبّ.

– **أَنتيبه:** ويجد كلٌّ من الزوجين توازنه عبر اقتسام المواهب، والمهامّ، والمسؤوليّات، في إطار الأسرة، هذه اللفظة القديمة التي بتنا نحنّ إليها.

– **غيتّون:** أسرتي هي «منزلي»، ولكأنّها تسكن فيّ، في حين أنّها قوقعتي، التي تكفل لي سرّيّتي. إنّني أؤيّد الذين يضربون جذورًا، ولا يطيب لهم العيش إلاّ في جوٍّ حميمٍ مألوفٍ. إنّ ربّة المنزل تضفي على ما تجمعه لونًا يوحي بالودّ والحماية. إنّها تحوّل الأشياء كما تحوّل الفصول الطبيعة. تجدّد الذي لا يتغيّر، وتجعله يبدو وكأنّه آخر.

– **أَنتيبه:** لا بدّ من تصادم الطباع

– **غيتّون:** في هذه المرحلة، سرعان ما يُلاحظ كلّ ما من شأنه إثارة الخلاف، فتلجمه مبادرات الحبّ. والمرأة هنا، في البيت، صورةٌ لما هو دائمٌ، ثابتٌ في الزمن الذي يمضي، ويعبر.

– **أَنتيبه:** أجل، إنّه يمضي. ولكن، هل الحبّ دائمٌ؟ وهل القَسَم

هو، دائمًا، أبديٌّ في عالمٍ خاضعٍ لتحوّلاتٍ جمّةٍ؟ إنّ الأرقام، هنا، مقلقةٌ. ففي فرنسا زواجٌ من أصلٍ ثلاثةٍ ينتهي بالطلاق. وخمسون بالمئة من الشبّان والشابّات الذين تقلّ أعمارهم عن الثلاثين، والذين يعيشون معًا، غير متزوّجين. قديمًا كان الطلاق نادرًا. أمّا اليوم، فالطلاق يتمّ باسم الحرّيّة، وباسم رفض الرياء. فهل تلك هي ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ غير قابلةٍ للتحوّل؟

– **غيتّون:** عندما يحيا شخصان في جماعةٍ لا تتيح أيّ انفرادٍ بالذات، يتعذّر الخداع والتزوير، ويحين وقتٌ لا يعود ممكنًا فيه جهل الواحد للآخر. فكلٌّ منهما يُبرز للعيان كلّ العادات المستهجنة، والميول الشاذّة، وكلّ ما كان، في البدء، خفيًّا، أي ليس فقط العيوب الصغيرة، والترّهات، والأكاذيب المموّهة، وبالإجمال الغبار الذي يكسو كلّ فضيلةٍ، وكلّ وجودٍ، بل أيضًا، أحيانًا، عيوب طباعٍ خطيرةً.

– **أَنتيبه:** ومن شأن ذلك دفع الزوجين إلى التسامح، والتعاطف، في جوٍّ من المرح، وإلى السعي الجادّ من أجل التحرّر من النقائص.

– **غيتّون:** ينبغي فهم دوافع الأزمة. فنار الحبّ قد همدت، والتماسك بين الزوجين تخلخل. وحينئذٍ يُشرع بفصم الشراكة، وديًّا، مع الحفاظ على مظاهر الحبّ القديم، وارتضاء حياتَيْن متجاورتَيْن، حتّى الموت. يبقى الزوجان معًا، ولكنّ الواقع ماثلٌ: الحبّ تصدّع، وتجري محاولةٌ لتمويه الفشل. وحينئذٍ قد يبقيان معًا، بعد أنّ حوّلا الحبّ إلى شراكةٍ، والوحدة إلى تجاورٍ، والمنزل إلى مجموعة مصالح دنيئةٍ، توحّده العادة. وقد يحدث تقاسم أنانيّاتٍ وتضحياتٍ، فيفرط الرجل في النشاط، وتشعر المرأة بيقظةٍ شهوانيّةٍ جديدةٍ، لم تعهدها من قبل، ولكأنّها تبتغي استنفاد كأسٍ ستُنتزع منها قريبًا. وتظهر مودّةٌ مباغتةٌ لشخصٍ ثالثٍ من روّاد المنزل، وكأنّها ضربٌ من الأمومة

المبهمة. و تخطر فكرةٌ ماكرةٌ تزيّن بدءًا جديدًا مع شريكٍ آخر. وتطرح التساؤلات: علامَ الارتباط إلى الأبد؟ ألا يسوغ الاختيار من جديدٍ، والشروع بحياةٍ جديدةٍ؟ وهل من الواجب العزوف عن السعادة؟

– **أَنتييه:** ويُختار الحلّ الأسهل، ويتمّ الطلاق إزراءً بالأولاد، وبالوعود، وبالمصالح المادّيّة. والكنيسة تدين الطلاق، فما هو رأيك؟

– **غيتّون:** إنّها مشكلةٌ أليمةٌ. يجب التمييز بين المبدأ الذي تعلنه الشريعة المسيحيّة: «لا تفرّق ما جمعه الله»، وتطبيق الشريعة وفقًا للأشخاص والظروف. إنّ موقف الكنيسة لم يتغيّر، فهي تدين الطلاق. ولكنّها تتفهّم وضع الكاثوليكيّين المطلّقين، الذين تزوّجوا ثانيةً، وتجهد في مساعدتهم في الحياة.

– **أَنتييه:** في أثناء السينودس السادس، أعلن البابا يوحنّا بولس الثاني: «إنّني أحرّض الرعاة وجماعات المؤمنين على مساعدة المطلّقين الذي تزوّجوا ثانيةً، لكيلا ينتابهم الشعور بأنّهم منفصلون عن الكنيسة. فإنّ بوسعهم، بل من واجبهم، بصفتهم معمّدين، أن يشاركوا في حياة الكنيسة». ولكن أليس هذا «التعاطف» غير متوافقٍ مع المبدأ؟

– **غيتّون:** أَجل. فعندما تُسنّ شريعةٌ، يتعيّن تطبيقها بحزمٍ، وإلاّ لما صمد شيءٌ. ولكنّ الأفراد أحرارٌ. وعندما يرى الكاهن إنسانًا يتألّم، لا يطرح أسئلةً، بل يساعد، إذ إنّ واجبه الأوّل ليس الإدانة، بل المحبّة.

– **أَنتييه:** ومع ذلك، أنت لا تقرّ الطلاق.

– **غيتّون:** أنا لا أستطيع الحكم في حالاتٍ خاصّةٍ، قد تبرّر الانفصال، بل الزواج ثانيةً. أنت تطلب منّي تحديد الزواج المثاليّ. وإنّي لأرى أن الانحدار بالحبّ إلى اختبارٍ عشوائيٍّ، فاشلٍ، حيث كلّ شريكٍ متحفّظٌ، غير قادرٍ على بذل ذاته، ليس تجربةً صادقةً

حقيقيّةً. ولذلك تبقى الكنيسة حازمةً في مبادئها.

– **أنتييه:** إبّان لقاء البابا بالشباب في «منتزه الأمراء» (Parc des Princes) عام ١٩٨٠، أُخذ عليه موقف الكنيسة الصارم من قضايا الجنس. وقد أجاب قداسته: «إنّ الكنيسة تحدّد المقتضيات المرتبطة بالحبّ الزوجيّ الحقّ، أي المسؤول، ومتطلّبات كرامة الإنسان، والنظام الاجتماعيّ الأساسيّ. إنّ الإنسان يحقّق ذاته فقط بقدر ما يلتزم بمقتضياتٍ. في حين أنّ الإباحيّة، ومجتمع الاستهلاك، لم يوفّرا، يومًا، للبشر السعادة». وفي الواقع، ما الطلاق سوى تأكيد فشل محاولاتٍ لحلّ أزمةٍ، أو بالأحرى، سلسلة أزماتٍ.

– **غيتّون:** أزمة منتصف العمر، الخطّ الفاصل بين الأيّام، عندما يذرُّ «شيطان الظُهر» قرونه. في تلك المرحلة يرفض المرء الرياء، لأنّه فشل في التغلّب على الرداءة...

– **أنتييه:** فلنعد إلى جذور الأزمة. ما سبب هذا السأم، وأزمة الحبّ التي تدفع إلى التماس السعادة التي اضمحلّت، في مكانٍ آخر؟

– **غيتّون:** السبب هو إفساح مجالٍ للسأم كي يتفاقم ويؤثّر، من جرّاء إغفال أنّ الحبّ سريع العطب، وتجاهل سنّة مراحله، وإيقاع نموّه. فلكي يستطيع الزواج، رغم فعل الاهتراء الذي يحدثه الزمن، أن ينمّي الحبّ ويسمو به، لا بدّ من جمٍّ من رهافة التعامل، وتيقّظ الفكر، والاهتمام. الخطر المنذر هو أن تتحوّل الوحدة التي قامت أساسًا على الجاذب، واستمرَّت بفعل العادة والواجبات، إلى شراكة عشّاقٍ سابقين.

– **أنتييه:** لقد عبّر «سانت بوف»[1] (Sainte- Beuve) عن أزمة

الزواج هذه بقوله: «بعض النواحي تتصلّب، وبعضها تتعفّن، ولكن لا يتحقّق النضج». لماذا؟

– **غيتّون:** النضج هو أن ندع الزمن يحقّق فينا السلام، وهو العثور على شباب الفكر، عندما يفقد الجسد شبابه. في ميدان الحبّ، النضج هو تحقّقٌ أكثر منه تحوّلٌ. والصعوبة تكمن في تحوّل الحبّ إلى صداقةٍ، على ألاّ يكفّ عن كونه حبًّا. ذلك هو، فضلاً عن الرغبة الصادقة في الكمال، سرّ الزواج الدائم. إنّ مشكلة كلّ حبٍّ هي القدرة على إعادة بعث الدهشة الأولى، في كلّ حينٍ. الحالة المثلى هي إعادة البدء باطّرادٍ، بمعزلٍ عن التكرار، والتمتّع، في آخر مراحل العمر، بحبٍّ لا يقلّ اضطرامًا عن ذاك الذي طبع أوّل العمر.

– **أَنتييه:** الاضطرام هو الهوى، وهو بطبيعته قصير الأَمد.

– **غيتّون:** لا بدّ من التمييز بين الهوى، والشعور الذي يمكن تسميته رقّةً. الحبّ يبدأ بمرحلة تأثّرٍ يزدهر فيغدو شعورًا يقطننا، ولا نعيه دائمًا، ولكنّه يستيقظ، في كلّ مناسبةٍ، ويرتدي مظهر تأثّرٍ رقيقٍ.

– **أَنتييه:** إذن مرحلة الحبّ الثانية هي التي ترسّخه إلى الأبد.

– **غيتّون:** أجل. الرقّة تقطن في ملتقى النفس بالجسد. في البدء، كلٌّ من الزوجين يرى في الآخر المثال الأسمى. ولا يسع الحبّ أن يدوم، إلاّ إذا كان حبًّا لكائنٍ متجسّدٍ، بكلّيّته، بنقائصه ومواطن رداءته.

– **أَنتييه:** هل على كلٍّ منهما أن يحبّ عيوب الآخر؟

– **غيتّون:** ينبغي حبّ الآخر بالقدر الذي يمكّن من اعتبار عيوبه نتيجة تجسّده، ويسوغ التغاضي عنها. في البدء تكون الأفراح، والملذّات من مستلزمات الحبّ. وبعدئذٍ تمسي الإخفاقات، والأمراض، وضروب المرارة، عناصر أكثر فاعليّةً في توطيد الوحدة. حينئذٍ تُنسَج

أواصر جديدةٌ، ويزدهر الحبّ ثانيةً. لقد انصرم عهد التفجّرات والعواصف المدمّرة، ونما الحبّ في الصمت، وفي تراكم مبادرات الرّقة، والسلام الذي يستوعب كلّ شيءٍ، وظواهر تجدّد الحبّ، عبر مراحل الحياة.

– **أَنتييه:** هل ثمّة مدرسةٌ للحبّ السعيد، الدائم؟

– غيتّون: أجل، بما أنّ هناك سُنّةً لنموّ الحبّ، وسط الأزمات التي تمّ التغلّب عليها، وتصعيدًا كمينًا يجعل من الحبّ البشريّ عملاً فنّيًّا، يُكرَّس له الوقت، والقلب والظروف. ينبغي محاولة فهم الآليّات الحميمة. فمنتصف العمر هو زمن عادات القلب. المرأة لا تتطوّر كما يتطوّر الرجل. إنّها تكتسب شيئًا من الذكورة، في حين أنّ الرجل، يكتسب رقّةً، وحنانًا.

– **أَنتييه:** ولكنّك لا تمنع المرأة من التألّم بسبب الشيخوخة، وفقدان الجمال الذي كان، في العشرين من عمرها، عامل الحبّ الأقوى.

– **غيتّون:** الجمال غير مرتبطٍ بتألّق الشباب في محيًّا أو في جسدٍ شابّين. والمرأة تتحوّل من حالة زهرةٍ ربيعيّةٍ إلى حالة تمثالٍ متعدّد الألوان، والفنّ يسهم اليوم، مثلما أسهم، دائمًا، في إبراز جمالها. والجمال ليس جسديًّا فحسب. إنّه عملٌ غير مجزّإٍ يضطلع به الجسد والنفس معًا، في مسيرة الحياة، ويتكثّف في المستوَيَيْن الأعليَيْن اللّذين لا يتغيّران: النظرة والبسمة. ومرحلة منتصف العمر هي التي لا ينبع فيها سنى المحيّا، ووميضه، وإشعاعه من الطبيعة، بل من التجربة الحميمة، ومن المِحَن التي جوبهت، ومن الحبّ الصادق، ومن الأنس بالحبّ، ومن الحنان. وهذا الجمال هو جمالٌ لا يني ينمو، بفضل ارتباطه بالطيبة والعطف. ومعه تبدأ مرحلة الحبّ السامي.

– **أَنتيبه:** إذن، عندما تهمد نيران الهوى، ليس من المحتّم أن يفقد الزواج صلابته.

– **غيتّون:** بل ينبغي تذوّق عذوبة أن يكون المرء محبوبًا. واللفظة الأفصح تعبيرًا عن هذا الوضع هو الحنان، أي استراحة الهوى، ذاك الشعور المبهم الذي يجعل الإنسان يبتسم سعادةً، شعورٌ يحلّ منزلةً متوسّطةً بين الهوى واللامبالاة. الحنان يوميٌّ، أليفٌ، متبدّلٌ، خلاّقٌ، كتومٌ، يزخر بمبادراتٍ رقيقةٍ، هي خيرٌ من اهتمامٍ عامٍّ مُبهمٍ. الحنان هو إمكانيّة الصمت معًا، واليد في اليد. لقد لقّنتني المرأة الحنان، الذي، بمعزلٍ عنه، لا تعرف المعرفة شيئًا.

– **أَنتيبه:** حياتك، يا جان غيتّون، هي مثالٌ رائعٌ للإخلاص الزوجيّ.

– **غيتّون:** وكذلك هي حياتك، التي لم تنتهِ بعد. ولذلك أهدينا هذا الكتاب لزوجتَيْنا.

– **أَنتيبه:** في النتيجة، ما هو تعريفك للحبّ الزوجيّ؟

– **غيتّون:** الحبّ صدفةٌ آمن بها القلب. المتعة الجسديّة ليست سوى المرحلة الأولى من الحبّ، والمَقْفَز الذي ينبغي الانطلاق منه صوب رقّة سعادة الحبّ. الحبّ الزوجيّ هو بذل الذات الكامل، الذي لا رجوع عنه، في السرّاء وفي الضرّاء.

– **أَنتيبه:** قلت «صدفة»؟ الزواج، إذن، رهانٌ، يانصيبٌ؟

– **غيتّون:** في الواقع، أنا لا أومن بالصدفة. فما ندعوه صدفةً، إن هو إلاّ عجزنا عن فهم ضربٍ من نظامٍ أسمى. العالم يبدو نسيج صُدَفٍ، أي لقاءاتٍ هي، في ظاهرها، عَرَضيّةٌ. غير أنّ لهذه اللقاءات غايةً، ومغزًى، وهي تتساوق نحو هدفٍ. وإذن، فما الصدفة سوى وهمٍ من أوهام جهلنا. ولكن من المحقّق أنّ كلّ التزامٍ يفرض

الصداقة

«أُحبّ الصداقة، ذاك الحبّ الذي لا ينضب». (هيرفيه هامون)

هكذا ننتقل من الهوى الجسديّ إلى المودّة، من الجنس إلى الصداقة، عبورًا بالحبّ الزوجيّ، والوالديّ، والبنويّ، ونتحوّل، شيئًا فشيئًا، نحو صيغةٍ من الحبّ البشريّ، الذي يتّسم بمزيدٍ من الروحانيّة، وبقدرٍ أدنى من الأنانيّة، وبمدًى أفسح، تحتلّ فيه الصداقة حيّزًا مميّزًا.

حسب تحديد معجم «اللاروس الكبير» الصداقة هي مودّةٌ منزّهةٌ من كلّ جاذبٍ جنسيٍّ، تجمع كائنَيْن. عناصر دوام الصداقة هي السلام، والسجوّ، والاحترام المتبادل. والصداقة مساواةٌ في الحقوق والواجبات، ووفاءٌ. وهي تفترض التجرّد، وإلاّ لما كانت سوى تواطؤ مصالح.

قال أرسطو: «الحبّ فضيلة الأصدقاء» ويعقّب إيبيقور: «الصداقة هي، في ذاتها، روعةٌ». إنّها، للكائن البشريّ، الاجتماعيّ بطبيعته، شرطٌ للسعادة. فهي تنطوي على امتيازات الحبّ، بمعزلٍ عن مساوئ الهوى. إنّها ملاذٌ يقي من التعاسة. يلاحظ «كونت سپونڤيل»: « إنّها خيرٌ من العدل، وهي تتضمّنه. إنّها، في الآن عينه، أفصح تعبيرٍ عنه، ولكنّها تتخطّاه. ليست، افتقارًا، ولا انصهارًا، بل هي جماعةٌ، ومشاركةٌ، وإخلاصٌ».

إنّ تفوّق الصداقة على الحبّ الجسديّ الصرف، يكمن في أنّ هذا الحبّ هو، غالبًا، مفروضٌ علينا (مثل «ضربة صاعقةٍ»)، في حين أنّ الأصدقاء يختار بعضهم بعضًا. وبالتالي، تُعدّ الصداقة فضيلةً، على نقيض الحبّ الجسديّ. ولكنّها فضيلةٌ صغيرةٌ، ومحدودةٌ. وقد لا تكون منزّهةً من الأنانيّة والغيرة. وغالبًا ما لا يكون للمرء سوى صديقٍ واحدٍ، أو

(١) كاتبٌ ومفكرٌ فرنسيٌّ (١٥٣٣– ١٥٩٢). دوّن خلاصة تأمّلاته في كتابَيْن:

حفنةٍ من الأصدقاء القليلين.

ما هي حدود الصداقة؟ كان «مونتينيي»(١) (Montaigne) يقول: «ينبغي أن يُعير الإنسان ذاته للغير، وألاّ يهب ذاته إلاّ لنفسه». فنحن، من خلال أصدقائنا، نحبّ ذواتنا، ونحبّهم لأنّهم يحبّوننا.

وتظلّ الصداقة فضيلةً مُبهمةً. وقد عبّر «مونتينيي» عن استعصاء الفضيلة على التفسير بقوله، في معرض ردّه على استيضاح سبب صداقته مع «لا بويسي» (La Boétie) «لمَ كنتُ أحبّه؟ لأنّه هو، ولأنّي أنا».

حوارٌ

– **أَنتيبه:** إنّني على شيءٍ من الحذر حيال الصداقة. فهي قد تكون سطحيّةً تحدوها المصلحة. وهي، حينئذٍ، ليست صداقةً حقيقيّةً، بل بالحريّ، هي ضربٌ من العلاقات الاجتماعيّة، وقد تكون للطامعين مطيّةً للترقّي، وللفقراء سبيلاً إلى الأَمان. وقد تكون صادقةً، ولكنّها، حينئذٍ، غالبًا ما تنزع إلى الاستئثار. وتخطر بالبال الكلمة المأثورة القاسية: «ربِّ، أنقذني من أصدقائي، أمّا أعدائي فأنا كفيلٌ بتدبّر أَمرهم».

– **غيتّون:** أولئك المعنيّون هم أصدقاء مزيّفون.

– **أَنتيبه:** ما هو، إذن، تعريفك للصداقة؟

– **غيتّون:** كانت أمّي تقول، بلغتها الزاهية: «الصداقة هي انسكاب القلوب أحدهما في الآخر، فتتداخل، وتنتفي عنها مظاهر الفُرقة، وتتّحد في مركز المحبّة. ويا لعذوبة التحقّق من المشاعر، وتسليط الضوء على المصاعب الشخصيّة بفضل خبرات الآخرين الصادقة؛ ويا لمتعة التفاهم، في العمق، بغير وسائل الكلام، وتطوير الذات بفضل أفكارٍ من لهبٍ ونورٍ!».

– **أَنتييه:** هل كان لها الكثير من الأصدقاء؟

– **غيتّون:** بل قليلٌ جدًّا. وأقرب صديقةٍ لها كانت شقيقتها الوحيدة. أُمّي وُلدت من أجل الصداقة، ولكنّ أهدافها كانت من السموّ والطهر، بحيثُ لم تبلغها، إلاّ على نحوٍ خاطفٍ. وكانت تقول، أيضًا: «لا تكتمل الصداقة إلاّ إذا كانت، أكثر من السعي إلى التشابه، ومن الثقة المتبادلة، جهدًا مشتركًا ومتبادلاً في سبيل الترقّي، والتطهّر، وتخطّي الذات، وحينئذٍ تُشيع الصداقة شعورًا ليس فقط بعذوبتها، بل أيضًا بقوّتها التي لا غنى عنها من أجل بلوغها اكتمالها. في هذا العلوّ، وفي هذا العمق، لا تخشى الصداقة أيّ معكّرٍ: فلا البعد ولا الزمن يقويان على النيل منها».

– **أَنتييه:** في الواقع، حال الصداقة كحال الحبّ: فوحدها الصداقة المجرّدة، المنزّهة من الأغراض هي فاضلةٌ، ودائمةٌ.

– **غيتّون:** أجل، إنّ حبّ الذات والأنانيّة ينهضان حاجزًا بيننا وبين أصدقائنا. ولا بدّ من أن يفقد المرء قليلاً من ذاته، كي يجدها في آخر. وحينئذٍ فقط يجد في الصديق كنزًا.

– **أَنتييه:** صفة الصديق الأولى، إلى جانب الوفاء، هي الكتمان والكياسة. أي الحفاظ على مسافةٍ ما، وعدم فرض الذات، والتحاشي عن إكثار اللقاءات، تفاديًا للسأم. الأصدقاء كالأُسرة: كنزٌ صعب المنال أحيانًا، إذ إنّ مجرّد ادّعاء امتلاكه، والاستئثار به يؤدّي إلى فقدانه.

– **غيتّون:** في الواقع، لا بدّ من الغياب لترسيخ التعارف، والتحابّ الحقّ، كما يوضّح بيت الشعر الجميل هذا: «إنّ ما يعبُر، ثمّ يعود، تتضاعف عذوبة مشاهدته ثانيةً».

– **أَنتييه:** وقول «فرنسيس جيمس»: «وَقْعُ خطوات الصديق أَعذب

من كلماتٍ رقيقةٍ». ولكن ما العمل عندما تهمد الصداقة، ويضعف الجاذب، ويعتاد القلب ويسأم، لدى أحد الطرفين؟

– **غيتّون:** ينبغي أن يرعى المرء صداقاته، ويرويها كما يُروى النبات، حؤولاً دون جفافها وذبولها. كانت أُمّي تحسن مشاركة وحدة القلب. فحتّى عندما كانت تتضاءل مظاهر المودّة، كانت تظلّ مخلصةً للصداقة التي منحتها. وكانت ترتقي في معارج العطف الذي لا عهد له بحدودٍ.

– **أَنتييه:** ولكن، في هذه الحالة، تتحوّل الصداقة إلى عطفٍ.

– **غيتّون:** كان لدى أمّي شعورٌ راسخٌ بما هو أبديٌّ في بذل الذات.

– **أَنتييه:** أبديٌّ؟ ولكن، ما تنتهي إليه الصداقة، بعد الموت؟

– **غيتّون:** انقطاع الصداقة الناجم عن الموت يجعل كلّ نقصٍ فيها أشدّ إيلامًا. فأمام الفراغ والغياب، يلوم المرء نفسه عن أدنى تقصيرٍ بدر منه حيال واجبات الصداقة. فقد يكون قد عاش على كثبٍ من آخر، ولكنّه لم ينفذ إلى دخيلة نفسه، ولم يعرفه حقًّا، وكادت أفكارهما تتلامس، فحسب. وقد تكون مشاعرهما قد ارتدت أقنعة اللامبالاة والمَلَل، وقد تكون الحياة الجائرة، بكلّ امتلائها وبكلّ فراغها، قد نثرت غبار تفاهتها.

– **أَنتييه:** على أيّة حالٍ، يخلّف الموت ذكرى.

– **غيتّون:** صحيحٌ. فالذي بقي حيًّا يستطيع أن يتغذّى بروح الفقيد، ويتقوّى به، ولكأنّه خبزٌ روحيٌّ لا ينفد أبدًا. قد يحرمنا الأحياء صداقتهم، أمّا الأموات فيُبقونها لنا صافيةً، لا تنضب، عشاءً أخيرًا داخليًّا أبديًّا، إن نحن شئنا. وحينئذٍ تتجرّد الأرواح من حجاب المحسوس، وتستعيد الصداقة نقاءَها، وتمسي منبع فضيلةٍ.

حبّ المحبّة

«قيّم ثروتك بمقدار ما تعطي». (جورج دوهاميل)

المحبّة هي النزعة إلى فعل الخير، بتجرّدٍ وبمنأًى عن المصلحة الذاتيّة. إنّها الفضيلة اللاهوتيّة الثالثة (بعد الإيمان والرجاء). إنّها التجديد الأكبر الذي جاءت بها المسيحيّة.

«ستحبّ قريبك، مثل حبّك لنفسك، حبًّا بالله». «أحبّوا بعضكم بعضًا كما أحببتكم» (يوحنّا ١٥: ١٢). المحبّة المسيحيّة تتخطّى الطيبة الفطريّة، شأوًا بعيدًا. فالمسيح لا يدعونا فقط إلى حبّ أقربائنا، بل، أيضًا، إلى حبّ الغرباء، لا بل إلى حبّ أعدائنا، وبالطبع، إلى حبّ الفقراء. وقد أبرز القدّيس بولس عظمة شأن المحبّة في رسالته الأولى إلى الكورنثيّين الشهيرة: «لو كنتُ أنطقُ بألسنة الناس والملائكة، ولم تكن فيّ المحبّة، فإنّما أنا نُحاسٌ يَطنّ، أو صنجٌ يرنّ. ولو كانت لي النُبوّة، وكنت أعلم جميع الأسرار والعِلمَ كلّهُ، ولو كان لي الإيمانُ كلّهُ حتّى لأَنقُلُ الجبال، ولم تكن فيّ المحبّة، فلستُ بشيءٍ. ولو بذلت جميع أموالي (إحسانًا)، ولو أسْلمتُ جسدي لأُحْرقَ، ولم تكُن فيّ المحبّةُ، فلا أنتفِعُ شيئًا. المحبّةُ تتأنّى وترفُق؛ المحبّةُ لا تحْسُد؛ المحبّةُ لا تتباهى، ولا تنتفِخ؛ لا تأتي قباحةً، ولا تطْلُبُ ما لنفسها؛ لا تحتدُّ، ولا تظنُّ السُّوء؛ لا تفرحُ بالظُلم بل تفرحُ بالحقّ؛ تتغاضى عن كُلّ شيءٍ، وتُصدّق كلّ شيءٍ، وترجو كُلّ شيءٍ، وتصبرُ على كلِّ شيءٍ». (١٣: ١- ٧)

ويؤكّد بولس فيقول: «المحبّة هي تمام الناموس» (روما ١٣: ١٠)، « لأنّ الناموس كلّه يُتمّم في هذه الوصيّة الواحدة: «أحبب قريبك كنفسك». (غلاطية ٥: ١٤)

وبناءً على هذا النصّ الأساسيّ، عرّف «تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة» المحبّة، بأنّها «ثمرة الروح، وملء الشريعة»: المحبّة تُلهم وتحدو كلّ الفضائل، التي تظلّ، بمعزلٍ عنها، حرفًا ميتًا. إنّها رابط الفضائل وضابطها؛ تطهّر قدرتنا على الحبّ، بتحطيم كلّ ما قد ينطوي عليه الحبّ الجسديّ من أنانيّةٍ. وترقى بالحبّ البشريّ إلى كمال الحبّ الإلهيّ الفائق الطبيعة. إنّ ممارسة الحياة الأخلاقيّة التي تحدوها المحبّة تسبغ على المسيحيّ حرّيّة أبناء الله الروحيّة، فيمثل أَمام الله، وكأنّه ابنٌ له».

ولا بدّ من التنويه بأنّ كلمة محبّة قد لوّثها استخدام الأغنياء لها، يوم لم يكن للحماية الاجتماعيّة وجودٌ. كان «عمل المحبّة» يعني التصدُّق والإحسان، وهذا التعبير يرتدي، اليوم، صبغة التنازل المتغطرس. فقد كان الغنيّ يتخلّى عن قسطٍ من فائضه لمن لا يملكون شيئًا، بمنأًى عن أيّة مشاركةٍ، أو بذلٍ للذات.

وبهذا المعنى كان «فعل المحبّة، للمحبّة، كما هي المضاجعة للحبّ» على حدّ قول «كونت سپونڤيل»، الذي يحدّد المحبّة المثاليّة بأنّها: «تعاطفٌ متحرّرٌ من الأَلم، وصداقةٌ متحرّرةٌ من الأنا». الصداقة، والحبّ الوالديّ، يندرجان في منظومة الفضائل، ولكنّهما غير منزّهَيْن من حبّ الذات، من خلال الأصدقاء والبنين. والمحبّة هي التي توعز إلى هذه الأَنماط من الحبّ غير المكتمل أن تتحرّر من سجن الأنا. فحبّ الأعداء، أو الذين لا يمتّون إلينا بصلةٍ، الذين لا يقدّمون لنا أيّ خيرٍ، هو الفضيلة الأرفع سموًّا. ولكن هل تتيسّر هذه المحبّة إلاّ لفئةٍ ضئيلةٍ من القدّيسين؟ من المرجّح أنّها غير متيسّرةٍ، في الوضع البدائيّ الذي ترسُف فيه البشريّة. إنّها محور حياةٍ، مَثَلٌ أَعلى، مفتاحٌ يضمن للبشر العيش في وئامٍ، ويكفل لهم البقاء. وبالتالي، على البشر، في الوقت الراهن، أن يقنعوا بترجّي «هذا الحبّ الذي يفتقر إليه الحبّ»، وبالتماس عبير ذاك الحبّ الذي، في كلّ وقتٍ، اجتذب الصوفيّين،

(١) ڤلاديمير جانكيليڤتش (١٩٠٣– ١٩٨٥) فيلسوفٌ فرنسيٌّ، عالج قضايا الحياة

والذي لا يجد امتلاءه إلاّ في الله.

في مؤلّفه: «بحثٌ في الفضائل»، يؤكّد «جانكيليفتش»[١] كلّ ما سلف، أي أنّ المحبّة هي مجمّع كلّ الفضائل. إنّها تعيد للوهن أهليّته. وهي تنعم بشعبيّةٍ وشموليّةٍ واسعتَيْن، بفضل بساطتها الإلهيّة: «الحبّ يكفي» وذلك، بلا تلكّؤٍ، ولا مقدّماتٍ، ولا تحفّظٍ. «إنّها النبع العطوف لكلّ إحسانٍ. وعلى غرار الرأفة، هي قلقٌ، وشعورٌ بدَيْنٍ لا محدودٍ. ليست وعيًا مبهمًا لظلمٍ يمكن، في كلّ حينٍ، إصلاحه، بل هي تعاطفٌ حيال وضعٍ واقعيٍّ ملموسٍ، إنسانيٍّ، لا يمكن التعويض عمّا ألحقه من حيفٍ، ويتعذّر على كلّ حبّنا أن يخفّف وطأته».

تختلف المحبّة عن السخاء بأنّها «تمحو كلّ ما في الإحسان من تعالٍ. والفائق، في المحبّة، يكمن في كونها، أيضًا، عطاء الفقير. فمن لا يملك شيئًا، ومع ذلك يعطي، يفجّر سماء الحبّ المعطاء «الذهبيّة»».

وأخيرًا، المحبّة تصالح أنماط الحبّ الثلاثة وتكملها: فهي تحرّر الحبّ الجسديّ والصداقة من كلّ آثار الأنانيّة. هي «المضيّ إلى أبعد من كلّ امتلاكٍ، حتّى تلك المنطقة من الروح، حيث لا ينقص شيءٌ». إنّها الحبّ «الذي يدعونا بقدر ما نحبّه»، والذي انتزع، يومًا، من قلب راهبةٍ مبتدئةٍ في كرمل «ليزيو» في السادسة عشرة من عمرها، هي تيريز مارتان (القدّيسة تيريز الطفل يسوع)، هذه التنهّدة: «لقد أدركت أنّ الحبّ يتضمّن كلّ الدعوات، وأنّه هو كلّ شيءٍ، وأنّه يغمر كلّ الأزمان والأمكنة. وحينئذٍ هتفت: «لقد اكتشفت مكاني في الكنيسة: سأكون الحبّ»».

حوارٌ

– **أنتييه:** حيال صيغ التعريف هذه، يشعر المرء بصغره، وبهوّة بعده عن كمال الحبّ، وعن عمقه الذي لا يُسبَر، فعلى حدّ قول القدّيس بولس: «مقياس الحبّ، حبٌّ بلا قياس». فما هو تعريفك للمحبّة؟

– **غيتّون:** حبّ المحبّة «أغاپي»، هو أبعد شوطًا من المودّة «فيليا».

ثماره هي الصبر، والرقّة، والأريحيّة المتواضعة، وفنّ الصفح عن الشرّ، والابتهاج بالإحسان. إنّه جمال الطيبة، الفضيلة بامتيازٍ. إنّه الابتهاج بفرح الغير، وهو أعسر من التعاطف معه. العطف والتسامح يكوّنان هذا الجزء من طيبة النفس الذي حدّده القدّيس بولس بقوله إنّه «لا يكرّم الشرّ، حتّى بفكرةٍ».

لفرط ما شُوِّهت، في أيّامنا، لفظة «العطف»، وشاخت لفظة «المحبّة»، واهترأت سائر الأَلفاظ، عدنا إلى اللفظة اليونانيّة الأصليّة: «أغاپي»، تلك اللفظة العتيقة، التي تعني وجبة طعامٍ ليليّةً، ومشاركةً، يكسر فيها الإيمانُ الخبزَ.

– **أَنتييه:** لفظة «طيبة النفس» توحي لي بمعنَيَيْن. فتخطر ببالي، أوّلاً، عذوبة الشيء، وفائدته. حوّاء شعرت أنّ الثمرة كانت طيّبة المذاق. ثمّ، في ما يتخطّى المشاعر العاديّة، أتوسّم في الطيبة صيغةً من الخير.

– **غيتّون:** عن هذا التوسّم، نحن نتكلّم. هذه الطيبة لا تنفصل عن الجهد في تبيّن الأمور الدقيقة التي تجعل من الطيبة تلك الفضيلة النادرة التي تدعى رهافةً ورقّةً.

– **أَنتييه:** لفظتا الطيبة والمحبّة باتتا يشوبهما شيءٌ من الزيف، من جرّاء استخدامهما في وصف هذا أو ذاك من الزعماء الاجتماعيّين أو الإعلاميّين، أو في وصف طيبة دولٍ محبّتها من إحكام التنظيم بحيث تكاد تحصر اهتمامها بذاتها.

– **غيتّون:** أجل: فعطاء الغنيّ قد يسرّب إلى نفسه شعورًا بالكبرياء، يؤكّد امتلاكه، ويشهد له، لا بالامتلاك فحسب، بل بالطيبة، أيضًا. وهذا موقفٌ سلبيٌّ. فقد يستفزّ ثورة المتلقّي، الذي يشعر بالإذلال، أو قد يرسّخه في الحرمان الذي يستكين له إلى أن

يصبح فقيرًا محترفًا، راضيًا بهذا الوضع.

– **أَنتييه:** هل لك، إذن، أن تستفيض في تعريف المحبّة الحقّة، أو الطيبة الحقّة؟

– **غيتّون:** المحبّة نبيلةٌ ورقيقةٌ، وتداني الخَفَر. إنّها مشاركةٌ متواضعةٌ بين من يملك ومن لا يملك. المحبّة لا ترغب في العطاء، بقدر ما ترغب في أن تُسامَح لأنّها تُعطي. وحينئذٍ لا تعود الطيبة تفوّق من يملك، بل فنّ مصادقة من لا يملك، ولكأنّ الامتلاك، والافتقار إلى الامتلاك، نمطان متكاملان من الكينونة. المطلوب هو القضاء على الشعور بالتملّك لدى الواحد، وعلى الشعور بالحرمان لدى الآخر.

– **أَنتييه:** إنّ ما تقوله يثير فيّ اضطرابًا عميقًا. فذات مساءٍ، في شارعٍ معتمٍ، التقيت وجهًا لوجهٍ، برجلٍ مشعّث الشعر، عنيفٍ، ويكاد يكون مهدّدًا، بادرني طالبًا إحسانًا، ولكن بأسلوبٍ من الغرابة، بحيث لُجم لساني، وتراجعتُ. وبغتةً هتف: «لا تخف!». وفي الحال توارى قبل أن أفيق من ذهولي، وأمدّ يدي إلى محفظتي. وما برحتُ حتّى اليوم ألوم نفسي لموقفي. فقد أحسّ ذلك الرجل بخوفي، وانسلّ كي يبعث فيّ الطمأنينة، مستخدمًا كلمات المسيح عينها، وإن هو لم يعرفها. لقد كان لقلبه الأولويّة على مصلحته.

– **غيتّون:** من هو، حقًّا، في حاجةٍ إلى عونٍ؟ فغالبًا ما تتوفّر للفقير فرص الإحسان إلى الغنيّ، شرط أن يفتح هذا بابه وقلبه.

– **أَنتييه:** إنّه لعسيرٌ أن يكون الإنسان طيّبًا، فالطيبة تستلزم نكران الذات.

– **غيتّون:** وتستلتزم الحبّ، أيضًا. كان «آلان»[1] يقول: «ليست

---

(١) «آلان» (١٨٦٨– ١٩٥١): فيلسوفٌ وكاتبٌ فرنسيٌّ تتلمذ عليه العديدون من

المحبّة إرادة فعل الخير للبشر، بقدر ما هي رؤيتهم رائعين، وعدم الارتواء من مشاهدتهم».

فالناس ميّالون إلى الازدراء أو إلى الخوف. أمّا حبّ المحبّة فهو فضيلةٌ، بمعنى الكلمة النبيل. وينبغي السعي إليه بتواضعٍ. فعندما نعدّ القريب كائنًا لا غنى عنه، نجد أنفسنا، عوضًا عن تجاهله أو ازدرائه، نُعجب به، في أعماله المعتادة، في أحزانه، وفي ساعات سأمه الطويلة، وفي ردود فعله الفطريّة، كردّ فعل ذلك المتسوّل الذي ألحت إليه. وحينئذٍ نحن نحبّه حقًّا، ولو لم نتلفّظ بكلمة الطيبة، التي تتّسم بالكثير من الروعة، وبالكثير من التفاهة.

– **أَنتييه:** كيف نميّز بين الطيبة الشاحبة والمحبّة الحقّة؟

– **غيتّون:** المحبّة، في مداها، أبعد شوطًا، وهي قريبةٌ من الرأفة. على سبيل المثال: للعدوّ حرمةٌ، وهو ملقًى أرضًا. ومن يجهز عليه يجهز على نفسه. احترامه هو حبٌّ مجرّدٌ وعطوفٌ، طيبة قرابةٍ، عمليّةٌ، يوميّةٌ، مألوفةٌ لدى الأشخاص المرهفي الإحساس. وكذلك هو الصبر، والسكوت عمّا هو سيّئٌ في الآخر، والتواضع حيال ما يفعله الإنسان من خيرٍ.

– **أَنتييه:** ماذا تعني بعبارة «طيبة قرابة»؟

– **غيتّون:** التزامنا حيال الفقراء ينبغي أن يتخطّى محبّةً شاملةً، هي لا ريب واجبةٌ، تمرّ عبر الدولة، والمشاريع الإنسانيّة. ثمّة، أيضًا، صيغٌ جيّدةٌ، ومُبتَدعةٌ من التزامٍ، تعفي مؤسّساتٍ خاصّةً من نضالها في سبيل المساواة الاجتماعيّة؛ ويبقى أنّ الوسيلة الوحيدة للتطهّر من الوهم الذي يتسلّل أحيانًا إلى المحبّة، هو الالتزام القريب، لا الالتزام البعيد، الالتزام المحدّد، المتجسّد، بدءًا بالاهتمام بالقريب الأَدنى، وبأفراد الأُسرة. هو الاتّصال الإنسانيّ بقومٍ منكودي الحظّ؛ هو علاقةٌ

صادقةٌ، مثابرةٌ، ومتجدّدةٌ بذكاءٍ، أمدًا طويلاً.

– **أنتييه:** حبٌّ إلهيٌّ.

* *

ولنختم هذا الفصل بمثالَيْن عن الحبّ الإلهيّ. الأوّل صادرٌ عن قارئٍ سويسريٍّ مجهولٍ، يقول:

«كنت في حالة ترقُّبٍ، وما عُدت أعرف كيف أُصلّي. فهل يمكن أن يكون هذا الوضع أيضًا، صلاةً؟ وتدفّقت من شفتيّ الكلمات الصادقة الأولى في حياتي، في بذلٍ للذات كلّيٍّ. لقد اكتشفت عريي، وفقري، ووحدتي، وهزال حبّي. فاستسلمت، وهتفت: «أبتاه!»، إذ لم أكن أعرف، بعدُ، إلى من أتوجّه. وفي صرختي أعطيتُ فراغي كلّه، لكي تملأه، أنت، يا أبتاه. وبغتةً حدث الانفجار، وانفتحت السماء، واستحوذت عليّ قوّةٌ مجهولةٌ. واتّسعت نفسي بلا حدودٍ... وانصهرتُ بالحبّ، بل غدوت حبًّا. واستخفّني الفرح، والنور، والامتلاء، والفهم، والمعرفة. صرتُ أنا في الكلّ، وصار الكلّ فيّ، والآن أعلم أنّي أعلم، ولن يكون، بعدُ، شيءٌ كما كان سالفًا. بل كلّ شيءٍ أمسى ممكنًا. ولكنَّ الحبّ لا يُحكى، بل يُحيا».

المثل الثاني يُظهر كيف يُحيا الحبّ. فالقدّيسة تيريز الطفل يسوع، التي لم تعهد سوى القليل من الحالات الصوفيّة، تنهض نموذجًا للحبّ المتواضع، «الصغير»، ولكنّه لا محدودٌ في علاقته مع الإلهيّ. كانت تقول: «دربٌ صغيرٌ، ولكنّه مستقيمٌ، قصيرٌ، وجديدٌ»، كفيلٌ بإيصالها إلى هذا الحبّ الكلّيّ، الذي أنارها، فيما كانت تقرأ هذا المقطع من أشعيا: «مثلما تداعب أمٌّ ابنها، هكذا سأعزّيك، وأحملك في حضني». ومنذئذٍ غدا وهنها و«صغرها» هما أداة اتّحادها بالله، «مكان

العفّة

– **مرادفاتٌ:** الطهر، الخَفَر، الزهد، الإخلاص، البراءة.

– **أَضدادٌ:** دنسٌ، عهرٌ، فسقٌ، فحشاء.

– **أقوالٌ مأثورةٌ:** «من ظلّ عفيفًا، ومات حبًّا، مات شهيدًا». (حديثٌ شريفٌ)

– «العفّة هي سنى الإنسان الداخلي». (رويسبروك)

تعريف: العفيف هو من يقي نفسه من ملذّات الجسد، وفقًا لمبادئ أخلاقيّةٍ يلتزم بها، ومن يحترم الخَفَر، ويتحاشى عن كلّ نجاسة فكرٍ وجسدٍ.

العفّة، إذن، هي الامتناع عن الملذّات الجسديّة المحرّمة، التي تُمارَس خارج إطار الزواج، والتي تقع في دائرة الزنى، أو التي تنتهك نذر العفّة. العفّة المثاليّة هي رفض حتّى فكرة هذه الملذّات، حفاظًا على الطهر والبراءة. وإلاّ لما كان، ثمّة، سوى امتناعٍ عن الفعل الجسديّ. هذا الامتناع لا يتعارض مع الزواج، الذي قد يكون «زواجًا أبيض» ينفي العلاقات الجنسيّة، أو قطعًا للعلاقات الجنسيّة بعد إنجاب الأولاد، ولكن من غير حؤولٍ دون علاقة حبٍّ عذريّةٍ تتّسم بالصداقة.

العزوبة هي وضع إنسانٍ بلغ سنّ الزواج ولكنّه لم يتزوّج. قانونيًّا هو وضع لازواجٍ. وهو ليس فضيلةً. إذ قد يبقى المرء عازبًا بدافعٍ أنانيٍّ، أو تحت ضغط مانعٍ ما. وقد يكون العازب إباحيًّا، فاسقًا. أمّا «العزوبة المسيحيّة فهي قرارٌ بالامتناع عن عقد علاقات حبٍّ، وبالعيش، نهائيًّا، في الوحدة والعفّة. وعندما تمارس هذه العزوبة طوعًا وبحرّيّةٍ، فهي فضيلةٌ تستهدف تكريس الذات بالكامل للّه وللآخرين»، كما يقول «مور ستانديرت» (Maur Standaert).

أمّا البكارة فهي استبعاد الفعل الجنسيّ، والحفاظ على عفاف الجسد.

إنّ تحديد العفّة في معجم «لاروس الكبير المصوّر» لعام ١٩٠٥، يمكّن من سبر ما طرأ من تطوّرٍ على اللهجة والأخلاق العامّة، فهو يقول: «عندما تُستخدم لفظة العفّةً للتحدّث عن النساء، تُرفَق بها ألفاظ الشرف (أي الرغبة في الحفاظ على تقدير العالم) والحكمة (أي الرغبة في الحيطة التي بفضلها تتجنّب المرأة الفاضلة المناسبات الخطيرة) وأخيرًا الفضيلة، وهي الجرأة التي تمكّن المرأة المعرَّضة لإغراءات الجسد من مقاومة تجارب الغواية».

أمّا كتاب «تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة» فيُحلّ العفّة في مكانةٍ رفيعةٍ، فهي فضيلةٌ ومثلٌ أعلى، ويقول: «الكائن العفيف يحتفظ بكامل قوى الحياة والحبّ المغروسة فيه. وهذا الكمال يضمن وحدة الشخص، ويعارض كلّ سلوكٍ كفيلٍ بجرحه، ويرفض كلّ ازدواجيّةٍ في السلوك وفي القول».

«العفّة تتضمّن تعلّم السيطرة على الذات، وهذه هي تربيةٌ للحرّيّة الإنسانيّة. فإمّا أن يتحكّم الإنسان بأهوائه، ويظفر بالسلام، أو إنّها تستعبده وتقضي عليه بالتعاسة. فكرامته تقتضي منه أن ينهج بموجب خيارٍ واعٍ، وليس فقط تحت ضغط اندفاع الغرائز».

«إنّ فضيلة العفّة تندرج في إطار فضيلة الزهد الرئيسيّة، التي تستهدف إخضاع الأهواء وشهوات الحواسّ البشريّة لسلطان العقل».

أمّا في ما يتعلّق بالأزواج، فتقرّ الكنيسة أنّ الممارسة الجنسيّة هي «منبع فرحٍ ومتعةٍ، وإرضاءٍ للجسد والروح». منذ عام ١٩٥١، أعلن البابا بيّوس الثاني عشر شرعيّة «المتعة، وإرضاء الجسد والروح. فالأزواج لا يرتكبون أيّ خطإٍ في التماسهم اللذّة والتمتّع بها»، باعتدالٍ، ومحقّقين غاية الزواج المزدوجة: خير الزوجين، ونقل الحياة إلى آخرين. وإلاّ لفسدت حياة الزوجين الروحيّة، ولتعرّض مستقبل الأُسرة للخطر. ويبقى الإخلاص الزوجيّ القاعدة المطلقة، وكذلك عدم انفصام عرى الزواج، والخصب «بقياس الإنسان».

تحديد النسل غير مسموحٍ به إلاّ بالوسائل «الطبيعيّة» أي بالعفّة.

الطلاق الكنسيّ غير مسموحٍ به، ما خلا «الفراق الجسديّ». ثمّة تغاضٍ عن الطلاق المدنيّ. ولكنّ كلّ فريقٍ تطلّق، وتزوّج ثانيةً، يقع في حالة زنًى. وينوّه كتاب «التعليم» بالصدمة الظالمة التي يُمنى بها الأبناء من جرّاء ذلك.

للمسيحيّ، البكارة قبل الزواج فضيلةٌ، وامتيازٌ. فهي تؤكّد، بقوّةٍ، قيمة الزواج وكرامته، وترمز إلى مثالٍ أعلى يتخطّاه. إذ يمكن بلوغ الحبّ مباشرةً بالبكارة. فالزواج والبكارة، على مستويين مختلفين، يحقّقان السرّ القدسيّ عينه.

وقد أشاد المجمع الفاتيكانيّ الثاني بكلٍّ من العفّة الرهبانيّة والزواج، فهما «دربان مختلفان لبلوغ هدفٍ واحدٍ». وإنّ معظم اللاهوتيّين يقاومون نظريّة فرويد القائلة بأنّ لجم النزعة الجنسيّة يولّد أمراضًا متعدّدةً. بل يمكن القول إنّ الإباحيّة الجنسيّة الجامحة هي هدّامةٌ.

حوارٌ

– **أنتيه:** كيف التحدّث عن العفّة في عالمٍ مستسلمٍ لمُتع الأحاسيس، التي لا تني تهيّجها مبتكرات الأزياء، والصور، والأفلام، والكتابات المثيرة، وحيث رؤساء الدول، على غرار ملوك الأمس، يضربون المثل السيِّئ؟ وهل ما زال ممكنًا وصف الفعل الجنسيّ المحرّم «بالخطيئة»، في حين أنّ الرأي السائد يقاوم كلّ المحظورات والمحرّمات؟ وأيّ عنصرٍ إيجابيٍّ للإنسان، في العفّة الطوعيّة، سوى التحصّن من داء السيدا، ولجم تكاثرٍ سكّانيٍّ فوضويٍّ كاسحٍ؟

– **غيتّون:** هذان، في ذاتهما، مكسبان لا بأس بهما. ولا ريب أنّ العفّة خيرٌ من الواقي الاصطناعيّ. فلنتأمّل حضارةً تدّعي التقدّم، مثل حضارتنا. فهل عليها السيطرة على دوافعها الجنسيّة، أو المخاطرة بالخضوع لها، بلا رقيبٍ، حتّى الاستعباد لها، بحجّة الحرّيّة، والتمتّع؟

– **أنتيه:** فلنُعرضْ، مؤقّتًا، عن الاعتبارات التقليديّة المتعلّقة

بالإخلاص، والخَفَر والطهر، والبكارة... هذه المفردات التي تتغيّر وفقًا للحقبة والمحيط الإثنيّ. فهل من المعقول، في حقبتنا هذه التي تتشدّق بحرّيّة الممارسات، أن ندعو إلى العفّة؟

– **غيتّون:** لا بدّ، أوّلاً، من التمييز بين نوعين من العفّة: فثمّة العفّة المطلقة المحصورة في نخبةٍ، ولا سيّما في فئة الرهبان والكهنة، الملتزمين بمثلٍ أسمى، لصالح قِيَمٍ فائقةٍ؛ وثمّة العفّة النسبيّة التي يمارسها الأزواج، ملتزمين بقواعد الإخلاص المتبادل.

– **أَنتييه:** هناك نمطٌ ثالثٌ من العفّة، عفّة الشبّان الذين لم يختاروا بعد الحياة الزوجيّة. معظمهم لا يعبأون بالعفّة، بعد أن غمر مدّ ثورة ١٩٦٨ المجتمع. فهل هذا خيرٌ أم شرٌّ؟

– **غيتّون:** لديّ ملاحظتان: في صغري، لم يكن الفتيان يُلقَّنون مبادئ الجنس، أمّا اليوم فيُطلَع عليها حتّى الأولاد الصغار. قديمًا كانت رقابةٌ أخلاقيّةٌ تفرضها لا الأسرة فقط، بل أيضًا الدولة. أمّا اليوم فالمظاهر الجنسيّة منتشرةٌ في كلّ مكانٍ: في التلفزيون، والراديو، والصحافة، والكتب، والأنترنيت، وحتّى على الجدران. لا ريب أنّه كان من الضروريّ مكافحة المحرّمات التي تفرض الصمت حول شؤون الجنس، والتي كانت تودي بفتياتٍ جاهلاتٍ إلى الحَبَل خارج نطاق الزواج، أو إلى زواجٍ لم يتأهَّبنَ له، ويسبّب لهنّ صدمةً نفسيّةً. ولكنّ ذلك لا يبرّر الإفراط في الاتّجاه المعاكس. فقد باتت، اليوم، فتياتٌ في الثانية عشرة يمارسنَ علاقاتٍ جنسيّةً. وأمست الفتيات اللواتي ظللنَ عذراواتٍ، في الثامنة عشرة من عمرهنّ، يتعرَّضنَ لسخريّة البعض، أو يُعدَدْنَ، من قبلهم، شاذّاتٍ. فلا بدّ لهنّ من قوّة شكيمةٍ كبرى، ومن شخصيّةٍ منيعةٍ، للحفاظ على مثالهنّ ومبدئهنّ.

– **أَنتييه:** هل أنت متأكّدٌ من أنّ غزو الغواية الجنسيّة هو جديدٌ؟ أَلم يكن موجودًا، في عهد صباك، أيضًا، ولكن على نحوٍ مُستترٍ؟

– **غيتّون:** أجل، إنّي أقرّ بذلك. فالمرأة هي تجسيدٌ للجسد من أخمصها إلى قمّة رأسها. فحين كانت، قديمًا، لا تُظهر سوى وجهها، وكاحليها، كان ذلك كافيًا لإلهاب مخيّلات الرجال. أمّا اليوم فالنساء يفرطن في إبراز مفاتنهنّ. وإنّ هذا الغزو الجنسيّ التجاريّ الرخيص لفظيعٌ، إذ إنّه يتردّى بالكائن البشريّ إلى مستوى الحيوان، بل إلى دركاتٍ دنيا. فالحيوان الذي تحكمه غرائزه، يعهد فترات عفّةٍ. إنّ الكثير من أنماط السلوك الجنسيّ، اليوم، يتّسم بالشذوذ، ممّا يجرّ الشبيبة إلى دوّامةٍ لن يجدوا لأنفسهم منها مخرجًا، بعد أن فقدوا صوى هدايتهم، وبعد أن تفجّرت الأُسرة، وأُنكر الدين، أو تمّ تجاهله.

– **أَنتييه:** الأمر يتعلّق، فعلاً، بإنكار الدين. فما سبب العزوف عن العفّة التقليديّة التي توصي بها الكنائس؟ أهي مجرّد قضيّة إيمان؟ الشباب أقلعوا عن تصديق أنّ نيران جهنّم ستعاقب سلوكًا تصفه الكنيسة باللاأخلاقيّ. وحتّى الشبّان الذين يحترمون البابا ويحبّونه – وقد أقاموا على ذلك الدليل بحشودهم الغفيرة، في أثناء أيّام الشبيبة العالميّة بباريس، عام ١٩٩٧ – لا يتّبعون نصائحه.

– **غيتّون:** الكنيسة تحدّد مبادئ الأخلاق، ولكنّها لا تستطيع الحؤول دون انحراف الممارسات. فمقتضيات الأخلاق صعبةٌ، وقد تبدو، أحيانًا، «لاإنسانيّةً»، إذ عندما يتذوّق فتًى وفتاةٌ تجربتهما الجنسيّة الأولى، يخيّل إليهما أنّهما حلّقا إلى السماء السابعة، في حين أنّ الكنيسة تقول لهما أن لا حقّ لهما بالمضاجعة خارج إطار الزواج. والكنيسة المسيحيّة تجعل الإنجاب من واجبات الزواج، في حين أنّ مراهقَيْن غير بالغَيْنْ، ولا يملكان وسائل العيش الكافية، لا يقويان على تأسيس أسرةٍ. وبالتالي يختار العديد من الشبّان الحبّ الحرّ، والمتعة، و«الطبيعة». وحتّى بين الذين نشأوا في التقليد

المسيحيّ، ثمّة من ينبذون الكنيسة. والمأساة هي أنّهم، في غمرة هذه الأوضاع، قد يفقدون إيمانهم. هذا ما انتهينا إليه.

- **أَنتييه:** أَلا تحتمل الكنيسة وزر هذه القطيعة، فقد تملّكها، طيلة قرونٍ، خوفٌ مَرَضيٌّ من اللذّة الجسديّة التي كانت تعدّها مدرجةً إلى الفساد، وحاولت قصر غاية الحبّ البشريّ على وظيفة الإنجاب، في حين أنّ يسوع كان أكثر تمييزًا، وتحفّظًا.

- **غيتّون:** لقد وقعت أَخطاءٌ، ولكنّ الأوضاع تبدّلت منذ المجمع الفاتيكانيّ الثاني، الذي ارتأى أنّ غاية الزواج، هي، بالطبع، الإنجاب، ولكن في إِطار حبٍّ جوهريٍّ عميقٍ، على ألاّ يكون هذا الحبّ أنانيّةً ثنائيّةً، بل ينبغي أن يكون خصبًا.

- **أَنتييه:** ويجب أن تُضبط العلاقات الجنسيّة، بطريقةٍ طبيعيّةٍ، ممّا يقودنا، أيضًا، إلى العفّة.

- **غيتّون:** لا تدين الكنيسة الحبّ، بل تدين الانحرافات الجنسيّة: الإباحيّة، واللواط، والتعدّي الجنسيّ على الأطفال، وسفاح القربى، وكلّ ما يخالف طبيعة الأشياء.

- **أَنتييه:** هذه الممارسات تفضي، لا محالة، إلى كوارث، كالسيدا. والأمر، هنا، ليس قضيّة دينٍ، بل قضيّة احترامٍ للذات، وللآخرين، وقضيّة أخلاقٍ طبيعيّةٍ، وصحّةٍ.

- **غيتّون:** ليست السيدا عقابًا إلهيًّا، بل هي نتيجةٌ منطقيّةٌ للممارسات الشاذّة، مثلما يؤدّي الإفراط في التدخين إلى السرطان، ومثلما يقتل الإفراط في تناول الكحول أكثر ممّا تقتل الحروب، ومثلما يفضي الإسراف في الطعام إلى عِلَلٍ قلبيّةٍ وشريانيّةٍ، إلخ..

- **أَنتييه:** والتشرّد الجنسيّ ينتج أمراضًا جنسيّةً، وينشرها. هناك الواقي ولكنّ الكنيسة تؤثر العفّة. لماذا؟

– **غيتّون:** لنكن واضحين، فإن اعتبرنا أنّ الشبّان عاجزون عن الالتزام بالعفّة، في المناخ الإباحيّ السائد الذي يعيشون فيه، فالواقي هو شرٌّ أدنى.

– **أَنتييه:** هذا ما تقوله أنت، لا ما يقوله البابا!

– **غيتّون:** ليس بوسع البابا الدعوة إلى استخدام الواقي، فهو يدعو إلى سلامة الأخلاق، وإلى الكمال. وفي نظر الكنيسة أكثر الوسائل بساطةً لدرء وباءٍ، أو للحدّ من التكاثر السكّانيّ العشوائيّ، هو السيطرة على الذات، والعفّة، هذا ما ينبغي أن يُلقّن للشباب.

– **أَنتييه:** ولكن بحبٍّ وتفهّمٍ.

– **غيتّون:** هذا ما تفعله الكنيسة التي تميّز بين الخطيئة والخاطئ. إنّها تدين الخطيئة بحزمٍ، وهذا واجبها. ولكنّها تغفر للخاطئ، وبالأحرى لمن لا يفقهون شيئًا عن مبادئ الأخلاق، لأنّ أسرتهم لم تلقّنهم إيّاها، ولم تضرب لهم فيها المثل.

– **أَنتييه:** إذن، بمَ تنصح الشباب السليمي النوايا؟ وما السبيل إلى مقاومة التجربة؟

– **غيتّون:** بالتطلّع إلى مثلٍ سامٍ. ولكن ينبغي، أوّلاً، فهم كيف تعمل التجربة. فعندما يُجرَّب المرء، يصارع صورةً لا تلبث أن ينشب أَثرها بغدده، ويغزو نفسه. وقد تؤدّي بعض الأساليب الرامية إلى توجيه الجهد نحو إزالة الصورة إلى تأجيج أثرها.

– **أَنتييه:** كيف يمكن ذلك؟

– **غيتّون:** إنّه قانون الانعكاس. وهو شبه محتّمٍ في كلّ توتّرٍ متمادٍ. إذ تحين لحظةٌ يستفزّ فيها الجهد المتصدّي لعائقٍ خارجيٍّ (وهو هنا التجربة، وصورة جسدٍ عارٍ) عائقًا داخليًّا أشدّ خبثًا من ذاك، ولا يني ينمّيه بقدر ما يرفضه، كما يُلاحَظ لدى المتأتئ. وقد قال «إيميل كوّي»

(Emile Coué) إنّه عندما ينشب صراعٌ بين المخيّلة والإرادة، تتضاعف قوى المخيّلة، وتتخطّى الإرادة بمقدار تربيع العدد.

– **أنتييه:** ما العمل إذن؟ كان ناپوليون يقول: «في الحبّ، النصر الوحيد هو الهروب».

– **غيتّون:** إنّها ردّة فعلٍ جيّدةٌ، شرط الهروب في الوقت المؤاتي. فالحبّ من الروعة بحيث لا يسوغ تبديده. ينبغي، إذن، العزوف عن كلّ ما هو شاذ ومسرفٌ في السلوك الجنسيّ. وحينئذٍ تتألّق عظمة الحبّ البشريّ المرقّى إلى مستوًى رفيعٍ. وهذا الحبّ يُكتسَب ويُستحقّ بفضل العفّة.

– **أنتييه:** أنت، إذن، ترى في العفّة، دربًا إلى المستقبل، لا رواسب الماضي.

– **غيتّون:** أجل، فهي قضيّة أخلاقٍ طبيعيّةٍ، وانضباطٍ، ولكنّها تفضي إلى ما هو أبعد. إنّ الشريعة الروحيّة الكبرى تقول إنّ الإنسان لا يجد نفسه إلاّ إذا فقدها، أي إذا امّحى. وعن ذلك تنبثق فكرة التضحية، والحدّ من المتعة.

– **أنتييه:** إنّ حقبتنا الإباحيّة لا تحتمل فكرة التضحية.

– **غيتّون:** ولذلك سأتكلّم عن التسامي، أي عن قدرة الاستيعاب، بمنأًى عن الإفناء. ومن هذا المنظور، إنّ الطاقة الجنسيّة القصوى هي طاقة الطهر، كما يفهمه الصوفيّون، أي البساطة. فبفضل الطهر المرتبط، على هذا النحو، بالروح وبالحياة، يستطيع إنسان الغد العثور على منبع طاقةٍ جديدةٍ، أخلاقيّةٍ وبيولوجيّة، في آنٍ واحدٍ. فاللجم الطوعيّ للطاقات الجسديّة، ولا سيّما للطاقة الجنسيّة، يولّد قوّةً داخليّةً مهيّأةً للتحوّل.

– **أنتييه:** وهل هذا مُثبَتٌ علميًّا.

– **غيتّون:** هذا ما تثبته خبرة جميع الصوفيّين، في كلّ ديانات العالم.

– **أَنتييه:** ولكن علامَ تنحفر هوَّةٌ بين الغرائز الجنسيّة، والمحبّة الصوفيّة، في حين أنّ لفظةً واحدةً تعبّر عن كليهما: هي الحبّ؟

– **غيتّون:** في حضارتنا، وفي ثقافتنا الدائبة على إثارة الشهوات، أصبحت الشهوة الجنسيّة قدرة إثارةٍ، وانحلالٍ، وتدميرٍ، ونارًا ملتهمةً. بيد أنّ في الذرّة، أيضًا، قدرة تدميرٍ. ولكن أمكن تحويل النار التي دمّرت هيروشيما إلى حرارةٍ ونورٍ مفيدَين. وقد استطاع الإنسان، أيضًا، استخدام الرياح، ومدّ البحار وجزرها، والكهرباء، والطاقة الشمسيّة. أفلا يُروّض، غدًا، الطاقات الجنسيّة، المتفجّرة اليوم لأنّها مستسلمةٌ للغرائز؟ وحينئذٍ لن تعود الشهوة الجنسيّة عامل اضطرابٍ، بل مساعدًا للحبّ، وللمحبّة، أي للنارَيْن اللّتين يجب أن تتضافرا، فتضاعف الواحدة لهيبها، وتضاعف الأخرى شفافيّتها، من أجل تعميق الأنا الحميم، ومن أجل تقارب الأرواح المتجسّدة، ومن أجل استنباطٍ حرٍّ وخلاّقٍ لجميع الدروب التي لم تُستكشف، بعدُ.

– **أَنتييه:** وهذا يقودنا إلى العفّة الاستثنائيّة، إلى العزوبة الطوعيّة التي يُمارسها الكهنة والرهبان، والراهبات. فهل، ثمّة، من لا يزال يفهمها؟

– **غيتّون:** إنّ حياتنا الرتيبة التافهة بحاجةٍ إلى تنسّم بعض أمثلةٍ بطوليّةٍ. وإنّني، في مضمار القدوة، أوثر مثال القدّيس أوغسطينُس، الذي أفضى إلى النور، بعد أن سيطر طوعًا على شهوةٍ جنسيّةٍ طاغيةٍ، على مسيرة المركيز «دي ساد»، الذي استسلم لكلّ ضروب الشذوذ التي انتهت به إلى حزنٍ سحيقٍ.

– **أَنتييه:** ومع ذلك تبقى العفّة المعاشة بفرحٍ، استثنائيّةً.

– **غيتّون:** عندما يتضاءل الاستثنائيّ في مجتمعٍ، فهذا يعني أنّه بات يفتقر إلى شيءٍ ما جوهريٍّ، إلى ما يشبه الخميرة في العجين. إنّ عزوبة الرهبان أمرٌ محسومٌ، ولا جدال فيه. به ينذر المرء ذاته للكمال، ولله وحده، بلا شريكٍ. أمّا عزوبة الكهنة فأمرٌ آخر. ففي الكنيسة اللبنانيّة، يوجد كهنةٌ كاثوليكيّون متزوّجون ممتازون. وإنّني لأرى في الكنيسة الرومانيّة جمالاً، وعظمةً، وسموًّا في عزوبة الكهنة، شرط أن يظلّ الكاهن عفيفًا، جسدًا، وروحًا، وفكرًا. غير أنّ هذه العزوبة الكهنوتيّة تنطوي على نقصٍ: فالزواج وحده يمكّن الرجل من معرفة المرأة، في مختلف جوانبها. إنّ عزوبة الكهنة أمرٌ صائبٌ، ولكنّهم يفتقرون إلى الخبرة التي يوفّرها الزواج، ولا يصيبون دائمًا الحقيقة عندما يتحدّثون عن المرأة. وهذا ينطبق حتّى على البابا. ولكن لست أرى في ذلك مبرِّرًا لإعادة النظر في العزوبة الكهنوتيّة.

– **أَنتييه:** وكيف سيكون الأمر في المستقبل؟

– **غيتّون:** تعي الكنيسة، كما أكّد البابا يوحنّا بولس الثاني، أنّها تحمل هذا الكنز في آنيةٍ خزفيّةٍ. ولكنّنا موقنون بأنّه كنزٌ.

– **أَنتييه:** هذا ما يشهد عليه كاهنٌ حقّق ازدهاره في دعوته، هو الأب «ستان روجييه» (Stan Rougier)، الذي يقول: «ينبغي السموّ بهذه الطاقات من غير تحطيمها. ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بفضل روحانيّةٍ كثيفةٍ. وحينئذٍ قد يتحوّل هذا الزهد إلى حبٍّ مضاعفٍ موقوفٍ على خدمة الآخرين. وقد قال المسيح إنّ ما نزهد فيه، في سبيل حياةٍ أرفع سموًّا، سيعاد لنا مئة ضعفٍ».

التركيز

مرادفاتٌ: انتباهٌ، مثابرةٌ، اجتهادٌ، تفكيرٌ، تأمّلٌ.

أضدادٌ: شرودٌ، تشتّتٌ، تراخٍ.

قولٌ مأثورٌ: «لو شعرنا بشيءٍ واحدٍ، في العمق، لشعرنا بكلّ شيءٍ، فيه، وبواسطته: هذا ما يفعله الحبّ من خلال كائنٍ مختارٍ». (جان غيتّون)

تعريفٌ: تركيز الفكر هو عملٌ إراديٌّ نوجّه به طاقة إحدى قدراتنا صوب موضوعٍ محدّدٍ. التركيز هو تثبيت الانتباه بكثافةٍ، وإمعان النظر مليًّا، وتسديد الوعي نحو نقطةٍ واحدةٍ، كما يسدّد الليزر. **التفكير** هو انتباهٌ داخليٌّ يتّخذ به الفكر من خواطره موضوعًا. والتأمّل هو تفكيرٌ عميقٌ ومتمادٍ، يتناول، عمومًا، موضوعًا دينيًّا. والانتباه، كما يعرّفه معجم «لاروس»، هو عمليّةٌ ذهنيّةٌ، تولي الأفضليّة لموضوعٍ دون سائر المواضيع، وتبقى في الظلّ سائر ظواهر الوعي، لكي ينمو الموضوع المختار نموًّا حصريًّا. وهذا يقتضي توجيه الفكر صوب موضوعٍ ما، توجيهًا متواصلاً، جادًّا، مثابرًا.

حوارٌ

– **أَنتيبه:** في تقنيات التأمّل الشرقيّة، الهادفة إلى بلوغ واقعٍ فائقٍ أو أساسيٍّ، يخفيه عنّا الضجيج، وبريق الظواهر العالميّة، نجد طريقًا ملكيًّا، متمثّلاً في التركيز الذي يحتاج إليه كلّ فردٍ في حياته اليوميّة. فبمعزلٍ عن التركيز يتعذّر تحقيق أيّ هدفٍ، سواءٌ تعلّق الأمر بالإعداد لامتحانٍ، وللنجاح فيه، أو بوضع كتابٍ، أو بالإقدام على عملٍ

جماعيٍّ. فهل يسوغ إدراج التركيز في فئةٍ الفضائل؟

– **غيتّون:** بل يسوغ، أيضًا، اعتباره فنًّا! هذا ما خبره جميع الرسّامين والكتّاب، وهذا ما نسعى إلى فعله هنا.

– **أَنتييه:** هل يعمل الوعي مثل بؤرة ليزر تضيء ينابيع الذاكرة، وأعماق الفكر الكمينة؟

– **غيتّون:** هكذا يفعل وأكثر. فالتركيز يولّد ضغطًا، مثل طاقةٍ موجّهةٍ، وتأتي النتيجة، بغتةً، خاطرةً خلاّقةً تنبثق من الصمت العنيد، وينطلق السهم من القوس المشدودة.

– **أَنتييه:** ألا بدّ، إذن، من أن يمهّد، «صمتٌ عنيدٌ»؟

– **غيتّون:** هذا الصمت هو ضربٌ من الاسترخاء. كان «پيغي»[1]، عندما يشترك في مسابقةٍ، وبعد أن تُطرح الأسئلة، يلقي رأسه على ذراعيه المطويّتين، وكأنّه مستسلمٌ لإغفاءةٍ. وبعد برهةٍ، يبدو وكأنّه استُثير، فيغطّي الصفحات بخطّه الكبير المستقيم، ومن غير أيّ شطبٍ. وكان «نوڤاليس» ينصح، من جانبه، بالتمثّل بملاكٍ لا يشغله شيءٌ، من أجل إيقاظ الانتباه. فالملاك يرمز إلى النقاء والفراغ.

– **أَنتييه:** كلّ ذلك ينطوي على شيءٍ من التناقض. فهل استنفار الذاكرة، وإيقاظ الطاقات، وتحريض الخواطر، تحتاج إلى التركيز، وتعبئة الوعي، وتوجيهه، أم هي تحتاج إلى النسيان، والاسترخاء، والتجرّد؟

– **غيتّون:** إنّها تحتاج إلى كليهما، نظير المحرّكات العاملة بالمكابس، والتي تحتاج إلى ضغطٍ يليه استرخاءٌ. فالتنبّه وحده يولّد انقباضًا وتشنّجًا، إذا ما طال أمدهما، أصابا الزخم الخلاّق بالعقم. فلا بدّ

(١) شارل پيغي (١٨٧٣ – ١٩١٤) كاتبٌ وشاعرٌ فرنسيٌّ من روّاد النهضة الروحيّة في القرن العشرين.

من تخطّي تشنّج التنبّه، الحافل بالتراجع، والإعادة، وإعمال الفكر، والسخط، والذي يعبّر عن حبّ الذات.

– **أَنتييه**: ما يدهشني هو أنّ الجواب ثاوٍ في داخلنا، والإلهام يكمن في كوكبةٍ من الخلايا العصبيّة. فكيف نفجّره، وقد نضج مثل ثمرةٍ جميلةٍ؟ فهل القضيّة، هي، في المقام الأوّل، قضيّة ذاكرة؟

– **غيتّون**: ليست قضيّة ذاكرةٍ فحسب، بل هي، أيضًا، قضيّة منهجٍ. فقد تكون الذاكرة عائقًا، إذ يزدحم فيها الكثير من النُطَف التي تودّ بلوغ غايتها. الطبيعة والحياة يعملان عبر مراحل سباتٍ طويلةٍ تليها تفجّراتٌ. وليست الذاكرة هي العامل الوحيد، فالذهن ليس نظامًا مغلقًا.

– **أَنتييه**: الذهن، إذن، هو أكثر من حاسوبٍ، وهو يعمل مثل جهاز راديو، مشرعٍ على كلّ أصوات الكون. إنّه آليّةٌ حيّةٌ ينبغي ترويضها، وإيقاظها برفقٍ. فما هو أسلوبك؟

– **غيتّون**: أن يكون تفكيري حميمًا، ولكن غير ممعنٍ في الوعي. أريده أن يواكبني على ألاّ يعيقني، مثلما يواكب الفكرُ الكلام في مسار الحديث. بيد أنّه ينبغي إشباع الموضوع تفكيرًا، بعنادٍ، وبجهدٍ لا يني يتكرّر، وبما كان يدعوه «جوبير» اجترارًا، أو إعادة مضغٍ. وهو، أيضًا، الالتزام بالصمت، والتركيز، واقتطاف المحرّضات المختلفة، واعتصارها في الذات، مثل بذرةٍ قاسيةٍ. ثمّ إفساح فرصةٍ للنضج، كما يفعل الرسّام والشاعر. فالرسم والكتابة هما، أوّلاً، إطالة التأمّل في الموضوع أو في الشخص، وفي الآن عينه لجم الرغبة في التصوير أو التدوين، حتّى اللحظة التي ينبثق الرسم، واللون، والنصّ من داخلك، ولكأنّه يفاجئك.

– **أَنتييه**: كلّ عملٍ، سواءٌ كان ذهنيًّا أو يدويًّا، يقتضي تركيزًا فكريًّا، كي يبلغ الكمالَ. وهذا ما لا يُدرّس للأولاد في المدارس.

– **غيتّون:** كلّ عملٍ يقتضي تركيزًا فكريًّا مُحكمًا، ويستلزم نسيانًا مؤقّتًا لكلّ ما لا يمتّ إلى موضوع التفكير بصلةٍ، وجهدًا متّصلاً، وشجاعةً. ولكن كلّ جهد انتباهٍ كثيفٍ، يفضي بنا إلى الانكماش، والتوتّر، ويضعضع جانبًا من توازننا.

– **أَنتييه:** إنّه يولّد تعبًا، في مضمارٍ أو في آخر. كان الشاعر «رانبو» يقول: «اليد التي ترتدي الريش، تساوي اليد التي تقود المحراث». الإِفراط في التركيز يؤدّي إلى تعبٍ دماغيٍّ. فما العمل؟

– **غيتّون:** الاسترخاء. فبفضل تناوب الاسترخاء والتركيز، يتحقّق الالتحام الأمثل بالفكرة. ولكن كم يصعب على الدماغ الثقيل أن يمارس دقيقة تخلٍّ تامٍّ عن الإرادة، والمعرفة، والعمل! ولذلك فالتركيز السليم على عملٍ، أيًّا كان، هو فضيلةٌ.

– **أَنتييه:** وأيّ فرحٍ عندما تتوافق النتيجة مع التوقّع، أو تتخطّاه!

الشجاعة

تحت هذا العنوان تتجمَّع ثلاث فضائل: الشجاعة، والقوّة (القوّة الأدبيّة)، والتضحية (البطولة)

مرادفاتٌ: بسالةٌ، جرأةٌ، إقدامٌ، ثباتٌ، كمالٌ، قداسةٌ.

أضدادٌ: جبنٌ، رعدةٌ، ضعفٌ، صغارةٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ:

- «لا يصبح المرء رجلاً إلاّ بتخطّيه ذاته». (أرسطو)[١]

- «من شأن الشجاعة وحدها تنظيم الحياة». (ڤوڤينارغ (Vauvenargues)[٢]

- «أيّها الولد تعلّم منّي الشجاعة، والعمل الحقّ. وعلى آخرين أن يعلّموك السعادة». (ڤيرجيليُس)[٣]

تعريف: في اللغات اللاتينيّة لفظة الشجاعة (courage) مشتقّة من لفظة القلب (coeur) أو (cuor). وكان يقال: «هل لديك قلبٌ؟» أي «هل لديك شجاعةٌ؟» فالشجاعة تُستمدّ من القلب أكثر ممّا تُستمدّ من العقل، وهي، في المقام الأوّل، سخاءٌ؛ ويمكن القول إنّها أساس كلّ الفضائل، وينبغي عيشها كلّ يومٍ. إنّها صراعٌ دائمٌ يخوضه الإنسان، لا في عمله فحسب، وفي حياته الأسرويّة، والاجتماعيّة، بل، أيضًا، في حياته الداخليّة، حيث عليه مصارعة أهوائه، ونزوعه إلى الكسل والتواني.

---

(١) أو أَرسطاطاليس (٣٨٤–٣٢٢ ق.م) فيلسوفٌ يونانيٌّ من كبار مفكّري البشريّة.

(٢) ڤوڤينارغ (١٧١٥– ١٧٤٧): كاتبٌ ومفكّرٌ فرنسيّ. اشتهر بحِكَمه.

(٣) ڤيرجيليُس (٧١– ١٩ ق. م) أعظم الشعراء الرومانيّين.

هي، إذن، قوّةٌ حقّةٌ، قوّة النفس، قوّةٌ أخلاقيّةٌ، إحدى الفضائل الأربع الكبرى، بل هي «شرط كلّ فضيلةٍ» كما يؤكّد «توما الأكوينيّ»[(١)]. إنّها طاقة عملٍ، جسديًّا، وأدبيًّا، وسببٌ فاعلٌ يؤتي نتيجةً. والشجاعة التي نعنيها، هنا، هي طاقةٌ أخلاقيّةٌ، مقترنةٌ بالعقل، والعمل، والحبّ. إنّها قدرة الفكر والقلب المرتبطة بسرّ الحياة، ويُعبّر عنها بالجرأة التي تدفع إلى الحياة رغم ألف عائقٍ، وأحيانًا تكون مفارقةً وتدفع إلى الموت، وبذل الحياة.

التعليم المسيحيّ الجديد يحدّد القوّة الأخلاقيّة، على النحو التالي: «إنّها تضمن الصمود في وجه المصاعب، والمثابرة في التماس الخير. إنّها تثبّت العزم على مقاومة تجارب الاستسلام والتراخي الوبيلة، وعلى تخطّي العوائق. إنّها تمكّن من التغلّب حتّى على خشية الموت، ومن التصدّي للمِحَن والاضطهادات، حتّى التضحية بالحياة، في سبيل قضيّةٍ عادلةٍ».

وإن كانت الشجاعة هي فضيلة المحارب، فهي، أيضًا، فضيلة السياسيّين، عندما يتعيّن عليهم إلقاء السلاح. فحينئذٍ يتطلّب إقرار السلام شجاعةً قصوى.

حوارٌ

– **أنتيه**: قبل بلوغها مستوى الكمال، يمكن تعريف الشجاعة، وهي ثمرة القوّة الأدبيّة، بأنّها طاقةٌ أخلاقيّةٌ تدفع إلى مواجهة الصعاب، والمِحَن، والمخاطر، عوضًا عن الهروب منها.

– **غيتّون**: أجل. وقد قال «لوسِنّ» (Le Senne): «الشجاعة هي فضيلة الإنسان المهدّد، والذي يحاصره خطرٌ داهمٌ». الشجاعة هي سيطرةٌ واعيةٌ على الخوف، لدى الأحياء، حتّى الضعفاء منهم، في مواجهة غريزة البقاء التي تدفعهم إلى الهروب، عندما يستسلمون

(١) توما الأكوينيّ (١٢٢٥– ١٢٧٤) راهبٌ دومينيكانيٌّ وقدّيسٌ. معلّم الكنيسة

للذعر. وقد قال «ألان» (Alain): «الشجاعة هي سبيل الخروج من الخوف». هي المواجهة بدلاً من الخضوع.

– **أنتييه:** إنّ «جانكيليڤتش» يمضي إلى أبعد من ذلك، عندما يؤكّد أنّ الشجاعة التي تعاكس الغرائز تزوّدنا بطبيعةٍ فائقةٍ. وينتهي بهذه الملاحظة المدهشة: «تخضع الشجاعة لدعوة الروح، وهي دعوة حرّيّةٍ». فهل الخوف شرطٌ للشجاعة؟

– **غيتّون:** في البدء ينبغي ألاّ يكون المرء شجاعًا، وأن يخاف، ثمّ أن يجسر على المواجهة. وهذا يذكّرنا بشعر «راسين»[(١)]: «وفي الأجساد الواهنة تشتعل شجاعةٌ كبرى». من لا عهد له بالخوف، ليس شجاعًا، بل هو أعمى، أو في أحسن الحالات لا مبالٍ، ومتهوّرٌ. إذن، الخوف المعترف به والمسيطَر عليه، هو أساس الشجاعة. ولذلك، في مواجهة المِحَن، ومصاعب الحياة، والرِيَب، تبرز شجاعة الودعاء، والضعفاء، والنساء. ولا نغفلنّ، أيضًا، شجاعة من يُسحقون، ومع ذلك يأبون الاستسلام.

– **أنتييه:** هل الشجاعة فضيلةٌ أم لا؟

– **غيتّون:** إنّها فضيلةٌ كاملةٌ عندما تقترن بالتضحية والمحبّة. وهي فضيلةٌ جزئيّةٌ إن هي سُخّرت لخدمة الذات. وبصفتها قوّةً، يمكن استخدامها للخير وللشرّ على السواء، شأنها شأن الطاقة الذرّيّة، التي قد تُستخدم لأغراض الحرب أو لأغراض السلم. لا شيء يُعدّ فضيلةً إن لم يكن في خدمة الخير. يقول أرسطو: «الشجعان الحقيقيّون لا يعملون إلاّ حبًّا بالخير». وإلاّ لما كانت الشجاعة سوى صفةٍ نفسيّةٍ،

---

(١) جان راسين (Racine) (١٦٣٩– ١٦٩٩): شاعرٌ ومسرحيٌّ فرنسيٌّ، وركنٌ من أركان الأدب الكلاسيكيّ في القرن السابع عشر.

(٢) ڤولتير (Voltaire) (١٧٦٥– ١٨١٥): أديبٌ ومفكّرٌ، وناقدٌ فرنسيٌّ من أعلام

لا قيمة أخلاقيّةً لها. وبهذا المعنى قال ڤولتير[٢]: «ليست الشجاعة فضيلةً، بل هي صفةٌ يشترك فيها الأشرار والعظماء». الدافع، إذن، هو الذي يصنع الفضيلة أو ينفيها.

– **أنتييه:** يقول «جانكيليڤتش» إنّ الشجاعة ليست فضيلةً في ذاتها، بقدر ما هي شرطٌ لتحقيق الفضائل الأُخرى.

– **غيتّون:** هذه نقطةٌ أساسيّةٌ. فالفيلسوف يلاحظ: «إنّ الشجاعة هي فرح جميع الفضائل، وكلّ فضيلةٍ تبلغ غايتها ولا تُجهض. إنّها عنصر النجاح الكامن في كلّ فضيلةٍ، والذي يجعل الفضائل الأخرى مجديةً وفاعلةً». إنّ كلّ فضيلةٍ شجاعةٌ. فلا يسع أيّ امرئٍ أن يكون فاضلاً إن لم يكن شجاعًا، وإلاّ يتعذّر عليه مقاومة السوء والشرّ، في الذات، ولدى الخصم.

– **أنتييه:** بالمقابل الفضائل تنمّي الشجاعة، وتهبها الثبات والديمومة.

– **غيتّون:** ففي الواقع امتلاك الشجاعة يقتضي الإرادة، والقوّة، والتعقّل، أي بالإجمال، الفضيلة. والشجاعة الأدبيّة تستلزم طاقةً خُلقيّةً دائمةً، تحمل على التصريح بما يؤمن به الإنسان، وعلى الدفاع عنه، حتّى إن اضطرّ إلى المخاطرة بحياته وبحرّيّته. والثبات على ذلك يقتضي الحنكة والتجربة. وقد يقتضي أيضًا (كما هي الحال في الحرب) السخط والحقد، وهما مخالفان للفضيلة. وهذا يُظهر تعقيد هذا الشعور، الذي لا يصبح فضيلةً ساميةً إلاّ إذا تحوّل إلى بذلٍ للذات.

– **أنتييه:** من صفات الشجاعة، أيضًا، أنّها لا تُكتسَب على نحوٍ نهائيٍّ.

– **غيتّون:** لا بدّ من استنفارها باستمرارٍ، فالخوف المكبوت يظلّ متربّصًا.

– **أَنتيبه:** بل إن «جانكيليفتش» يتحدّث عن «الهزيمة الدائمة التي تحلّ بالجسد المعرّض للخوف».

– **غيتّون:** ثمّة نمطان من الشجاعة، شجاعة الإقدام، وشجاعة الثبات والمثابرة، وهي استعادةٌ للشجاعة وامتدادٌ لها. وهي، حينئذٍ جَلَدٌ، واستمرارٌ.

– **أَنتيبه:** أمّ كلّ الشجاعات هي مواجهة الألم الجسديّ والأدبيّ.

– **غيتّون:** بالشجاعة يحرّر الإنسان المتألّم نفسه من ذاته، وكأنّ الأمر لا يتعلّق به. وهو يتخلّى عن ذاته عندما يضحّي بجسده، ويرتضي الموت.

– **أَنتيبه:** ما الفرق بين الشجاعة والجسارة؟

– **غيتّون:** لقد أجاب أرسطو على هذا السؤال بقوله: «الشجاعة تقيم توازنًا بين الأخطار المرتقبة، والغاية المنشودة. وهي تقف في منزلة الوسط بين أقصَيَيْن هما الجبن والتهوّر». فالشجاعة تستلزم تفكيرًا واعيًا. أمّا التهوّر فلا يتبيّن شيئًا، ويقدم على مخاطراتٍ نافلةٍ.

– **أَنتيبه:** بين التهوّر والبطولة خطوةٌ واحدةٌ. فهل الجسارة فضيلةٌ، بكلّ نقائها، إذ إنّها متحرّرةٌ من حبّ الذات؟

– **غيتّون:** البطل اليونانيّ هو الإنسان المؤلّه، نصف إلهٍ. وهو، وفقًا للتعريف الشعبيّ، من يتميّز بأعمالٍ خارقةٍ، حتّى بذل حياته في سبيل غايةٍ نبيلةٍ. إنّه يُمثّل أقصى الشجاعة، الشجاعة المتحرّرة من خوف الموت، والمنزّهة من كلّ مصلحةٍ شخصيّةٍ.

– **أَنتيبه:** تقليديًّا البطولة هي فضيلة المحاربين، على أن تكون منعتقةً من البغض، إذ إنّ العنف يتطهّر ببذل الذات، وبالتضحية، وهي الشجاعة القصوى. «جانكيليفتش» يصف الشجاعة بأنّها «الجنون

الإلهيّ، كالحبّ». وبهذا المعنى يضيف أنّ «الشجاعة ليست حكمةً، بل هي، بالحريّ، جنونٌ ينفي الحكمة». إنّها جنونٌ لأنّها تستعيض عن التفكير بالعمل. فمن شأن التفكير لجم الشجاعة بتجسيمه المخاطر.

– **غيتّون:** الفرق بين الجرأة والبطولة هو أنّ البطولة تقتضي تضحيةً بالحياة مجرّدةً من كلّ غايةٍ. في ساحة الوغى أو في ميدان الحياة، البطل هو من يعرّض نفسه، مع أنّ بوسعه البقاء في أمانٍ؛ هو من يبادر إلى إنقاذ رفيقٍ جريحٍ، هو الذي يرفض تسليم رفاقه حتّى تحت التعذيب والتهديد بالقتل؛ وهذا ما يذكّرنا بأبطال المقاومة تحت الاحتلال النازيّ.

بطلةٌ أيضًا هي الأمّ التي تضحّي بذاتها في سبيل ابنٍ لها مريضٍ، أو معاقٍ إعاقةً سحيقةً؛ والممرّضة التي تعرّض ذاتها بخدمتها مرضى يحملون داءً معديًا؛ وبطوليٌّ هو عمل من يتطوّعون لإنقاذ الجرحى في بلادٍ تحتدم فيها الحروب، والمنقذون في البحار، إلخ...

– **أَنتييه:** أليس، في البطولة، صيغة الشجاعة القصوى، شيءٌ من المغالاة؟ فهي تنطوي على فيضٍ من الحيويّة التي تنصبّ، تلقائيًّا، على نقطةٍ محدّدةٍ، انصبابًا شبه خالٍ من التفكير، فالبطل الحقّ ليس «عاقلاً»، إذ إنّه قادرٌ على نسيان ذاته، بلجمه أكثر غرائزه حيويّةً.

– **غيتّون:** لكي يكون المرء عاقلاً بالكامل، عليه أن يتخطّى العقل. وكلّ عملٍ بطوليٍّ يضع الحياة في الميزان مقابل التفكير بأنّ هناك أسبابًا للحياة أغلى من الحياة نفسها. لقد شاع الحديث عن هزيمة ١٩٤٠. ولكن كان، ثمّة، أعمالٌ بطوليّةٌ، وإنّي أؤكّد أَنّها كانت واعيةً.

– **أَنتييه:** هل لديك، على ذلك، مثالٌ؟

– **غيتّون:** في **٢٢** أيّار **١٩٤٠**، حوصرت وحدةٌ من فوج المطاردة

الراجلة العاشرة في «بلارينيي» (Blaregnies)، حيث كانت محاطةً بقوًى ألمانيّةٍ ساحقةٍ، وقد ردّت، مدى أربع ساعاتٍ، هجماتٍ شعواء شنّتها عليها كتيبةٌ كاملةٌ. ولما نفدت لديها الذخيرة، أبت الاستسلام، وانقضّت على العدوّ، فكبّدته خسائر باهظةً، قبل أن تؤسر. وقد قُتِلَ أو أُصيبَ ثلاثة أرباع ضبّاطها. وقد روى لي قائد السريّة أنّهم، مع فقدانهم كلّ أملٍ في النجاة، هجموا، وقد شكّوا الرماح في أفواه البنادق. لم يكن الاندفاع هو الذي يحدوهم، بل السكينة، وبساطة التضحية الكاملة والعذبة.

ولا بدّ من التنويه بأنّ البطولة هي فضيلةٌ متوفّرةٌ في جميع الحضارات، لا بل هي ثاويةٌ في أساس هذه الحضارات. إنّها الأسطورة المؤسِّسة للأبطال والقدّيسين. إنّها، بالإجمال، فكرة الكمال المتجذّرة في القلب البشريّ وقد تحوّلت فعلاً.

– **أَنتييه:** الكمال هو الله.

– **غيتّون:** ولذلك البطولة هي ضربٌ من الصوفيّة. «هبْ دمك، وتلقَّ الروح». بها يرتقي الإنسان فوق ذاته لصالح عملٍ عظيمٍ. استفسرتُ، يومًا، بطلاً عن البطولة، فقال: «إنّها ضربٌ من حالةٍ أُخرى». كان قد حقّق الكثير من الأعمال الباهرة، وشهدتُه يعود إلى بيته، عاجزًا عن التزام الصبر والحكمة. وكان من شأن «ستاندال» أن يقول عنه: «ليس جريئًا إلاّ في القتال». وبالتالي ليست البطولة فضيلةً رئيسيّةً كالقوّة.

– **أَنتييه:** كيف تفسّرها، إذن؟

– **غيتّون:** أنا لا أُفسّرها، فحسبُ تداعيات ظروفٍ أن تجعل بطلاً من أيّ إنسانٍ غارقٍ في جحيم ساحات ڤردان، أو بير حكيم، أو ستالينغراد.

– **أَنتييه:** البطولة هي استنفارٌ لطاقاتٍ مجهولةٍ، وهي معديةٌ. القائد الشابّ يضحّي بنفسه، وينقضّ إلى الأمام، ويقع تحت الرصاص، جارًّا فريقه في إثره. وبالمقابل، هناك عدوى جبنٍ، عندما يعلن القائد: «فلينجُ بنفسه من يستطيع إلى النجاة سبيلاً»! وما يدهشني في البطولة هو أنّها، إن كانت تتعلّق بكائنٍ متميّزٍ، فهي ميلٌ طبيعيٌّ يتحقّق، أمّا عندما هي تتعلّق بأيّ إنسانٍ، فهي ضربٌ من التحوّل.

– **غيتّون:** إنّني أُحبّ هذا التشبيه. ولطالما أعملت الفكر في شأن الجنديّة.

نحن أمام كائنٍ عاديٍّ، غالبًا ما يتّصف بالفظاظة، والغباء، والعند، والتمرّد، والمشاكسة، انتُزع من بيئته، وحُصر في ثكنةٍ، وجُعِلَ منه جنديٌّ، أي إنسانٌ قادرٌ على العيش بلا قنوطٍ، طيلة أشهرٍ، أو سنواتٍ، في سيلٍ من النار والحمأة، ومع ذلك لا يتخاذل، مع أنّ بوسعه أن يتمرّد، أو أن يشوّه ذاته، أو أن ينتحر. فما الذي يجعل من السهل الحصول على البطولة، وعلى ما يفوق قدرات البشر، من أشخاصٍ عاديّين، هم، في الحياة العاديّة، رديئون، سكّيرون، متمرّدون، كسالى، منكفئون على ذواتهم، عاجزون عن تحمّل زوجةٍ أو زميل؟

– **أَنتييه:** هل هو النظام؟

– **غيتّون:** لم يُنتج النظام، يومًا، أبطالاً.

– **أَنتييه:** أهي أُخوّة السلاح؟ أم هو تقدير الرؤساء الذي يبادرون إلى ضرب المثل؟

– **غيتّون:** ربّما. وقد يكون السبب مخافة الخزي، وإدانة الزوجة أو الآباء الذين قد يكونون، هم أنفسهم، من أبطال الحرب السابقة. ثمّة سرٌّ، في تحوّل إنسانٍ مسكينٍ إلى رجلٍ شجاعٍ، وأحيانًا إلى

بطلٍ، وهذا يبرز صورةً رفيعةً للطبيعة البشريّة.

– **أنتيه:** هذا العبور من الكلّيّ إلى اللاشيء يبدو لي من أكبر أسرار الطبيعة البشريّة. وقد تكون الدوافع هي التفسير. فلا بطل إلاّ من أجل قضيّةٍ عادلةٍ مهدّدةٍ، أو بسبب خطرٍ داهمٍ يتحتّم درؤه. وهنا يخطر ببالي شعار رجال الإطفاء: «الإنقاذ أو الموت»، الذي يُلزم هيئةً بكاملها.

– **غيتّون:** في ما يتخطّى الهيئات المدنيّة أو العسكريّة، هناك حالات بطولةٍ فرديّةٍ لا تحصى، وهي غالبًا سرّيّةٌ مُغفلةٌ، كحالة من يقذف بنفسه إلى الماء أو إلى النار من أجل إنقاذ حياةٍ بشريّةٍ مجهولةٍ. بيد أنّ البطولة الأسمى طهرًا، هي التي تتحقّق كلّ يومٍ، مدى حياةٍ كاملةٍ، بطولة ربّات بيوتٍ يخضن أحوالاً صعبةً، وحالات مرضى يُظهرون شجاعةً مثاليّةً، لكيلا يكونوا عبئًا على محيطهم.

– **أنتيه:** ما العمل كي نعطي قوّةً لمن لا يملكونها، ولا سيّما للشباب الذين سيتعيّن عليهم، ذات يومٍ، مواجهة وقائع الحياة؟

– **غيتّون:** أقصى المقتضيات هي التي تهب القوّة الحقّة. وإن كانت الشبيبة محبطةً، فلأنّه لا يُطلب منها الكثير. وأقسى المعلّمين هم الذين، في فترة الدراسة، يوفّرون خير عونٍ، وكذلك هو شأن الآباء الذين يعلّمون أبناءهم قهر الصعاب عوضًا عن تفاديها.

– **أنتيه:** وهذا ما، غالبًا، يُنسى.

– **غيتّون:** في ما يخصُّني، حسبي أن أتبيّن ثغرات المعرفة لديّ، كي أتحقّق أنّني لم أتقدّم، في الحياة، إلاّ في الموادّ التي درّسني إيّاها أساتذةٌ محبوبون ومخيفون، في آنٍ واحدٍ.

– **أنتيه:** وماذا عن القدّيسين؟ فنحن لم نتحدّث عنهم. ولنبدأ بتعريف القداسة.

التجرّد

مرادفاتٌ: الزهد، التخلّي، الاستسلام لله، البساطة.

أضدادٌ: تشبُّثٌ، جشعٌ، بخلٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «تلقٍّ بلا كبرياء، وفقدانٌ بلا تمزّقٍ».

«إذا استطعت أن تشهد انهيار ما قضيت، في بنائه، العمر كلّه، فلم تنبُسْ بكلمةٍ، بل أكببت على إعادة البناء... ستصبح رجلاً، يا بنيّ». (كيپلينغ)

تعريفٌ التجرّد هو التخلّي الطوعيّ عن كلّ ما يقيّد الإنسان من غير ضرورةٍ، في سبيل خيرٍ، أدبيٍّ، و(أو) روحيٍّ.

إنّه توجّه الروح السرّيّ الذي يحدو المرء إلى الزهد في كلّ ما هو سطحيٌّ، باطلٌ، ظاهريٌّ، بدءًا بالذات الأنانيّة، الطاغية، المتعطّشة، خاصّةً، إلى «النجاح في الحياة»، في سبيل الانصراف إلى قِيَمٍ عليا، نحن مدعوّون إليها.

حوارٌ

– **غيتّون:** الامتلاك يُفقر. من لا يملك شيئًا يحقّق كيانه، وينعم بالحرّيّة. كان لدى ليندبرغ[1] كلّ شيءٍ: الثروة والمجد. ولكنّه اعترف أخيرًا: «بقدر ما يتضاءل امتلاكنا، تغتني حياتنا». وقد أدركت ذلك فئةٌ من الشبّان الذين يفكّرون، ويأبون أن يُفكَّر عنهم.

– **أنتيه:** أنت الذي تجرّد عن كلّ شيءٍ ما خلا الأبديّة، أيُّ نصحٍ

(١) تشارلز ليندبرغ (١٩٠٢– ١٩٧٤): طيّارٌ أميركيٌّ. هو أوّل من قطع المسافة بين نيويورك وباريس، بالطائرة، بلا توقّف، عام ١٩٢٧.

تسديه للمالكين؟

– **غيتّون:** هل أنتم مالكون؟ وما معنى ذلك؟ في هذا المساء، أو غدًا، سيسلبكم الموت «ملككم». التملّك، إذن، هو في غاية النسبيّة، وينبغي التخلّي عنه. ومن يعجزون عن هذا التخلّي إنّما هم أغنياء زائفون، إذ إنّهم لا يملكون الثروة الداخليّة، أي الثروة الوحيدة الباقية.

– **أَنتييه:** كيف تتعرّف التجرّد الحقّ؟

– **غيتّون:** بثمرته الفوريّة، وهي فضيلة الشفافيّة. فعندما لا تعود تبهرني أنوار مهرجان العالم، يضجّ الظلّ في مغارتي الداخليّة، وحينئذٍ أجد فيها آخر، يدعوه المسيحيّون الله. وينعقد بيني وبينه تواطؤٌ سرّيٌّ. وأشعر أنّه يهتمّ بي، لا لكي يفسدني بالسعادة، بل، على نقيض ذلك، لكي يدعمني، ويرقى بي، وينمّيني، بالمصاعب التي يوفّرها لي بمقدار قدرتي على الاحتمال والمواجهة، وبدعوته لي إلى التحرّر من كلّ ثانويٍّ. وعندما أُعمل الفكر في العلاقة بين هذه الأحداث وصلواتي أتبيّن أنّ حضور الكائن الأسمى يكتسب كثافةً بمقدار ما أتجرّد، وأُنكر ذاتي، وأجهد في نسيانها. ينبغي، إذن، الجهد من أجل بلوغ تجرّدٍ كاملٍ. وعندما يتحقّق فقدان الذات، ويواكبه الفرح، نكون، حينئذٍ، قد سيطرنا على الأشياء... هذا «الفقر» هو الذي يغنينا. الزهد هو الذي يحرّرنا. والتجرّد هو الذي يهب القوّة. وإنّني لأرى في ذلك دليلاً فريدًا على وجود الله. غير أنّ التجرّد ليس بكافٍ، بل لا بدّ له من أن يفضي إلى بذل الذات.

– **أَنتييه:** في الإنجيل عبارةٌ بالغة العمق توجز ذلك، عندما يقول يسوع: «أُنشدوا ملكوت الله وبرّه، وكلّ ما سوى ذلك يُضاف لكم». آلاف الرهبان والراهبات العاملين في ميدان الرسالة، الذين زهدوا في حطام الدنيا وآثروا البساطة، وانغمسوا في بؤس الفقراء، ممارسين

المحبّة، والذين لن يذيع لهم، يومًا، اسمٌ، قد حقّقوا هذا المثل الأسمى. ولكنّهم ليسوا وحيدين في هذا المضمار.

– **غيتّون:** بالتأكيد، فالتجرّد هو شأن الجميع.

– **أَنتييه:** ولكن ما السبيل إليه، واقعيًّا؟

– **غيتّون:** الخطوة الأولى هي تطهير الذات، وجعلها أوفر انعتاقًا، ورشاقةً، وتحطيمًا لقيودها، وأن نكون، في روح التجرّد والصبوّ إليه، ما سنكونه في الغد، وما كنّاه دائمًا، وكما يقول الشاعر «مالارميه»: «مثلما سنصبح عندما تغيّرنا الأبديّة، أخيرًا».

ثمّة أمرٌ محقّقٌ، وهو أنّ الإنسان لا يملك إلاّ ما زهد فيه. كنت أشكو، ذات يومٍ، من عدم قدرتي على النوم، فنصحني ناسكٌ: «تخلَّ عن النوم!» وفي الواقع، ما إن اعتزمت التخلّي عن النوم، حتّى استسلمت للكرى. ولمن يبتغي المضيّ إلى أبعد من ذلك، أقول: لكي نكون، حقًّا، أحرارًا، علينا دائمًا، في مسيرة حياتنا اليوميّة، أن نهتمّ بالأشياء ولا نرتبط بها. علينا أن نبذل أقصى جهودنا، وألاّ يساورنا، على النتائج، قلقٌ.

– **أَنتييه:** كيف لنا أن نحبّ ما يوفّره لنا العالم من مجالي الجمال، ونزهد فيه؟

– **غيتّون:** علينا، في آنٍ واحدٍ، أن نتجرّد من كلّ شيءٍ، ونتّحد بكلّ شيءٍ. وليس في الأمر مفارقةٌ. سرّ الوجود الذي لا يوصف كامنٌ في تعانق هاتين النزعتين الروحيّتين، هذين الخيطين اللّذيْن يكوّنان نسيجنا اليوميّ المألوف والسامي. وقبل كلّ شيءٍ التجرّد هو بساطة.

– **أَنتييه:** يخطر ببالي قول «جونغ» (Jung): «لكانت المهمّة بسيطةً، لو لم تكن البساطة أصعب ما يمكن تحقيقه».

– **غيتّون:** أجل: التجرّد بساطةٌ. ولكنّ هذا ليس بكافٍ، فالتجرّد الكامل يقتضي التخلّي عن كلّ شيءٍ، وهو يعني «روح الفقر» الذي كان القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، والقدّيس برنار، وشارل دي فوكو، كَلِفين به.

– **أَنتيه:** ولكن إلى أين يمتدّ ذلك؟

– **غيتّون:** كان «ديوجينُس»[1] قد قرّر، بدافع التجرّد، تناول طعامه في قصعةٍ من خشبٍ. ولحظ، يومًا، ولدًا يشرب ماء نبعٍ في قعر يده. فكسر القصعة الخشبيّة، وقال: «لقد علّمني هذا الولد أنّني أحتفظ بما لا حاجة إليه». هذا هو التجرّد في صيغته القصوى. إنّ روح الفقر لا حدود له، فكلّ فقيرٍ قد يعثر، يومًا، على من هو أفقر منه.

– **أَنتيه:** لغويًّا الفقر هو حالة الحرمان من الضروريّ. ولكنّ «روح الفقر» هو غير ذلك. إنّه الزهد في حطام هذا العالم لصالح قِيَمٍ روحيّةٍ وإنسانيّةٍ. وهكذا يتحوّل الفقر إلى غنًى. وقد أعلن يسوع: «طوبى للفقراء بالروح، فملكوت السماوات لهم». ولكن هل يقتصر الأمر على روح الفقر؟ لقد كان يسوع واضحًا في ردّه على استفسار الشابّ الغنيّ: «ما السبيل إلى الكمال؟»، إذ قال له: «امضِ فبعْ كلّ ممتلكاتك، وأعطِ المال للفقراء، وتعالَ اتبعني».

– **غيتّون:** إنّه فقرٌ جذريٌّ، مقتصرٌ على من ينشدون الكمال، عن طريق النسك والتقشّف. وهو استثنائيّ.

– **أَنتيه:** ولكنّ المسيح أعلن بوضوح: «ما أصعب على الأغنياء دخول ملكوت السماوات!»

---

(١) ديوجينُس الكلبيّ (٤١٣–٣٢٧ ق.م) فيلسوفٌ يونانيٌّ، ازدرى الغنى والتقاليد، وقضى حياته في برميلٍ.

– **غيتّون:** أي ملكوت البساطة التي تمكّن من «مشاهدة الله»، والتي تنطوي على تجربةٍ حافلةٍ بالغنى الروحيّ. ثمّة تجرّدٌ من كلّ ما ليس جوهريًّا، وقد خَبَرتُه في مُعتَقلٍ بألمانيا بين **١٩٤٠** و**١٩٤٥**. وكيف للمرء أن يفهم الفقراء الحقيقيّين ويحبّهم، إن لم يكن، هو نفسه، فقيرًا، ذات يومٍ.

– **أَنتييه:** في عالم الغد هل سيكون تقشّف الأغنياء محتّمًا من أجل إتاحة البقاء للفقراء؟

– **غيتّون:** لا يُطلب من الأغنياء أن يتقشّفوا، بل أن يمارسوا القناعة والاعتدال، وأن يشاركوا الآخرين بمالهم. إنّ العالم واحدٌ. والعدل والحبّ يستلزمان التضامن، وتوزيع الحرمان توزيعًا عادلاً. والمرغوب هو، أقلّه، عودةٌ إلى مزيدٍ من بساطة العيش. وقد تجعل الحاجة ذلك ضروريًّا. ولكن من الأفضل أن يتمّ طوعًا.

من المحقّق أنّ لا رغبة للناس في الفقر. غير أنّهم يُعجبون بضربٍ من الفقر الطوعيّ، خالٍ من الرياء، ويتميّز بإعطائه كلّ شيءٍ، كما فعل «شارل دي فوكو» الذي كرّس نفسه لفقراء الصحراء الجزائريّة، والأمّ تيريزا التي وقفت حياتها على خدمة فقراء كلكتّا. إعجاب الناس بأمثال هؤلاء هو خطوةٌ أولى صوب روح الفقر المفضي إلى تجرّدٍ حقٍّ، ومن شأنه التأثير، وتحويل النفوس.

– **أَنتييه:** إنّه لمن العسير أن يبلغ الإنسان روح الفقر الحقّ!

– **غيتّون:** الكمال هو دائمًا عسير المنال. إنّما الجوهريّ هو الدخول في روح الكمال، والتجرّد يساعد عليه. ولا بدّ من البدء بالبساطة، فهي كفيلةٌ بجعل المشاركة أشدّ يُسرًا.

– **أَنتييه:** ولا سيّما إذا دعم كلّ ذلك روح الحبّ. ففي الواقع، الأغنياء الوحيدون، في هذه الدنيا، هم من يحبّون.

الوداعة

مرادفاتٌ: دماثةٌ، حِلمٌ، عذوبةٌ، رقّةٌ، عطفٌ، تعاطفٌ.

أضدادٌ: قسوةٌ، فظاظةٌ، حدَّةٌ، صرامةٌ، تزمّتٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «الرقّة أجدى من العنف». (لا فونتين)[1]

«طوبى للودعاء، فهم سيرثون الأرض». (يسوع في متّى ٥: ٥)

«الوداعة هي أولى القوى، وربّما أولى الفضائل». (تيلار دي شاردان)[2]

تعريفٌ: الوداعة خصلةٌ نفسيّةٌ تؤهّل لتقبّل كلّ شيءٍ بهدوءٍ تلهمه الطيبة. إنّها تدفع إلى المسامحة وتجتذب المودّة. على غرار الحبّ، هي خصلةٌ خاصّةٌ بالمرأة. ولا ريب أنّ ذلك يعود إلى وظيفة الأمومة، التي على مدى القرون، جعلت من الرقّة شرطًا لبقاء الوليد. وقد قال «ألبير كامو»[3]: «رقّة المرأة هي كلّ إيمانها».

الوداعة تتعارض، سلميًّا، مع القسوة، والعنف، والبغض، وهنا، أيضًا، يتّضح أنّ كلّ الجرائم الدمويّة تقريبًا (ما خلا قتل الأجنّة) يرتكبها رجالٌ.

المفكّر «أندريه كونت سبونقيل» يحدّد الوداعة بأنّها «شجاعةٌ بلا عنفٍ، وقوّةٌ بلا قسوةٍ، وحبٌّ بلا غضبٍ، والسلام الداخليّ الوحيد الذي

---

(١) لافونتين (La Fontaine) (١٧٤٣– ١٧٩٤) شاعرٌ فرنسيٌّ، اشتهر بكتاب «الأمثال» وهي قصصٌ خياليّةٌ، أبطالها حيوانات، وكلّ قصّةٍ تعلّم حكمةً.

(٢) تيلار دي شاردان (Teilhard de Chardin) كاهنٌ وعالمٌ وفيلسوفٌ فرنسيٌّ (١٨٨١– ١٩٥٥). كان له تأثيرٌ بالغٌ على مفكّري جيله.

(٣) Camus (١٩١٣– ١٩٦٠) أديبٌ فرنسيٌّ. عبّر عن القلق الذي ولّدته الحرب العالميّة الثانية. نال جائزة نوبل عام ١٩٥٧.

يرقى إلى مرتبة الفضيلة. قد يمزّقها القلق والألم، وقد يضيئها أحيانًا الفرح وعرفان الجميل، وهي دائمًا منزّهةٌ من البغض، والقسوة، وبلادة الإحساس».

لمَ تُعدّ الوداعة فضيلةً، في ما خلا المتعة التي توفّرها للآخرين؟ لأنّها وإن لم تُظهر ذلك، وبمعزلٍ عن العنف، تلجم العنف وتُحكم عليه سيطرتها. هي، إذن، قوّةٌ خيّرةٌ، إنّها الصفة السلميّة والغيريّة التي تميّز بها يسوع، وبوذا، وغاندي، ومارتن لوثر كينغ، والأمّ تيريزا.

الوداعة هي الفضيلة المتمّمة للمحبّة المتحضّرة، ولا تنفصل عنها. إنّها انتهازيّةٌ، بمعنى أنّها تخضع للواقع، ولكنّها كالمرأة حيال الرجل، تمتلكه برقّتها وبمنحها ذاتها له.

الوداعة حكمةٌ، لكونها تشجّع الاحترام والانفتاح، والاستقبال. «إنّها تجعل الإنسانيّة أوفر إنسانيّةً».

هل الوداعة عرضةٌ للتردّي إلى الجبن؟ لا، بشرط ألاّ تتنازل للخوف عن أيّ شيءٍ. وهل بوسعها التضحية بالشرف؟ فقط لصالح فضيلةٍ عليا: المحبّة. هل هي تنادي باللاعنف؟ أجل، شرط ألاّ تجرّ إلى عنفٍ أكبر. ولكي تبقى فضيلةً، ينبغي ألاّ تتهاون مع الظلم.

حوارٌ

– **أَنتييه:** لقد أجبتَ، يومًا، على «استبيان مارسيل پروست»، مبيّنًا أنّ الخصلة المفضّلة لديك هي، للرجل، اقتران القوّة بالرقّة، وللمرأة اقتران الرقّة بالقوّة».

– **غيتّون:** كما قلتَ، للتوّ، ليست الوداعة فضيلةً، إن لم تكن، أيضًا قوّةً.

– **أَنتييه:** بعبارةٍ أُخرى، ينبغي ألاّ ترقّ الرجولة، وألاّ تستسلم الوداعة للضعف، فتفقد طعمها...

– **غيتّون:** ينبغي، أيضًا، عدم الخلط بين الوداعة والتغاضي

السلبيّ، والإباحيّة. ففي مجال التربية مثلاً، يشتدّ عناد الأولاد عندما يحاول المربّون تحطيم هذا العناد عنوةً، في حين تفلح الوداعة في إقناعهم. وفي ذلك مثالٌ على وداعةٍ لا تتهاون في شأن المبادئ، بل تسخّر ذاتها لخدمة إرادةٍ تُحسن التمييز، فتفضي إلى الازدهار والإثمار، إذ إنّها إرادة حبٍّ.

– **أَنتيبه:** الرقّة لفظةٌ توحي بالسعادة، وبالمرأة.

– **غيتّون:** أجل إنّها خصلةٌ أنثويّةٌ، جوهريًّا. إنّها توحي بما يرضي الحواسّ، وتشيع الانطباع بأنّ هذه العذوبة تنساب في الأشياء. فاليد، والعين، والأذن، والفم، والأنف، واللسان، تجيد تعريف ما هو عذبٌ، وحلوٌ.

والرقّة صفةٌ أخلاقيّةٌ عندما تعارض القسوة، والحدّة، والمرارة، وإنّما تنجم الوداعة الكاملة، من سيطرةٍ تامّةٍ على الذات. وهي، حينئذٍ، كما أكّدنا، ملء القوّة. وقد قال «لاروشفوكو»(١): «وحدهم الحازمون يمتلكون وداعةً حقيقيّة».

– **أَنتيبه:** هذا يعيد إلى أذهاننا صورة المسيح الذي طرد باعة الهيكل، وكان صارمًا في تنديده بالسنهدرين، وواجه بصلابةٍ الوالي الرومانيّ، ولكنّه سمح لتلميذه الحبيب أن يُتكئ رأسه على صدره، وتمتم: «إنّي وديعٌ ومتواضع القلب».

– **غيتّون:** ذلك هو الحِلْم الذي يتجلّى من خلال رقّةٍ دائمةٍ، لا تتبدّل، بحيث تغدو الوضع العاديّ لكائنٍ متوازنٍ. وعالمنا في حاجةٍ قصوى إلى الوداعة، كي يبقى، ويتفادى العنف الهمجيّ، الذي نشهده يتجدّد باستمرارٍ، حتّى في أكثر الحضارات عراقةً. ولطالما قلتُ

(١) فرانسوا دي لاروشفوكو (١٦١٣– ١٦٨٠) (La Rochefoucauld) سياسيٌّ وأديبٌ فرنسيٌّ. له كتاب «حكم و أمثال» انتقد فيه مجتمعًا فاسدًا تطغى عليه الأنانيّة.

وكتبتُ أنّ خلاص العالم سيتحقّق على يد النساء، من خلال رقّتهنّ. أجل، بفضلهنّ ستستعيد الإنسانيّة إنسانيّتها.

– **أنتيبه:** كلفًا بالرجولة، وتمثّلاً بالأب، سرعان ما ينسى الصبيان ذكريات رقّة الأمّ. ومن ثمّ هم يدهشون، في فترة مراهقتهم، عندما يكتشفون، مجدّدًا، ولدى اتّصالهم بفتاةٍ، الرقّة الأنثويّة. من جهتي لم أفقد، يومًا، الشعور بهذه الرقّة، وقد نشأت لديّ ذكرى الرقّة الأنثويّة الأولى من مشاهدة حادث سيرٍ، يوم كنت حدَثًا. كانت سيّارةٌ قد صدمت حصان فلاّحٍ؛ واحتدم الجَدَل بين رجل المدينة، ورجل الريف، إذ كان كلٌّ منهما يرمي بالمسؤوليّة على الآخر، وقد تجاهلا كلاهما الحيوان الجريح، الملقى على الحضيض، وقد تجمّعت كلّ آلام العالم في عينيه، حيث كانت تنطفئ أضواء الحياة الأخيرة. وفي تلك الأثناء، مرَّت فتاةٌ صغيرةٌ، فانحنت على الحصان، وضمّت رأسه بذراعيها، وطبعت قبلةً على خطمه. يومها أدركت معنى الرقّة.

الرجاء

مرادفاتٌ: أملٌ، تفاؤلٌ، ترقُّبٌ.

أضدادٌ: قنوطٌ، يأسٌ، تشاؤمٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «ما يدهشني، يقول الله، هو الرجاء الذي يحيّرني. هذا الرجاء الصغير، الذي يبدو وكأنّه لا شيء؛ هذه الفتاة الصغيرة المدعوّة رجاء، الخالدة». (شارل پيغي)

«الرجاء هو فعل إيمان». (مارسيل پروست)[١]

«الرجاء هو النصر الأعظم والأصعب الذي بوسع إنسانٍ إحرازه على ذاته». (جورج برنانوس)[٢]

– **تعريف:** الرجاء هو وضعٌ فكريٌّ يحمل المرء على الإيمان بتحقيق ما يتمنّاه. هو، إذن، نزعةٌ فطريّةٌ تولّد التفاؤل، الذي يناقض التشاؤم. هذه الهبة الإضافيّة التي ينعم بها الطفل منذ مولده، هي ميزة الحياة الأساسيّة، وينزع الرجاء إلى التضاؤل مع تقدّم العمر، وتراكم خيبات الأمل، وحينئذٍ يصبح امتلاكه فضيلةً، يتعلّم المرء التمرّس بها، مثلما يتشبّث برائعة الحياة، رغم معرفته بأنّه ماضٍ إلى الموت. وحينئذٍ يغدو الرجاء الأسمى هو رفض الموت، أي رفض اللامعقول، وولوج سرّ الحياة الفائقة الطبيعة التي يمثّلها الرجاء الدينيّ، منفتحًا على خلود الروح. يقول شاعر الرجاء «ڤيكتور هوغو»[٣]: «كلّ امرئٍ، في ليله، يمضي صوب النور».

بهذا المعنى، يمكن القول إنّ الرجاء فضيلةٌ تمنح الحياة، في حين

(١) مارسيل پروست Marcel Proust (١٨٧١ – ١٩٢٢) أديبٌ فرنسيٌّ، اعتمد في رواياته على التحليل النفسيّ الدقيق.

(٢) جورج برنانوس Bernanos (١٨٨٨– ١٩٤٨): أديبٌ فرنسيٌّ تميّز بنبرته المسيحيّة.

أنّ التفاؤل هو ضلالٌ ينشب بالفكر، ويلتهمه كالسرطان.

ينبغي تلقين الشبّان الرجاء، وفي الآن عينه تحذيرهم من الوهم والإسراف في التفاؤل. فالرجاء شرطٌ للنجاح الماديّ، والأخلاقيّ، والروحيّ، وللحياة السعيدة، ولا بدّ منه للإقدام على أيّة مهمّةٍ. وما الانحطاط الذي تتردّى إليه حضارة مجتمعٍ شائخٍ سوى تغلّب التشاؤم فيها على الرجاء، في معظم الأحيان. وبالمقابل الحضارة الصاعدة تؤمن بالحياة، وبالفرح، وبالسعادة، وفوق كلّ ذلك، بخلود الروح.

الرجاء، إذن، هو ضربٌ من حلم اليقظة، وتحقيقٌ للحكمة المأثورة: «كلّ ما يحلم به الإنسان سينتهي بتحقيقه هو، أو تحقّقه ذرّيّته». هذه الحكمة هي أحد الدوافع الإيجابيّة التي تدفع بالإنسانيّة إلى الأمام، على نقيض تناقص الطاقة الذي يسود العالم الماديّ. ولايكتفي الرجاء بالهزء من الفشل، بل عليه تستند الحياة، في حالات الفشل، كي تتخطّاها.

وخلود النفس هو أقوى رجاءٍ قد يراود كائنًا بشريًّا، إذ إنّه يقاوم الموت، وفكرة العدم. وبذلك لم تخطئ الديانات التوحيديّة المنبثقة من التقليد الموسويّ. وقد ذكّر القدّيس بولس بأنّ إبراهيم «آمن على خلاف كلّ رجاءٍ، فصار أبًا لأممٍ كثيرةٍ».

والتعليم المسيحيّ الجديد يؤكّد على خطورة شأن الرجاء، فبه «نرجو الحياة الأبديّة، واثقين بوعود المسيح. هذه الفضيلة تلبّي الصبوّ إلى السعادة في الله الثاوي في قلب كلّ إنسانٍ. إنّها توسّع آفاق القلب، بانتظار الغبطة الأبديّة». هذا التوقّع هو أشدّ أسرًا لدى الصوفيّين. فقد كتبت تيريزا الأڤيلاّويّة: «أُرجُ يا قلبي» وهي تتوقّع لمختاري الله «سعادةً وانخطافًا، لا يمكن أن يكون لهما نهايةٌ». جوهريًّا الرجاء فضيلةٌ لاهوتيّةٌ، فالله هو غايته.

حوارٌ

– **أَنتيبه:** الرجاء هو تحفّزٌ ذهنيٌّ ناجمٌ عن وضعٍ فطريٍّ لدى طبعٍ متفائلٍ. فما الذي يجعله فضيلةً كبرى؟

– **غيتّون:** هو فضيلةٌ، خاصَّةً لدى من ليسوا ميّالين إليه بالفطرة. ولا بدّ من التمييز بين الأمل والرجاء. فالأمل قد يخيب. أمّا الرجاء فلا يخدع، ولا يُخزي. الأمل في أن يكون الطقس صحوًا في الغد، أو تأمّل الفوز في رهانٍ، لا ينطويان على أيّة فضيلةٍ. أمّا ترجّي الحياة الأبديّة فهو الفضيلة اللاهوتيّة الثانية. وترجّي الامتناع عن أيّ عملٍ مشينٍ هو، أيضًا، فضيلةٌ جميلةٌ. وفضيلةٌ أيضًا، هذا الرجاء الذي لا يُقهَر الكامن في قلب الإنسان، والذي يتيح له أن يعمل، ويبذر، ويؤسّس.

– **أَنتيبه:** حتّى في حقبتنا المتّسمة بالريبة، والعنف، والمخاطر؟

– **غيتّون:** إنّك تعرف قول ذلك المقاوم الذي اعتقلتْه، في الفجر، المخابرات النازيّة (الجستاپو): «حتّى الآن كنّا نعيش في الخوف، وبعد الآن، سنحيا في الرجاء». أجل! إنّ هذا الإيمان في المستقبل الغامض، يدعى رجاءً!

– **أَنتيبه:** أخيرًا أُدرك هذا المقطع من الإنجيل الذي ينطوي على كلّ سرّ الرجاء: «من له يُعطى، ومن ليس له، يؤخذ منه ما يظنّ أنّه له».

– **غيتّون:** لا بدّ من رجاءٍ كبيرٍ حتّى في قلب المِحَن والرزايا. من لا يملك سوى القليل من الرجاء، والذي فقد الإيمان الحيّ، يُنزع منه هذا القليل، والقليل من الحياة الذي تبقّى له. فالرجاء المألوف ليس كافيًا. ليس كافيًا ترجّي السعادة في المستقبل، والتطلّع إلى الأفضل. بل إنّ دليل قوّة الخلق، هو السعادة في حومة المصاعب، واستنباط عناصر المنعة والرجاء الذي لا ينهار من جرّاء المِحَن.

– **أَنتيبه:** ما هي صورة الرجاء الأولى؟

– **غيتّون:** الطفل الوليد رجاءٌ. فكما يلاحظ ڤرجيليوس، يستهلّ

الوليد الحياة بالابتسام لأمّه، بسمة رجاءٍ. ثمّ إنّ هناك رجاء الشباب، التوثّب نحو المستقبل، وهو جوهر الحاضر. أمّا إذا ارتخى هذا التوثّب، وانهار الرجاء، فالحاضر يتردّى إلى الكآبة. حسبك أن تشهد الشبيبة اليائسة، بلا عملٍ، ولا هدَفٍ...

– **أَنتيه:** عالمنا صعبٌ، ويرى البعض أنّ حضارتنا في مأزقٍ. وهل يمكن، في العام ٢٠٠٠، التحدّث عن الرجاء إلى تلك الفئة من الشبيبة التي فقدت كلّ إيمانٍ في المستقبل؟

– **غيتّون:** منذ قنبلة هيروشيما، تغيّرت طبيعة الرجاء. فقد كانت بشريّةً، وغدت إلهيّةً. قبل النار النوويّة كانت البشريّة تؤمن بتقدّمٍ لا حدود له. وها نحن، كما أسلفنا القول في مطلع هذه الحوارات، ندنو من عتبةٍ حيث يتعيّن الخيار بين الفناء أو البقاء بفضل تحوّلٍ. إنّنا نقترب من أحداثٍ هائلةٍ، ونحن بين يدي اللّه. ذلك هو الرجاء الحقّ، الطاهر، القوّي، الحميم، العذب؛ رجاء إبراهيم الذي كان يتقدّم في الغمامة المضيئة «راجيًا خلافًا لكلّ رجاءٍ»، أي بدافع الإيمان. هذا الرجاء باقٍ على نحوٍ غامضٍ، ولكن مُضيءٍ، في قلوب جميع البشر، ولولاه لفقدوا كلّ مبرّرٍ للحياة.

– **أَنتيه:** إذن، يفترض الرجاء رؤيةً روحيّةً للأشياء. وليست هذه الرؤية من خصائص هذا العالم الذي نحيا فيه.

– **غيتّون:** وحده الرجاء الذي يغلّف الإيمان كفيلٌ بتمكين الجنس البشريّ من إنقاذ حضارتنا. لقد حان الوقت الذي يتعيّن فيه على البشريّة، إن هي كانت راغبةً في البقاء، أن تختار خيارًا جوهريًّا بين السرّيّ أو اللامعقول، بين الكينونة أو العدم. لقد اختار «سارتر» (الفيلسوف الوجوديّ) العدم. أمّا أنا فقد اخترتُ الكينونة، والرجاء

---

(١) أَندريه مالرو Malraux (١٩٠١– ١٩٧٦): أديبٌ ودبلوماسيٌّ فرنسيٌّ، وناقدٌ واسع الثقافة.

الذي لا يُقهر. الرجاء المسيحيّ هو توقّع الغبطة، وهو الإيمان بقول يسوع: «اللّه محبّة» ويضيف بولس: «المحبّة ترجو كلّ شيءٍ».

- **أَنتييه:** أهذا هو معنى قول «مالرو»[١]: «القرن الواحد والعشرون سيكون متديّنًا أو لن يكون»؟

- **غيتّون:** أجل، سيواكب العلم الماورائيّة والفائق الطبيعة. ولن يعود الإنسان، بعدُ، منقسمًا. هذا هو رجاؤنا. سيحدث كلّ شيءٍ، وكأنّنا وُجدنا من أجل شيءٍ آخر، من أجل مستقبلٍ لم يتحقّق، من أجل سعادةٍ لم نظفر بها بعدُ، من أجل «عالَمٍ آخر»، من أجل «حياةٍ أُخرى»، من أجل التحرّر من مظاهر قاهرةٍ، من أجل انتصارٍ على الموت، الذي ما زال العقبة الكأداء، وموضع التشكّك المطلق.

إنّني، وقد انتهيتُ إلى غاية شوط حياتي الأرضيّة، أتصوّر مستقبلي، وأتمتّع به، في حين تعتريني رعشة اللامؤكّد الذي يخصب الرجاء.

- **أَنتييه:** أين نجد اليوم واهبي الرجاء، بعد أن أغدق السياسيّون خيبات الأمل؟

- **غيتّون:** قد يأتي الرجاء من الخارج، شرط أن يجد صدًى في أعماق الذات، في الذهن، وخاصّةً في القلب. «تجاسر أن تكون ما أنت». هذا القول للأسقف «إلشنجر» (Mgr. Elchinger) هو نابضٌ منيعٌ تعتمد قدرة مقاومته وحركته، في المقام الأوّل، على عوامل روحيّةٍ. وعلينا إنماء هذا الكنز.

الدقّة

مرادفاتٌ: انضباطٌ، التزامٌ بالمواعيد، وفاءٌ، صرامةٌ، انتظامٌ، استقامةٌ.

أضدادٌ: تراخٍ، فوضى، توانٍ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «الدقّة هي أدب الملوك». (لويس الثامن عشر)

تعريفٌ: صفة ما هو صحيحٌ، دقيق الانتظام، مطابقٌ للحقيقة، وللواقع أو لنموذجٍ معيّنٍ، الالتزام بالمواعيد، عمل كلّ شيءٍ في موعده، الحضور في الساعة المحدّدة.

حوارٌ

– **غيتّون:** كنتُ دائمًا مفتونًا بالوقت. فلنعتبر مثلاً الالتزام بالمواعيد. إنّ الناس، في هذا المضمار، فئتان: من يستبقون الموعد، ومن يتأخّرون عنه. في أيّة فئةٍ تضع نفسك، يا سيّد جان جاك أنتيبيه؟

– **أنتيبيه:** أكاد أستبق، دائمًا، الموعد. وعندما أحضر في الوقت المحدّد بدقّةٍ، أعدّ نفسي متأخّرًا.

– **غيتّون:** هذا ما كنت أخشاه من أجلك. إنّ خوفك المَرَضيّ من التأخير يقودك إلى ضربٍ من التأخير العكسيّ، تأخيرٍ في الاستباق.

– **أنتيبيه:** أعترف أنّ هوس الوقت يوجعني. فما عساي أفعل بمعزلٍ عن ساعتي؟ إنّها، في آنٍ واحدٍ، عذابي وأماني. وأظلّ أتساءل هل هي ستخذلني. وهذا ما يحدث لها أحيانًا، وبأكثر الأساليب مكرًا. تتوقّف بلا إنذارٍ، ثمّ تنطلق من جديدٍ.

– **غيتّون:** إنّك تنهكها. كثيرًا ما تراجعها، وهي ليس فيها هامش عشر دقائق بين ما تشير إليه، والموعد المحدّد.

– **أَنتيبه:** بل أكثر من عشر دقائق.

– **غيتّون:** إنّك تشعر، في قلبك، بشيءٍ من عدم الارتياح.

– **أَنتيبه:** عدم ارتياحٍ واضحٌ، بل قلقٌ. عندما أكون مرتبطًا بموعد أصل إليه قبل فترةٍ، وأغتنم فرصة الانتظار لأتخلّص من التوتّر. ولكنّني أسخط إن تلكّأ مُواعدي. وهو دائمًا يتلكّأ.

– **غيتّون:** إنّك مبتلًى بداء الاستباق.

– **أَنتيبه:** وهل هذه علّةٌ خطيرةٌ، يا دكتور؟

– **غيتّون:** بل هي كارثيّةٌ، ولا سيّما إن كنت مدعوًّا إلى عشاءٍ، ووصلت قبل الموعد.

– **أَنتيبه:** هذا ما لا تني زوجتي تردّده على مسامعي.

– **غيتّون:** النساء يتأخّرنَ دائمًا. حسب كتاب «بحث في الآداب» الذي وضعه «الدوق دي ليڤيس – ميرپوا» (Levis- Mirepoi)، الوصول عشر دقائق قبل الموعد يلامس عدم اللياقة، في حين أنّ التأخّر ربع ساعةٍ مقبولٌ، وأنا أنصحك بالوصول خمس دقائق بعد الموعد.

– **أَنتيبه:** أفلا يسعني أن أحضر في الموعد المحدّد، بدقّةٍ؟

– **غيتّون:** أنا لا أنصحك بذلك. فهو أمرٌ متعبٌ، وأحيانًا خطيرٌ.

– **أَنتيبه:** أيّها السيّد جان غيتّون، بعد كلّ ما قلت، هل تتجرّأ فتخبرني ما هي الدقّة؟

– **غيتّون:** الدقّة هي حرّيّة الآخرين.

– **أَنتييه:** هل تعني المحبّة؟ ها إنّي قد فهمت. وأعدك بالوصول متأخّرًا خمس دقائق، لا أكثر، والآن فسّر لي دوافع المتأخّر، والمصاب بداء الاستباق.

– **غيتّون:** إنّها معضلةٌ تافهةٌ وخطيرةٌ في آنٍ واحدٍ، مرتبطةٌ بمفهومنا للوقت. ما الذي يفتقر إليه مَن أَلِفَ التأخّر؟ هو معرفة كمّيّة الوقت والجهد التي يسعه إيداعهما في زمنٍ معيّنٍ. وفي هذا المجال الإنسان الدقيق أفضل قدرةً وتقديرًا. فهو يعلم انسياب الوقت بفضل حسٍّ داخليٍّ. وعندما يستيقظ ليلاً، يستطيع تقدير الوقت من غير حاجةٍ إلى استشارة ساعته.

– **أَنتييه:** هذا ما يجعلني حائرًا ومعجبًا. فهذا الإحساس بالوقت، وهذه القدرة على تخيّل المستقبل في العمق، والتقدير، مسبّقًا، لكميّة العمل التي يمكن ملؤه بها، يفيدان كلّ إنسانٍ. فعلامَ لا يُنمَّيان، ويُسخَّران لتسهيل الحياة الاجتماعيّة؟

– **غيتّون:** حذارِ من الاستسلام للأحلام..!

– **أَنتييه:** لستُ أظنّ أنّك ستتولّى الدفاع عمّن يألفون التأخّر!

– **غيتّون:** قليلاً فقط. فهذه العادة مجرّد نزوةٍ. وقد تكون نزوة شاعرٍ، كلفٍ بتلك الرعشة التي يؤنسها عندما يمتلك فسحةً من الوقت تكاد تكفي لعملٍ معيّنٍ. إنّه يحبّ هذه المخاطرة، ويستسلم لها. إنّ الذهن البشريّ مفطورٌ على النفور من الإكراه. وغالبًا ما يتغلّب على العوائق عندما يتخطّاها بلا جهدٍ، وكأنّه يعبث. قد تكون الحاجة سوطًا، وتوثّبًا، وزخمًا. وقد يكمن في الساعة الأخيرة، إلهامٌ خاصٌّ. وهكذا قد يستطيع من ألف التأخير، استخدام هذا النقص في سبيل تنمية موهبته.

– **أَنتييه:** لقد غرب عن بالي أن أسألك هل أنت ممّن يتأخّرون

أو يستبقون؟

– **غيتّون:** أجل، أعترف أنّني كنت أحبّ الوصول متأخّرًا خمس دقائق، وقد ورثت هذه العادة الحميدة المستهجنة من أمّي.

– **أَنتييه:** لماذا تقول «كنت»؟ هل تخلّيت عن هذه العادة؟

– **غيتّون:** الوقت! أما وصلتُ إلى الأبديّة؟

– **أَنتييه:** إنَّ «دوم نوربيرت كالميلز» يقول عنك: «إنّه، ليس، أبدًا، مستعجلاً. ولكنّه يصل دائمًا في الموعد المحدّد».

– **غيتّون:** لم أكن دائمًا دقيقًا في التزام المواعيد. فأنا، بالفطرة، شارد الذهن. اسمع هذه القصّة: بعد أن تكلّمتُ في المجمع المسكونيّ، دعاني البابا بولس السادس إلى العشاء. وفي نهاية الوجبة، قال لي: «كي تتذكّر هذا اليوم، وبما أنّك سبرت سرّ الوقت، سأقدّم لك ساعةً لن تحتاج إلى ضبطها، أيّها الفيلسوف الشارد الذهن!» ومنذ ذلك اليوم لم تتوقّف تلك الساعة، وبتّ ألتزم دائمًا بالمواعيد، أو تقريبًا دائمًا.

– **أَنتييه:** فليكن لك هذا الـ «تقريبًا»، بما أنّك تجد فيه سعادتك وحرّيّتك!

الوفاء

مرادفاتٌ: ثقةٌ، مثابرةٌ، ولاءٌ، صداقةٌ، حبٌّ، إخلاصٌ، ثباتٌ.

أضدادٌ: خيانةٌ، تقلّبٌ، إنكارٌ، تذبذبٌ، مكرٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «الأَبطأ في الوعد هو، غالبًا، الأشدّ وفاءً له». (قولٌ شائعٌ)

«من منّا وفيٌّ لنفسه في كلّ وقتٍ؟». (أندريو Andrieux)

«في حالة الارتياب، ينبغي اختيار الوفاء». (فرانسوا موررياك)[1]

تعريفٌ: إنّه الدقّة في الوفاء للالتزامات والوعود، والإِخلاص للقناعات الذاتيّة، وللإيمان الدينيّ، وللصداقات، وللأحبّاء.

الوفاء هو أساس الفضائل، بما أنّ الفضيلة هي الإخلاص لشريعة الخير. إنّه ينفي الخيانة. ومن امتيازاته التشبّث بالقضايا الضائعة، وبالصديق التعيس، وبالغائبين أحياءً أو أمواتًا. إنّه يتعارض مع الانتهازيّة النفعيّة، ويلتزم التجرّد. يقول «جانكيليفتش»: «إنّه استمراريّة كلّ ثقافةٍ، وأساس الحياة الزوجيّة والأدبيّة الوحيد».

الوفاء يقتضي المثابرة، لأنّه يتوخّى تخطّي الزمن، وتفادي الملل، والاعتياد، وإغراءات الخيانة الخارجيّة. يقول جانكيليفتش، أيضًا: «الوفاء الحقّ هو صميم الصبر، وهو يستقرّ في الإخلاص اليوميّ للحبّ».

امتحان الوفاء مقياس الحبّ. «بمعزلٍ عن الإخلاص لن نمتلك سوى فضائل الحيوانات الأحاديّة الخليّة. أمّا الإخلاص فيجعل من البرق ضياءً،

---

(١) فرانسوا موررياك (François Mauriac) (١٨٨٥ – ١٩٧٠) أديبٌ وروائيٌّ فرنسيٌّ، عالج مشاكل الإيمان والحياة. نال جائزة نوبل عام ١٩٥٢.

ومن الشرارة نورًا».

ولكن ينبغي ألاّ يفضي الوفاء إلى الوسواس، والغيرة، والاستحواذ على الآخر، فما هذا الاستحواذ سوى نفيٍ للحبّ. ينبغي، إذن، التزام منزلةٍ وسطى، معيارها احترام الآخر وحرّيّته.

وبالمقابل، ينبغي أن يكون موضع الوفاء طاهرًا. فأرسطو ينصح بعدم الوفاء للأصدقاء، عندما ينزلقون إلى الانحراف، تحاشيًا عن التواطؤ معهم على الشرّ. و«ساشا غيتري» (Sacha Guitry) الذي كان وقِحًا، ولكن منطقيًّا، ينصح بعدم الوفاء لامرأةٍ متقلّبة الطباع والسلوك. وفي الواقع، الحجّة الكبرى لمحاولة تبرير الخيانة الزوجيّة هي تغيّر أحد الشريكين. بيد أنّ هذا النمط من التفكير قد يؤدّي إلى تجاوزاتٍ وبيلةٍ، إذ قد يقود إلى التواطؤ مع الخيانة، والتردّي إلى التقلّب، والخيانة، والكذب، وأخيرًا إلى اللاتوازن، والكدر، وإلى تدمير قِيَم الحبّ نفسها.

ويتوفّر الوفاء في الصداقة أكثر كثيرًا ممّا يتوفّر في الحبّ، ولا سيّما في حبّ الهوى، فهو، بطبيعته متقلّبٌ، وبالتالي فإنّ ما يضمن ديمومة الزواج هو رقّة الصداقة، أكثر من نيران الهوى.

الوفاء هو فضيلة العلاقة الزوجيّة بامتياز، ولكنّه صعب الممارسة الدائمة. صحيحٌ أنّه لا يمكن تخيّل حبٍّ بمعزلٍ عن الوفاء، في اللحظة الراهنة، ولكنّ الإنسان يتعرّض، مع كرّ الزمن، إلى فصم الوفاء بفعل غواية حبٍّ آخر. وحينئذٍ يُفسَخ الوفاء بدافع «زخم المغامرة، وانبجاس الكائن خارج نطاق الصمت، وخفقان أجنحة طائر النار... وتولد، مجدّدًا، النزعة إلى اللاأمان، وإلى الخطر المتربّص، وإلى خفقان القلب، وإلى خمرة الربيع التي تفوح برائحة الحرب والمغامرة» (جانكيليفتش). وها هو حبٌّ جديدٌ يولد، قويًّا، جديدًا، مطلقًا كالحبّ الأوّل. وحينئذٍ قد يُقسِم المحبّ على الوفاء حتّى الموت، وقد يكون صادقًا.

في الحياة اليوميّة، الوفاء هو أساس الواجب، وهو ضروريٌّ. ولكن ما أصعبه في عالمٍ كلّ شيءٍ فيه يتغيّر!

ولكي يكون الولاء فضيلةً، عليه أن يختار، قِيَمه، ومنها المحبّة، وبذل الذات، ونبل الخلق، وبالتأكيد الإخلاص، يختارها ويجهد في الوفاء لها، بلا تشدّدٍ، ساعيًا إلى تجديد التزاماته، باطّرادٍ.

تلك كانت مشكلة الكنيسة في المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، الذي جهد في البقاء وفيًّا لجوهر الرسالة المسيحيّة، مع إكبابه على نزع ما علق بها من غبار الإضافات التاريخيّة الثانويّة، وبإحداث التغييرات الضروريّة، كي تتوافق مع العالم الحديث. فالوفاء للذات لا يعني الجمود. ولا يسع الوفاء إلاّ أن يكون حيًّا.

إنّ فضيلة الوفاء، وفقًا لهذه المفاهيم، والخاضعة لشريعة الأخلاق التي يعدّها المؤمن «إلهيّةً»، ويعدّها غير المؤمن «طبيعيّةً»، هي أساس الثقافة، والحضارة، وبإيجازٍ، هي أساس الإنسان. وهي ساحة كفاحٍ دائمٍ.

حوارٌ

– **أَنتييه:** المشكلة هي: كيف الوفاء لِما يتغيّر؟ ولنبدأ بالحبّ.

– **غيتّون:** ينبغي ألاّ نخطئ فهم الحبّ. فالنساء يخشينَ، وهنّ في ذلك محقّاتٌ، أن يُحبَبْنَ فقط من أجل ما هو فيهنّ زائلٌ، وآنيٌّ، كالشباب، والجمال الذي يذبل. إنّ الوفاء الحقّ يكمن في مكانٍ آخر، وينبع من الحبّ الكامل الذي يتوجّه إلى كامل الكيان، وإلى ما لا يعبرُ.

– **أَنتييه:** هذا ليس مؤكّدًا، فالإنسان لا يبقى دائمًا وفيًّا لذاته، ولوعود شبابه.

– **غيتّون:** ولذلك لا تبقى الهويّة ثابتةً، مع الزمن، ما لم تتجدّد باستمرارٍ. وإنّه ليتعذّر، اليوم، على الحبّ الزوجيّ، أن يجتاز طول الزمن، إلاّ بفضل جهدٍ متواصلٍ قائمٍ على الابتكارات، والمفاجآت، والتحوّلات نحو الأفضل، والتجديد. على الزوجين العودة إلى

بداياتهما، فلا تبطل نزهاتهما معًا واليد باليد، وتبادل الهدايا، والمبادرات الصغيرة التي تنمّ عن اهتمامٍ.

– **أنتييه:** الوجود يوفّر، أيضًا، التحوّلات.

– **غيتّون:** ولكن ينبغي استيعابها، لكي يبقى الآخر وفيًّا لما أحبّ فيك. صعوبة الحياة هي المحافظة على الهويّة، ولكن بأشكالٍ مختلفةٍ. وهكذا هو الوفاء الذي ينبغي أن يكون خلاّقًا. وهذا، أيضًا، هو سرّ كلّ وجودٍ: التجدّد مع الثبات، ومن أجل وقاية الجوهر من التغيير. هذه قمّة فنّ العيش الزوجيّ. وبذلك لن يعود الحبّ «هوًى تقضي عليه عادة العيش معًا»، حسب قول فرنسوا مورياك، القاسي.

– **أنتييه:** بعد الإخلاص الزوجيّ، فلنتحدّث عن الوفاء الدينيّ، الذي لا يقلّ تعقيدًا. فكيف يُفقد الإيمان، ويصبح المرء غير مؤمنٍ؟

– **غيتّون:** لطالما أعملتُ الفكر في مصائر مأساويّةٍ، نظير مصير «رينان» الذي كان، يومًا، إكليريكيًّا، ومصائر كهنة أمثال «لوازي»، الذين، بعد أن فقدوا الإيمان في دعوتهم، تعذّر عليهم الوفاء لنذورهم.

– **أنتييه:** في أعقاب «ثورة أيّار ١٩٦٨»، حدثت حالات حَنَثٍ بالجملة.

– **غيتّون:** أجل. وقد تساءلتُ في سرّي: ماذا على الكاهن أن يفعل؟ هل يثبت في كهنوته، ويكون مرائيًا؟

– **أنتييه:** هل تعلم قصّة دعوة الطبيب النفسيّ «جونغ» (G Jung .C)؟ كان أبوه قسًّا، وكان يراه يجهد في الوعظ، ولكن بمعزلٍ عن القناعة الداخليّة، إذ إنّ ذلك القسّ كان قد فقد الإيمان. وقد تبيّن الطفل العبقريّ ذلك، بنظرته الثاقبة. وفي ما بعد، حلم «جونغ» الشابّ حلمًا مرعبًا: إذ رأى اللّه يسحق كنيسة أبيه ويطمرها ببراز.

– **غيتّون:** هل ينبغي الثبات في الوفاء، رغم مخاطر الرياء؟ أو هل ينبغي الانفصال عن الكنيسة؟ كيف سيحاكم اللّه كلاًّ من السلوكَيْن؟ ليس لديّ جوابٌ على هذا السؤال.

– **أَنتيبه:** يبدو لي أنّه يمكن حتّى لمن فقد الإيمان، البقاء على الوفاء للكنيسة، على أن تظلّ هذه الكنيسة وفيّةً لروح مؤسّسها. تلك هي فضيلة الصبر، التي يدعوها «جانكيليفتش» «فضيلة الزمن الصافية»، فضيلة الرجاء مع غياب كلّ أسباب الرجاء. وحينئذٍ قد تنبثق المعجزة من قعر الفراغ، ويعود الإيمان. وربّما سمع القسّ «جونغ»، في لحظة موته الأخيرة، دعوة اللّه له كي يدخل في حبّه اللامحدود والوفيّ؟

– **غيتّون:** إنّني أُشاركك خيارك. ينبغي الوفاء للرجاء، ولما جعلنا نولد وننمو. هذا في ما يتعلّق بالإيمان باللّه. ولكنّ الوفاء، في ميدان العقيدة، أشدّ صعوبةً. ولي في هذا المضمار خبرةٌ، إذ أَوكل إليّ البابا مهمّة إقناع الأسقف «لوفيڤر» بأن يظلّ في أحضان كنيسة روما.

– **أَنتيبه:** وقد فشلت. وقد يكون الأسقف لوفيڤر، عقائديًّا، محقًّا جزئيًّا. هذا ما سيثبته المستقبل. ولكنّه افتقر إلى الصبر والتواضع اللّذين تحلّى بهما أساقفة آخرون كانوا يشاطرونه الرأي، ولكنّهم ظلّوا متّحدين بالكنيسة التي كانت تتكلّم بصوت البابا والأغلبيّة العظمى من آباء المجمع. وانفرد هو بفصم علاقته بالكنيسة.

– **غيتّون:** ولا ريب أنّه كان، في ذلك، مخطئًا. ففي ميدان العقائد، التاريخ والكنيسة يؤيّدان دائمًا من كان محقًّا، ولو بعد حينٍ. فقد اعترفت الكنيسة بصواب موقف غاليليو، وطوّبت جانّ دارك، وقد تطوّب الأب لاغرانج الذي تجرّأ فأسّس النقد العلميّ للكتاب المقدّس. وها إنّها قد تراجعت عن حظر كُتُب «تيلار دي شاردان». كانت الكنيسة قد أدانت هؤلاء، فانحنوا لها، وظلّوا لها أوفياء.

الإيمان

مرادفاتٌ: عقيدةٌ، اعترافٌ، ارتدادٌ.

أضدادٌ: إلحادٌ، إنكارٌ، كفرٌ، زندقةٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «لو كان لديكم إيمانٌ بقدر حبّة خردلٍ... لما استحال عليكم شيءٌ». (يسوع: متّى ١٧ : ٢٠)

«إيمانك خلّصك». (يسوع: لوقا ١٨ : ٤٢)

«آمن، تفهم، فالإيمان يسبق، والفهم يلحق». (القدّيس أوغسطينُس)

«من ينفذ إلى قلب دينه الخاصّ، يُفضي إلى قلب كلّ الأديان». (غاندي)

تعريفٌ: الإيمان يعني الالتزام، والارتباط. فهو التزام الذهن بالحقيقة.

مؤسّسو جميع الديانات كانوا يتميّزون بمواهب روحيّةٍ، ويحظون بخبرة اللّه، وكانوا أحيانًا، مرسلين من قبله لهداية البشر.

إنّه لمن دواعي الأسف، أنّ التجربة الدينيّة لا تخضع للمعايير العلميّة الغربيّة الحديثة، التي لا تعدّ «واقعًا» إلاّ ما يمكن مراقبته في كلّ مكانٍ، ومن قِبَل الجميع، وإعادة إحداثه. وهكذا انحفرت هوّةٌ بين العلم والإيمان. فالخبرة الصوفيّة لا تنعم بها سوى أقليّةٍ ضئيلةٍ، وتكرارها الإراديّ غير ممكنٍ.

الإيمان الدينيّ يستند على وحيٍ إلهيٍّ يبلّغه أنبياء، وتحدّده نصوصٌ مقدّسةٌ. إيمان المسيحيّ هو التزام الفكر والروح بالحقائق التي أعلنها يسوع المسيح، وتعلّمها الكنيسة. والكنيسة تجهد في تبيان أنّ الإيمان

بالفائق الطبيعة لا يتعارض مع العقل، بل يكمّله، ويمكّنه من معرفة حقائق تتخطّاه، وتثري كنز معارفه، ونموّه الروحيّ.

بما أنّ الإحاطة بجوهر الله مستحيلةٌ، فمن العسير إقامة معيارٍ مشتركٍ للإيمان يُطبّق على جميع الأديان. ولذلك وضعت الكنائس عقائد، وبنود إيمانٍ. في الدول التوتاليتاريّة، قديمًا واليوم، طالما جرّ التزام السلطة بالعقيدة إلى الإفراط في إلزام الناس بالإيمان والممارسات الدينيّة. هذا التجاوز، فضلاً عن تجاوزات الحكم الزمنيّ، والثروات الكنسيّة، كانت أساس مفهوم الديمقراطيّة العلمانيّة، وقد أدّى، في الغرب، إلى فصل الكنيسة عن الدولة. فقد كان المؤتمنون على الإيمان قد ذهلوا عن القاعدة الذهبيّة، أي الموافقة الحرَّة، التي عبّر عنها مجمع طليطلة بقوله: «لا تُكرهوا أحدًا على الإيمان».

هذا ما باتت تدركه الكنيسة اليوم. وقد ورد في التعليم المسيحيّ الجديد: «الإيمان هو أُولى الفضائل اللاهوتيّة، فهو يؤكّد الإيمان بالله، وبكلّ ما قاله لنا وما أعلنه، وما تدعونا الكنيسة المقدّسة إلى الإيمان به. «بالإيمان يستسلم الإنسان كلّيّةً لله». وقال القدّيس بولس، بحذرٍ: «الإيمان هو جوهر الأشياء التي نرجوها».

إنّ نزعة الكنيسة الكاثوليكيّة الراهنة موجّهةٌ بقوّةٍ صوب المجتمع. فالبارّ الذي يحيا إيمانه يعمل بدافع المحبّة. وكان القدّيس بولس قد قال، أيضًا: «بمعزلٍ عن الأعمال، باطلٌ هو الإيمان». وعلى الإيمان أن يقترن اقترانًا حميمًا بالفضيلتين اللاهوتيّتين الأُخرَيَيْن، «فبمعزلٍ عن الرجاء والمحبّة، لا يوحّد الإيمانُ المؤمن، وحدةً كاملةً، بالمسيح، ولا يجعل منه كلمةً حاضرةً في جسده».

بالإجمال تنبع معرفة الله (نسبيًّا) من مساعٍ ثلاثةٍ:

١- الخبرة الصوفيّة الشخصيّة، وهي شعورٌ لا يمكن وصفه، ويستحوذ على كامل الكيان.

٢- الالتزام، عقليًّا، بالإيمان.

٣- الالتزام النابع من الثقة بالتقليد الذي تتداوله الكتب المقدّسة، والأسرة، والمعلّمون، وهكذا، على حدّ قول أندريه فروسّار «(Frossard

André)» تتميّز وتتّحد في هندسة الحياة الروحيّة، حصّة العقل، وحصّة الموهبة، كما يتميّز ويتّحد في النوافذ المزخرفة العمل البشريّ والنور».

حوارٌ

– **أَنتييه:** من أين يأتي الإيمان؟ وكيف يحدث أنّ بعض أفراد الأسرة الواحدة يؤمنون، وغيرهم لا يؤمنون؟

– **غيتّون:** الإيمان هو، أوّلاً، هبةٌ من اللّٰه. امتلاك الإيمان هو الشعور، في أغوار القلب، بانطباعٍ دائمٍ ومؤثّرٍ، لا يمكن مقارنته إلاّ بالحبّ، وهو الحبّ الأسمى في كماله وجوهره. وقد قال پاسكال: «القلب هو الذي يشعر باللّٰه، لا العقل». وإن كانت المعرفة، في ميدان العلوم، قائمةً على البحث، فكم هي بالحريّ كذلك، في مضمار الإيمان، حيث الفرق شاسعٌ بين ما هو معروفٌ وما تتعذّر معرفته، والذي لا يستشفّه سوى الحبّ، من خلال الظلال! هذا المزيج من النور والظلمة يدعو إلى بحثٍ لا نهاية له. هذا التطلّع نجده لدى كلّ الديانات في كلّ عهدٍ. وإذا فقد هذا الشعور الدينيّ طعمه ونكهته، فقد يبقى الغلاف: عقائد، وصورٌ، وذكرياتٌ، وتقاليد. وهي قد تساعد على «اجتياز الصحراء»، وقد تكون عونًا في «ليالي الروح»، التي وصفها الصوفيّون، ولكنّها لا تكفي. فمن عانى ظمأ اللّٰه يتطلّع إلى أكثر.

– **أَنتييه:** هل الإيمان، إذن، يحاكي الحبّ؟

– **غيتّون:** على غرار الحبّ، الإيمان هو الاتّحاد مسبّقًا بما سنكون. ثمّة قولٌ مأثورٌ عن الإيمان، وهو مفارقةٌ: «أغمض عينيك، ترَ». من يملك الإيمان لا يتحقّق، ولا يجسّ، ولا يرى، بل يعتريه الاندفاع، عندما يشعر باللّٰه كامنًا في غور القلب، ولكنّه يدفعه إلى العمل، ويمكّنه من الإبداع.

– **أَنتيبه:** إذن، الإيمان يأتي من الله، إنّه هبةٌ. ولكنّه ليس، دائمًا، موهوبًا، إذ قد يرجع المؤمن إلى عقله وإلى التقليد.

– **غيتّون:** هذا صحيحٌ. فالسرّ الخفيّ، والطيبة، ومعنى كلّ شيءٍ، لا يُصار إليها فقط بالمقاربة الصوفيّة. بل لا بدّ، أيضًا، من رهانٍ معقولٍ يقول إنّ، وراء الشرّ، كلّ شيءٍ جيّدٌ، وإنّ وراء الغيوم، الشمس العذبة تسطع. هذا اليقين هو الإيمان.

– **أَنتيبه:** وفي معظم الأحيان يأتي تلقين الإيمان الطبيعيّ، وفق التقليد، من الأُسرة. وقد كتب البابا يوحنّا الثالث والعشرون، في «يوميّات النفس»: «كنز نفسي الأوّل، هو الإيمان الصريح والساذج الذي استمددته من والديّ».

– **غيتّون:** في ما يتعلّق بي شخصيًّا، أنا مدينٌ بإيماني لأمّي التي علّمتني ألاّ أفصل أبدًا حياة الفكر عن حياة النفس، الجزء العقليّ من ذاتي عن الجزء الروحيّ، فتلك هي الوسيلة الوحيدة لتفادي الجفاف الذي يصيب به عمل الفكر منابع إحساسنا. مثالها هو الذي دفعني إلى العزوف عن اللامعقول والعدم، اللّذين يواكبان حياةً لا هدف ساميًا لها، وإلى اختيار سرّ الحبّ الإلهيّ المقدّم لي، بديلاً عنها.

– **أَنتيبه:** متى قرّرت هذا الاختيار؟

– **غيتّون:** عام ١٩١١، بمناسبة مناولتي الأولى.

– **أَنتيبه:** هل كانت تلك المناسبة استنارةً روحيّةً؟

– **غيتّون:** لم يحدث أيّ شيءٍ فائق، بل انطباع سلامٍ، تجرّدٌ هادئٌ، بساطةٌ. وأودّ هنا أن أُقيم مقارنةً. فالإلحاد الجوهريّ الذي أعلنه «موريس مارتان دوغارد»، والكثيرون من المفكّرين اللامعين، نابعٌ من خيبة أملٍ بمناسبة المناولة الأولى. فهو كان ينشد المعرفة، وتوقّع

حدَثًا باهرًا، رائعًا، وفجأةً... لم يحدث شيءٌ، واعتراه انطباعٌ فظيعٌ بأنّ الوعد لم يتحقّق، فكان لا بدّ من استخدام الحرّيّة، والالتزام بالعقل.

– **أَنتيه:** من جهتها، اختارت تيريز الطفل يسوع الإيمان، وقد عبّرت عنه بإيجازٍ مدهش: «التجاسر على الثقة».

– **غيتّون:** إنّه خيارٌ بين العدم، اللامعقول، والسرّ. «جان پول سارتر» اختار العدم وأنا اخترتُ السرّ: تلك السماء التي كانت تتراءى وتتوارى، ولكأنّها تدعونا إلى الصعود. وأدركتُ، بغتةً، بكثافةٍ، هذا السرّ، ومعنى الحرّيّة، وحدّة الصراع بين الإيمان والإلحاد. وكانت تلك أعظم لحظات حياتي. فبانعتاقي من اللامقعول، أنقذتُ حرّيّتي، التي لا وجود لها إلاّ بالخضوع للسرّ.

– **أَنتيه:** وفق تعريف القدّيس بولس «السرّ هو جوهر ما لا يرى». ويقول «أَندريه فروسّار» في هذا السياق: «السرّ هو شيءٌ غامضٌ في ذاته، ولكنّه يُنير كلّ ما سواه. إنّه منبع نورٍ غير مرئيٍّ يتعرّض له العقل المتأمّل». بيد أنّه يُقيَّض لبعض الأشخاص أن يدنوا، في هذه الدنيا، من ذاك الذي لا يُسمّى.

– **غيتّون:** أجل، هؤلاء هم الصوفيّون، عبّاد السرّ. فالصوفيّ يكتشف، بالخبرة، أنّ اللّه حبٌّ. الصوفيّون هم مكتشفو عالمٍ مجهولٍ.

– **أَنتيه:** إذن، يُقدَّم لنا الإيمان الدينيّ، إمّا مباشرةً من قبل اللّه نفسه، أو عبر التقليد. ولنتصدّ الآن لقضايا عمليّة: أي عواقب الإيمان. فهل الإعراض عن «البشرى» التي زفّها، لألفي سنةٍ خلت، «من يملك كلام الحياة الأبديّة» هو الذي أفضى، اليوم، إلى البلبلة التي تتخبّط في لجّتها شبيبةٌ فقدت صواها ومراجعها، ولم تُعطَ هدفًا سوى الاستهلاك، وأعطت ذاتها حقّ استخدام الجنس بلا تحفّظٍ؟

– **غيتّون:** لا يُفسَّر إلحاد الشبيبة بالرغبة في الحرّيّة الجنسيّة. ولكن من يفترض عدم وجود اللّه، يدّعي أنّ كلّ شيءٍ مباحٌ له. يمكن دائمًا المخاطرة بمخالفة الشرائع البشريّة، ولكن لا يمكن المخاطرة بمخالفة شرائع اللّه الذي يرى كلّ شيءٍ. ولكن لدى من يوقن أنّ لا وجود للّه، يرتدي تخطّي المحظورات جاذب اكتشافٍ لا معدى عن الإقدام عليه.

– **أَنتييه:** ولكن أيّ ثمنٍ باهظٍ يُدفع في هذا السبيل! وقد قال الكاتب «رومان رولان»[1] في معرض إشارته إلى «القرن الذي قتل اللّه»: «بما أنّ نفسي هي، جوهريًّا، متديّنةٌ، فقد كانت هي التي يقتلها العصر، على غير معرفةٍ منه». ولذلك، يسير انحطاط الأخلاق، جنبًا إلى جنبٍ، مع فقدان الإيمان الذي يطبع حقبتنا بسِمَته.

– **غيتّون:** ينبغي التمييز بين لاأَدريَّة العلم، الذي، بعد أن ضاق ذرعًا بعجزه عن الإحاطة باللّه عن طريق الاختبار العمليّ، أعرض عنه، كي ينصرف، حصرًا، إلى الأشياء المرئيّة، وفي جانبٍ آخر الإلحاد الذي يدّعي عدم وجود اللّه، وهو صيغةٌ سلبيّةٌ للإيمان. حتّى اليوم، لم يوجد إنسانٌ ملحدٌ حقًّا، إذ ما زالت موجودةً ضروبٌ من الحضور الخفيّ. ويوم تُفرَض على البشريّة حضارةٌ ملحدةٌ، وثقافةٌ وتربيةٌ ملحدتان، سيوقظ، بعنفٍ، الجوهر الدينيّ الكامن في الطبيعة البشريّة. وحينئذٍ ستنبعث نهضةٌ روحيّةٌ. وعندما لا تُفرَض فكرة اللّه من الخارج، عبر تربيةٍ أو حضارةٍ، فهي تنبجس من أعماق الإنسان.

– **أَنتييه:** ما الذي يجعلك تؤمن بهذه المعجزة؟

– **غيتّون:** أَلسنا على صورة اللّه؟ على امتداد قرونٍ فُرض اللّه من

(١) رومان رولان (١٨٦٦– ١٩٦٧): أديبٌ فرنسيٌّ، من دعاة اللاعنف. نال جائزة نوبل عام ١٩١٥.

الخارج على ضمائر بشريّةٍ لم تكن قد تقبّلته، داخليًّا. نحن لا نعاني الجوع إلى الله، لأنّنا لم نُفطَم عنه. ولكن سيحين وقتٌ سنحتاج فيه إلى الله، مثل حاجاتنا إلى الطعام.

– **أنتييه:** أُحبّ عبارة «الجوع إلى الله». وقد كان الكردينال مارتي يقول: «إنّني منشغلٌ بالله، مثلما كنت منشغلاً ببستاني، عندما كنت خوري رعيّةٍ إبّان الحرب: لكي أوفّر طعامي، لا لكي أستنبت زهورًا. إنّني في جوعٍ دائمٍ إلى الله».

– **غيتّون:** أجل، سيصبح هذا الجوع حاجةً حيويّةً، صبوًّا شرسًا وطاهرًا ينشب بكامل الكيان، مثلما حدث في بولونيا والاتّحاد السوفييتيّ، في حقبة ديكتاتوريّة ستالين.

– **أنتييه:** كتب القدّيس أوغسطينُس في «الاعترافات»: «ما معرفة الذات إلاّ معرفة حضور الله في الذات» فعلامَ الشبّان – والأقلّ منهم شبابًا – يجدون مشقّةً في هذا الخيار؟

– **غيتّون:** في ساعة الاختيار يحدث سوء تفاهمٍ. فكما أسلفنا القول، لقد بات الشبّان يرفضون السلطة التقليديّة باسم الحرّيّة. وإنّه لسوء فهمٍ مأساويٌّ! فالله لا يسلبنا حرّيّتنا، بل الأمر على نقيض ذلك. فبتوسيعه آفاق الحياة البشريّة حتّى اللامحدود، يهب الله الحرّيّة الحقّة الوحيدة. وكلّ حرّيّةٍ سواها باطلةٌ. والدليل هو الأزمة الآخذة بخناق عصرنا الذي يدّعي التحرّر.

– **أنتييه:** مبدئيًّا، أصبح كلّ شيءٍ موضع شكٍّ.

– **غيتّون:** هذه هي القاعدة العلميّة. ينبغي التمييز بين الرؤية والإيمان. إنّني أراك ومن ثمّ لا أجد مشقّةً في الإيمان بوجودك. ولكنّ الله، لا أراه. ولكي أؤمن، ينبغي أن أستيعض عن مجرّد عمل الرؤية بعملٍ معقّدٍ يقتضي انفتاحًا، وحدْسًا، وفهمًا، وفضيلةً، وثقةً، وحبًّا،

والكثير من الإرادة، والجهد، والمثابرة، فلا شيء يُكتسب لأمدٍ طويلٍ. ولا بدّ من التغلّب المطّرد على ليل الإيمان الذي عهده القدّيسون أنفسهم.

العلم يبدو أكثر يقينًا من الإيمان، وهو لا يقتضي أكثر من مراقبة الأحداث الجارية.

– **أَنتييه:** ولمَ لا يراقب العلم الأحداث الدينيّة؟

– **غيتّون:** البعض يقومون بهذه المراقبة. ولكن حذارِ! فثمّة ميلٌ إلى الاعتقاد بأنّ هناك نمطَيْن من الإيمان: أحدهما شعبيٌّ، يلامس الخرافة، كَلِفٌ بالمعجز؛ والآخر مستنيرٌ، عالمٌ، يحسن الاختيار والتمييز. هذا التفريق الذي يجعل أحد النمطَينْ يحتقر الآخر، هو غير مقبولٍ، إذ لا قيمة إلاّ لخبرة الله الذاتيّة، والشعور بأنّه موجودٌ، وبأنّه يحبّنا. ولا يمكن أن يكون الإيمان مختلفًا، وفقًا للمستوى الثقافيّ. فإنّ «بانيول» لم يكن يجد غضاضةً في مشاركة الشعب صلاته. فضلاً عن أنّ الأسلوب الإلهيّ يقوم على إيثار إيمان الصغار، والرعاة، والفقراء، ولكأنّ هذا الإيمان يحتوي، على نحوٍ متكتّمٍ، الجوهر الذي يغلّفه العلم بالظلمة، وأحيانًا يلاشيه.

– **أَنتييه:** وما قولك في إيمان الأولاد؟ احتشد مليون شابٍّ في باريس، في أيّام الشبيبة العالميّة، حول البابا المرهق جسديًّا، نظير يسوع في الجلجلة، ولكنّه، روحيًّا، كان يشعّ نورًا.

– **غيتّون:** على الشبّان والشيب، الجهلة والعلماء، أن يكونوا صادقين، أي متواضعين أمام الله، لكي يتأهّلوا لتلقّي حبّه. وعليهم أن يحدّقوا إلى الآب بنظرةٍ تُدعى الثقة.

– **أَنتييه:** كلّ شيءٍ بسيطٌ لمن يمتلك معرفة الحبّ الإلهيّ المباشرة. وكلّ شيءٍ معقّدٌ للآخرين. فعلى سبيل المثال، كيف يمكن وقاية الإيمان

من التغيّرات الطارئة؟ وقد بيّنت الدراسات الكتابيّة أنّه لا يمكن الأخذ بحرفيّة الكتب المقدّسة.

– **غيتّون:** لا بدّ من التمييز بين التعليم الرمزيّ، كذاك الوارد في سفر التكوين، وشهادات من رأوا بأمّهات عيونهم، كتلاميذ يسوع. إنّ جوهر الإيمان المسيحيّ لم يتغيّر منذ البدء. والحقّ ثابتٌ، مستمرٌّ.

– **أنتييه:** ولكنّ إيمان غالبيّة الناس مرتكزٌ على إيمان أسلافهم، إنّه إيمانٌ اعتياديٌّ، ومن ثمّ معرَّضٌ للطعن في سلامته.

– **غيتّون:** أرجو أن يحين زمنٌ جديدٌ يعود فيه الإيمان موضع العقل كلّيًّا، وفاءً لتوافق الشهود، ولا يكون، بعدُ، رهانًا في الليل، بل مسيرةً في الظلام.

– **أَنتييه:** أي اكتشافًا شخصيًّا، وهذا يعود بنا، دائمًا، إلى الخبرة الروحيّة، وهي، للبعض صوفيّةٌ.

– **غيتّون:** هذا الإيمان سيحاكي الهوى، والحبّ، والشعور الغامض الذي يولد في أعماق الذات، والذي يقود ما يطفو على سطح الوجدان. إنّني أسعى إلى استكشاف هذا المضمار، وإلى اكتشاف هذا السرّ المطلق في داخلي. إنّه جهدٌ متواضعٌ وصبورٌ، بانتظار اعتلان السرّ المقدّس.

– **أَنتييه:** الحبّ هو الإيمان في كائنٍ. فلمَ يدع الله الشكّ معتملاً في قلب الإنسان؟

– **غيتّون:** هذا هو ثمن الحرّيّة. الإيمان العاديّ لا يمكن أن يكون سوى عمل العقل البشريّ، انطلاقًا من كامل تجربة الصوفيّين. ولكنّ هذه التجربة موقوفةٌ على قلائل، إذ إنّ الانسلاخ عن العالم المادّيّ يقتضي التزام الكيان الكلّيّ، بعد تطهير الروح والجسد معًا.

– **أَنتييه:** إذن ما الذي يقوله هذا العقل المستنير؟

– **غيتّون:** إنّ الحياة، والوجدان البشريّ، والعالم الكونيّ بكلّ تنظيمه، والطبيعة بكلّ كمالها، والفنّ، والتقنيّات، والحبّ وتجلّياته السرّيّة، والحدْس، هذه كلّها أحداثٌ عجيبةٌ لا قِبَل للصدفة وحدها على تفسيرها، لأنّ المنظَّم لا يسعه الخروج من غير المنظَّم، ما لم تخصّبه إرادةٌ خلاّقةٌ.

– **أَنتييه:** إنّ علماء جاثمين على قمّة البحث العلميّ يدنون، شيئًا فشيئًا، من هذا اليقين. وقد أكّد العالم البيوكيميائيّ النيوزيلانديّ الشهير «ميكائل دنتون» (Michael Denton): «بقدر ما نتوغّل في صميم النظام الحيّ، نتبيّن أنّ آليّات نموّه ليست مدينةً للصدفة، بل تحدّدها الضرورة. فالحياة، إذن، هي مسيرة تطوّرٍ موجّهٍ». ولكن بمَ تنصح من لا يؤمن؟

– **غيتّون:** بأسلوب برغسون الذي انطلق، بمنأًى عن الآراء المسبّقة، من «الإيجابيّة» أي الفلسفة المعتمدة كلّيًّا على يقينٍ مستخلصٍ من التجربة والاختبار، ولكنّه انفتح على التجربة الكلّيّة. وقد قاده أسلوبه هذا إلى العثور على واقع الحرّيّة، والزمن، والذاكرة، والروحانيّة. وقد مكّنته الدراسة والتجربة من ولوج سرّ السبب الفائق الطبيعة، ومن تعريفه بأنّه الحبّ.

– **أَنتييه:** العقل مفيدٌ لاكتساب الإيمان، أو لاستعادته. ولكنّه غير كافٍ. وفي هذا السياق قال القدّيس غريغوريُس النيسّيّ (Grégoire de Nysse): «إنّ التصوّرات الذهنيّة تخلق الأَصنام. ووحده التأثّر البالغ يقرّبنا من الله». استيلاء الله علينا هو القضيّة.

– **غيتّون:** لقد أسلفنا القول: ينبغي أن نمتلك نفس طفلٍ.

– **أَنتييه:** لقد تأثّرت تأثّرًا بالغًا بشهادة كاهنٍ يتقن الصلاة، الأب

ستان روجييه (Stan Rougier)، الذي اعترف: «كنت أتمتّع بدروسي في الإكليريكيّة، ولكنّ هذه الدروس لم تمكّنّي من الاتّحاد باللّه، لأنّ قسط اللّه فيها كان ضئيلاً جدًّا. كنت أصبو إلى الصمت الكلّيّ، وإلى التجذّر في اللّه، من خلال حياةٍ تأمّليّةٍ. اللّه لا يقيم في قمّة ركامٍ من المعارف. ولا يمكن التقاؤه إلاّ بالدهشة». هل هذا يعني أنّ الإكليريكيّات قد أقعلت عن تلقين الخبرة الصوفيّة؟

– **غيتّون:** وهل هي لقّنتها يومًا؟ إنّ هذه التجربة شخصيّةٌ صرفٌ، على غرار الحبّ.

– **أنتييه:** بمَ نجيب، إذن، غير المؤمنين الذين يدّعون أنّ الإيمان قد بات شأن ماضٍ غابرٍ، وأنّه ضربٌ من الأساطير الشعبيّة، كما نرى في بعض الطقوس الغريبة؟

– **غيتّون:** إنّ من العسير رسم الحدود في هذا المجال، فكلّ عملٍ دينيٍّ يبدو «خرافيًّا» في عين من يراه ولا يؤمن به. في نظري، يتّسم بالخرافة كلّ عملٍ خارجيٍّ منفصلٍ عن موقف الروح والقلب الذي يحدوه وينيره، وكلّ عملٍ يفصل الوسيلة عن الغاية، كلّ عملٍ لا يتخطّى ذاته. إنّه باطلٌ إيمانُ من يرى، في الصلاة والحجّ، على سبيل المثال، ذريعةً للإثراء، وإنّه تشويهٌ للدين اعتبار أيّ إلهٍ أو قدّيسٍ مرتبطًا بطقسٍ سحريٍّ، أو خاضعًا لألاعيب تقنيّة. فعلى نقيض ذلك، جوهر الدين هو تسليم الذات للّه، بمعزلٍ عن أيّة مصلحةٍ، بل إزراءً بكلّ مصلحةٍ، على غرار أبي الإيمان، إبراهيم.

– **أنتييه:** الاستسلام للّه، حبًّا صرفًا. ثمّة كلمةٌ أخيرةٌ عن الأبديّة، التي طالما شغلتك. هل طول عمرك هو الذي جعلك تدرك أنّ لا شيء يكتمل؟

– **غيتّون:** إنّي أعلم أنّ كلّ حياةٍ ينبغي أن تُبتَر قبل أن تكتمل.

فالموت عبورٌ ينفرج عن النور والحقيقة.

– **أَنتييه:** حينئذٍ لن يكون، بعدُ، إيمانٌ، بل يقينٌ، وفرحٌ، واكتمالٌ. وسيكمل الله هبة الحياة التي حبانا بها، بإعلان ذاته لنا، وسننعم برؤيته وجهًا لوجهٍ، على حدّ قول القدّيس بولس. هل تؤمن بذلك؟

– **غيتّون:** بل أعرفه. ومثل «وليم جيمس»، عندما استوضح رأيه في خلود النفس، بوسعي أن أقول: «إنّني أشعر أنّني ناقصٌ، غير مكتملٍ، مجرّد جنينٍ، ومثل طفلٍ وليدٍ، أنا متأهّبٌ، أخيرًا، للحياة».

– **أَنتييه:** وبانتظار ذلك؟

– **غيتّون:** الانتقال من لحظةٍ إلى أُخرى، بلا توقُّعٍ، بلا خوفٍ، وكأنّ الدرب مشرعٌ دائمًا، وكأنّ العون الإلهيّ لا يبارحنا أبدًا. والاستقرار في الله، بفعل إيمانٍ تشترك فيه كلّ قوى النفس. والاستسلام للحبّ، على غرار «إليزابيت الثالوث»: «أن أستقرّ فيك، يا إلهي، جامدةً، ساكنةً، مطمئنّةً، متيقّظة الإيمان، عابدةً، مستسلمةً بكلّيّتي إلى عملك الخلاّق».

– **أَنتييه:** هذا ما ينبغي أن يكون قانون إيمان كلّ مؤمنٍ. فهل بوسعك، الآن، أن تحدّد إيمانك المسيحيّ؟

– **غيتّون:** ها هو: إنسانٌ كان هو الحبّ. وأخيرًا سمع العالم الحبّ يتكلّم. ولكنّ العالم الذي يرفض الحبّ نبذه وصلبه. ووقع الذين كانوا شهودًا على ظهور الحبّ في الاضطراب والبلبال. ثمّ رأوا المسيح خارجًا من القبر وآمنوا بالحبّ. إنّي أومن بكلّ ذلك، إيماني بواقعٍ تاريخيٍّ معجزٍ، ومحاطٍ بسرٍّ قدسيٍّ. هذا يعني أنّ الحبّ قهر الموت، فباتت متوفّرةً لكلّ كائنٍ بشريٍّ المساهمة في أبديّة حياة الحبّ، قاهر الموت.

التناغم

مترادفاتٌ: وحدةٌ، سلامٌ، مشاركةٌ، توازنٌ، اعتدالٌ، صداقةٌ، حبٌّ زوجيٌّ.

أضدادٌ: لاتفاهمٌ، عدم انسجامٍ، خلافٌ، بغضٌ، اضطرابٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «ولكن ها هي الطبيعة تدعوك وتحبّك». (لامرتين)

«بين فردين، التناغم ليس بديهيًّا، بل ينبغي الجهد في الظفر به، إلى ما لا نهاية». (سيمون دي بوڤوار)

تعريفٌ: توافقٌ كاملٌ بين أجزاء الكلّ. تناغم الكون. العيش في «تناغمٍ كاملٍ»، في الأسرة أو في المجتمع.

تناغم الجسم، الذي يحقّق كمال الصحّة، ينجم عن توافقٍ بين مختلف الأعضاء، بحيث يشعر المرء بأنّه «مرتاحٌ داخل جلده». غير أنّ بين الجسد والروح تضامنًا متبادلاً.

يرى الفيلسوف «ليبنز» أنّ الخطيئة، وهي اضطرابٌ يحدثه الشرّ، كفيلةٌ بالقضاء على التناغم الفطريّ الذي أراده الله.

نتيجة التناغم: الفرح الناجم عن التوافق بين الإنسان، ونظرائه، والطبيعة. وتناغم المؤمن ينبع من وعيه الحميم لمخطّط الله في حياته، ومن تنفيذه الحرّ له.

حوارٌ

– **أَنتيبه:** هل التناغم فضيلةٌ؟ وهل التطلّع إلى التناغم يشبه التطلّع إلى الطيبة، مثلاً؟

– **غيتّون:** في ما يتخطّى الجهد والراحة، ثمّة وضعٌ يفوقهما كليهما، يجدر السعي إليه: وهو حالة توازنٍ وتناغمٍ، تتحرّك فيها أعضاء الروح بحرّيّةٍ، حالة رخاءٍ، ولاجهدٍ، ورشاقةٍ.

– **أَنتييه:** فضلاً عن كونك معلّم أخلاقٍ، أنت تتحسّس الجمال، وتنمّيه.

– **غيتّون:** أجل. إنّ اقتران لفظتَي الطيبة والجمال يوحي لي بتناغمٍ جوهريٍّ آنستُه في عزلتي الريفيّة، حيث وجدتُ سرّ الأشياء كلّها: الاعتدال والسلام. فهنا الجمال وطيبة الجمال ينبعثان من كلّ مكانٍ. وكلّ ساعةٍ هي كونٌ كاملٌ، بمناخها، وتوازنها الخاصّ، وامتلائها، وكفايتها.

– **أَنتييه:** وتناغمها. أنا، من جهتي، أجد التناغم في المنظر البحريّ، حيث تمتزج الرقّة المرحّبة، رقّة الأرض الأمّ، بسرّ البحر الذي يدعو إلى الانطلاق. ولكنّ الطبيعة توحي بكلّ ما له نهايةٌ. فكلّ شيءٍ سيذبل.

– **غيتّون:** ليس الشتاء موتًا، بل هو تحوّلٌ في الجمال، ويتّسم بجمالٍ لا نتوقّعه كامنٍ في جمالٍ إلهيٍّ آخر.

ولكنّني أعود إلى وادي طفولتي، وادي «فورنو» في منطقة «كروز». فهناك كان ينبع التناغم من تلاقٍ غير مألوفٍ بين عناصر أربعةٍ: غابٍ، وساقيةٍ، وبرّيّةٍ مستثمرةٍ، وبيتٍ اجتاز القرون. إنّ غابة «فورنو» لا تسحق البيت، بل تكلّله. وساقية «تارد» لا تستلفت الأنظار رغم وسوسة مياهها. في هذا المنظر الفرنسيّ، يجتذب البيت النظر، وكأنّه حدقة عينٍ في محيًّا. ينبغي أن يكون لكلّ كائنٍ منزلٌ، نقطةٌ لا تنقسم، تضمّه وتختزله بكامله. وإن لم يكن لهذا المنزل وجودٌ، فعلى فنّ الحدائق أن يوجده.

– **أَنتيبه:** أَليس فنّ الحدائق هو الذي يبدع التناسق والتناغم؟

– **غيتّون:** أجل. ولكنّ التناغم يولد، أيضًا، من تزاوج الأضداد. ولغاب «فورنو» مناطق عديدةٌ، بعضها ما زال بكرًا موحشًا، وبعضها رُوّض ونُظّم. والمنطقة المنظّمة أُدرجت في الحديقة، بحيث وُجدت، بين البيت، والحديقة، والغاب، أي بين الجانب الذي استكشفه الفتى، والجانب غير المستكشف، محطّاتٌ، ودرجاتٌ. خبرة هذه المحطّات، واستحالة العبور المباشر بين منطقةٍ وأُخرى، التي كنت أصطدم بها، آنذاك، كانت لي، في ما بعد، عونًا، في مقاربتي لقضيّة المسكونيّة، أي قضيّة التناغم بين مختلف أساليب العبادة.

– **أَنتيبه:** أليس التناغم مرتبطًا، أيضًا، بمفهوم المجهول، والسرّيّ، الذي نقف على أثرٍ له لدى أوثق الأزواج وحدةً، حيث يحترم كلٌّ منهم سرّ الآخر، وتناغمه الداخليّ الحميم؟

– **غيتّون:** أجل. كانت الحديقة، خلفَ البيت، تكتنفها الرقّة والحظر، معًا، على غرار البستان الذي أغوت فيه حوّاء آدم. كان الحظر مفروضًا على الجمال، وكان يُمنع اقتطاف بعض الزهور. ربّما هناك راودتني، للمرّة الأولى، فكرة أنّ، في ما يتخطّى البساتين والحدائق، ثمّة ما هو أجمل منها، البستان السرّيّ سرّيّةً مطلقةً، «الفردوس»، المنزل الأخير الخالي والمقدّس، مثل قدس الأقداس في هيكل اليهود.

– **أَنتيبه:** أي التناغم الأقصى الذي يتعذّر بلوغه في هذه الدنيا، غير أنّ مجرّد التفكير فيه يجعلنا نهتزّ طربًا. وتجول بخاطري حدائق طائفة «الزن»[١]، والأديرة «السسترسيّة»[٢]، حيث يتفجّر العمق الروحيّ من صميم البساطة.

---

(١) فرقةٌ بوذيّةٌ دعت إلى التأمّل سبيلاً إلى الجمال، وأسهمت في تطوير الفنون اليابانيّة.

– **غيتّون:** هذه الفكرة نجدها، أيضًا، لدى الصوفيّين والشعراء. فداخل كلّ كائنٍ قطاعٌ لا يجوز اقتحامه، تناغمٌ لا يوصف، شيءٌ صامتٌ أو يتعذّر التعبير عنه. إنّ جميع الذين، على غراري، ينعمون بمعرفة قراءة الكتاب المقدّس، يعهدون النشيد المتناغم، الذي يمثّل، داخل الكتاب، بستانه السرّيّ.

– **أَنتييه:** البستان السرّيّ الداخليّ هو القاعدة التي يقوم عليها كلّ التناغم الإنسانيّ. هذا البستان الداخليّ هو الذي ينبغي نشدانه، والعثور عليه، والعناية به بحبٍّ... وحينئذٍ سيشاهد تفتّق الفضائل التي تحاكي زهورًا هشّةً: الرقّة، والسلام، والطيبة. وقد لا يكون عمرٌ بكامله كافيًا لتحقيق التحوّل في سبيل هذا التناغم، الناجم عن خلق التناغم حول الذات.

– **غيتّون:** عندما ينأى المرء عن صخَب حياة المدينة، يشعر في داخله بمولد صبوٍّ سرّيٍّ إلى التناغم، يعبّر عن ذاته بكتمانٍ، مثل نبعٍ مخفيٍّ تحت الطحالب. هذا ما ينبغي العثور عليه، من أجل تحويل ما، في داخلنا، يتعذّر التعبير عنه أو حلّ لغزه، وما هو كنزٌ خفيٌّ، إلى جمالٍ وطيبةٍ.

– **أَنتييه:** وما السبيل إلى ذلك، واقعيًّا؟

– **غيتّون:** مثلما يعامَل البستان. أي ينبغي العناية به، بشغَفٍ، يومًا إثر يومٍ، والشروع بتنظيفه، وإصلاحه، وتشذيبه، أي ينبغي الولوج إلى حميميّة الذات، وفي كلّ مساءٍ ممارسة ما كان يُدعى، سابقًا، فحص الضمير، والتساؤل: أيٌّ من أعمال نهاري انتهك الصدق، والمحبّة، والحبّ، وبالإجمال جرح التناغم؟ وبعد ذلك يقدم المرء على الغرس في البستان المعدّ، النظيف. الغرس هو زرع بذار ما هو مدعوٌّ إلى الولادة، والنموّ، من أجل إشاعة الجمال، والظلّ والتناغم، والغذاء. ويبدو لي أنّ المطالعة هي الوسيلة المثلى للعناية بهذا البستان.

– **أَنتييه:** وماذا عن الموسيقى؟

– **غيتّون:** كلّ ما يؤمّن التناغم جيّدٌ. وهكذا يُقام بستانٌ سرّيٌّ، يصبح ملجأً في ساعات الشكّ والجفاف. وإنّ المساء لوقتٌ ملائمٌ لهذا الخلق، عندما يسدل الليل رداءه على المدينة وعلى الريف. ويدرك المرء أنّه نجح، عندما تصبح دعوة ساعة المساء في مثل إلحاح العطش. ولا يتصوّر الناس كم يسهل تحقيق ذلك، على أن يمتلك المرء زاويةً صغيرةً لذاته، وقليلاً من الصمت والعزلة.

– **أَنتييه:** ألا تنطوي هذه الخطوة على غوايةٍ، وعلى خطر التردّي إلى الأنانيّة؟

– **غيتّون:** من مضى في هذا المسعى حتّى غايته، ينأى عن هذا الخطر. فمن يستطيع، في جوارنا، أن يشكو من رؤيتنا أكثر توازنًا، وسعادةً، وتناغمًا، وأوفر قدرةً على تطويق الخلافات؟

– **أَنتييه:** هل بوسعنا تعميم مفهوم التناغم هذا على مجتمعاتنا البشريّة؟ وهل بوسعنا لمّ شمل هذه البشريّة الموغلة في التعقيد، والتضارب أحيانًا، والتي تبدو وكأنّها برج بابل؟ فلنحلم، ولنتخيّل الشرق والغرب متصالحَيْن، ليس فقط في ميدان الإيمان، بل محقّقَيْن تناغمًا بين الثقافات، بحيث يُغني كلٌّ منهما الآخر، بخير ما لديه.

– **غيتّون:** من المحقّق أنّ الشرق والغرب، مثل أخوَيْن منفصلَيْن، أو بالحريّ مثل نصفيْن لكونٍ واحدٍ، ينبغي أن يتبادلا النصح، والعون، وأن يُعطي كلٌّ منهما الآخر ما يفتقر إليه.

– **أَنتييه:** وبذلك يتحقّق ذلك التناغم الذي يبدو أنّ البشريّة تفتقر إليه افتقارًا موجعًا، وتتوق إليه. فلنحلم به.

تاريخيًّا تعود القطيعة إلى القرن الثامن عشر، عندما اختار «العلماء» للغرب، في إثر ديكارت، ونيوتن، وبيكُن، نظرةً ميكانيكيَّةً إلى

العالم، نمّتها «طريقةٌ» عقلانيّةٌ دقيقةٌ. ولم يعد الروح هو أساس العالم، بل المادّة. وغدا «الواقع» آلةً ضخمةً يمكن تفكيكها من أجل مراقبة أجزائها الأساسيّة. هذه النظرة الاختزاليّة شملت، أيضًا، الروح الذي اعتُبر من نتائج المادّة، عوضًا عن اعتبار المادّة نتيجةً للروح. وكلّ ما تعذّر «اختزاله»، وتحويله إلى مادّةٍ، مثل الصوفيّة والحدْس، أُنكر، وهكذا قُضيَ على النظرة المتناغمة، وغير المجزّأة، إلى الكون، وعلى المفهوم العميق والمتكامل لطبيعة المادّة والروح البشريّ. واليوم يتألّم الغرب من علمٍ واهمٍ يجعل من الحيّ آلةً.

– **غيتّون:** مع الإغريق والرومانيّين، وُلدت آلة التفكير البشريّة في الغرب، واكتسبت، في ما بعد، تقنيّةً عاليةً مكّنتها من السيطرة على العالم. وكانت تمتلك، أيضًا، دينًا ساميًا، دين الإله الواحد المتجسّد، الذي كان يوفّر لها الحكمة. وكان يتعيّن على الغرب أن يكون قدّيسًا لكي تكون حضارته خاضعةً للروح، وتقنيّته خاضعةً للحكمة. وربّما كانت مطالبته بذلك تتخطّى استعداداته.

– **أَنتييه:** غير أنّه لا يمكن إنكار فضل الفلسفة الشرقيّة على الغرب. ولكنّ المستغرب هو أنّ البذرة تبدو وكأنّها فقدت قدرتها على الإنبات، حتّى إن اعتُرف بصلاحيّتها. لقد راجت مؤخّرًا النشرات التي تتكلّم عن الحكمة الشرقيّة، ولكنّها تفتقر إلى الجوهر: التناغم.

– **غيتّون:** أجل مفارقةٌ مدهشةٌ. فالغربيّون المحبَطون بفضل اتّصالاتهم بالشرق، بالعالم اليهوديّ، وبالإسلام، وبالهندوسيّة، وبالصين، أدركوا ما يكمن فيهم من بذورٍ روحيّةٍ لم يكونوا يستثمرونها. وليس من يجهل الهزّة التي أحدثتها في نفس حفيد «رينان»، «إرنست پسيكاري» مشاهدته للتقوى الإسلاميّة. لقد احتاج إلى صوت المؤذّن، وصمت الصحراء، كي يكتشف العبادة.

– **أَنتييه:** تلك كانت، أيضًا، مسيرة «شارل دي فوكو». ولمَ كنّا

في حاجةٍ إلى غاندي كي نتعلّم، من جديدٍ معنى «التطويبات»، والصلاة التي كان يدعوها مفتاح الصباح، ومزلاج المساء؟

– **غيتّون:** هذا هو السؤال عينه الذي طرحه بوناپارت على شاتوبريان لدى عودته من مصر: «ما هو هذا المجهول الذي يعبده الشيوخ، وسط الصحراء، وهم متوجّهون نحو الشرق؟»

– **أَنتييه:** ليس الشيوخ فقط، بل الجمّالون البسطاء، والعبيد السود. إنّه الإله ذاته الذي يدعونا. إنّه التناغم الأسمى عينه.

– **غيتّون:** الشرق يتأمّل، فيما الغرب يعمل. كلّ شيءٍ موفَّرٌ له، ولكنّه لم يجد، يومًا، السبيل إلى تفهّم وتنظيم هذه «الراحة» التي هي نبع العمل.

– **أَنتييه:** مع أنّ الإغريق كانوا يمتلكون الحكمة.

– **غيتّون:** الغرب يعلّم الحكمة ولكنّه لا يمارسها، فهو منهمكٌ بانشغالاتٍ كثيرةٍ. وليس العالم له، كما هو للشرق، مجرّد مظهرٍ، بل هو صلصالٌ كثيفٌ لا بدّ من تحريكه. إنّه يعمل، وينتج، وورشته قائمةٌ أبدًا. الخميرة المسيحيّة تنفث في الغرب قلقًا دائمًا، ومعنى الخطيئة، واليقين بأنّ، ثمّة، دائمًا، إمكانيّة إصلاحٍ، أو تقدّمٍ، أو إعادة تنظيمٍ، والرغبة في تبادل الخيرات والأفكار، والحاجة إلى الدعاوة، والنفور من السكون.

– **أَنتييه:** يبدو أنّ الأبديّة منفسحةٌ أمام الشرقيّين. في حين أنّ للّحظة الراهنة، عندنا، قيمةً لانهائيّةً. هم يمزجون الروحيّ بالزمنيّ. فمن هو المصيب؟ وأين هو التناغم؟

– **غيتّون:** الشرق يخلط، والغرب يميّز. والحرّيّة الناجمة عن هذا التمييز هي قيمةٌ غربيّةٌ. ومن ثمّ يحتاج الغرب والشرق أحدهما إلى

الآخر، كي يظفرا بالامتلاء، ويعثرا على التناغم. لقد تجاهل أحدهما الآخر مدى قرونٍ. ثمّ، بمناسبات الفتوحات الاستعماريّة، نظر أحدهما إلى الآخر، وتساكنا، وتلامسا، أحيانًا. ولو اتّحدا، أخيرًا، لَفاء الغرب إلى الراحة، ولأقدم الشرق على العمل، ولَعرفت البشريّة التناغم.

– **أَنتييه:** أظنّ أنّ الشرق قد وجد السبيل إلى العمل. انظر إلى اليابان، وكوريا الجنوبيّة، وتايوان، وهونغ كونغ، وآخرين كُثُرٍ. وها إنّ الصين تستيقظ، فعسى ألاّ يغالي الشرق في الاصطباغ بالطابع الغربيّ، وألاّ يفقد قِيَمه الروحيّة. ولعلّه يفلح في تحقيق تكاملٍ متناغمٍ.

– **غيتّون:** المعضلة الأولى، الكامنة في أساس كلّ المعضلات الأُخرى، هي التناغم بين الجسد والروح، بين الإيمان والعقل، بين العمل والراحة. هذه المعضلة تقضّ مضجع غربنا منذ قرونٍ. وهنا لا يسعني إلاّ أن أورد كلمة القدّيس بولس، ذلك الرجل الذي كان مجلّيًا في عقلانيّته، وإنجازاته التأسيسيّة، وإيمانه: «لقد أنجزت مسيرتي، وحفظت الإيمان». لقد حقّق التناغم بين العمل والتأمّل.

– **أَنتييه:** ألا يمكن إيجاز قضيّة هذا التناغم في هذا القول للشاعر «رنبو»: «سأتمكّن من امتلاك الحقيقة في نفسٍ وفي جسدٍ»؟

– **غيتّون:** أجل. هذا هو رجاؤنا.

التواضع

مترادفاتٌ: كتمانٌ، اتّضاعٌ، تجرّدٌ، بساطةٌ.

أضدادٌ: ادّعاءٌ، كبرياء، زهوٌ، خُيلاء، صَلَفٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «حيث التواضع، هناك المحبّة». (القدّيس أوغسطينُس)
«الأكثر سخاءً، هم، عادةً، الأكثر تواضعًا». (ديكارت)
«في ميدان التواضع، لستُ أفهم الكثير. ولكنّي أعلم أنّ الله موجودٌ، وأنّني لا شيء». (مارت روبان)
«التواضع هو المدخل إلى جميع الفضائل». (مارسيل إيميه)

تعريفٌ: كلمة التواضع في اللغات الغربيّة مشتقّة من لفظة لاتينيّة تعني التربة المكوّنة من نباتٍ منحلٍّ، كي تذكّر الإنسان بأنّه ترابٌ وإلى التراب يعود.

«جانكيليفتش» ينوّه بطابع المفارقةِ في مفهوم التواضع، فهو «ضئيلٌ وعظيمٌ معًا، وأساس الفضائل». لمَ هو الأساس؟ لأنّ التواضع هو اعتراف الإنسان بحقيقة واقعه: أي إنّه قليل الشأن. وانطلاقًا من هذا الاعتراف، يتحوّل مجرى الحياة، ويكفّ المرء عن العيش في كذب المغالاة، الذي ينفّر الآخرين منه. وفي هذا السياق يقول القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم: «إن كان الصِغَر هو حقيقتنا، فما من فضيلةٍ مبرَّرةٌ أكثر من التواضع، وما من خطإٍ أفدح عاقبةً من الكبرياء».

في كلّ درجات التراتب الاجتماعيّ، التواضع يفترض الطاعة، المبنيّة على القِيَم المعترف بها، طاعةً ليست عبوديّةً، بل هي موافقةٌ حميمةٌ وفرحةٌ تنبع من كلّ الكيان، وتشمل الأبناء تجاه الآباء، والتلاميذ تجاه المعلّمين، والموظّف تجاه ربّ العمل، والمواطن تجاه الدولة، والمؤمن تجاه الله. ولكنّ الناس باتوا، اليوم، يعتبرون أنّ كلّ خضوعٍ هو موجعٌ ومذلٌّ.

كلّما ازداد الإنسان غنًى تعيّن عليه أن يوغل في التواضع، احترامًا للفقراء، ومتذكّرًا أنّ جميع البشر متساوون أمام الموت، وأنّهم سيُحاكمون على مدى حبّهم.

وهكذا، على حدّ قول «جانكيليفتش»، «يبقينا التواضع على صراط البراءة المستقيم»، ويقينا من الزهو الذي يولّده مجتمعٌ قائمٌ على الرأي العامّ، والتعطّش إلى الظهور، ويدمّر «تشنّج التبجّح، ويبدّد الحاجة الوبيلة إلى الإبهار، ويقضي على الأنانيّات الباطلة».

أمّا الفقير، فثوابه أعظم إن هو ظلّ متواضعًا، ولكن غير مستسلمٍ.

حوارٌ

– **غيتّون:** لست أستسيغ التحدّث عن التواضع، إذ يساورني شعورٌ بأنّني أخدع القارئ. ومن العسير تعريف ما هو متواضعٌ، إذ إنّه غالبًا دليل كبرياء خفيّةٍ. التظاهر بازدراء الذات هو، غالبًا، وسيلةٌ لتمجيد الذات.

– **أنتيبه:** لقد رووا لي هذه القصّة، وربّما هي صحيحةٌ. فقد تنامى إلى سمع أسقفٍ أنّ، في أحد الأديرة، راهبةً، تمتاز بفضائل فائقةٍ، فهُرع إلى ذلك الدير، وقال للأخت التي فتحت له الباب: «أنا قادمٌ لأرى القدّيسة، فأجابته: «أنا هي، سيّدنا!»

ولكن دعنا من المزاح، وأرجو أن ترسم لي لوحة الإنسان المتواضع.

– **غيتّون:** إنّني أستذكر صديقي «لوي شيني» (Louis Chaigne) وهو كاتبٌ فرنسيٌّ، وناقدٌ أدبيٌّ: (١٨٩٩– ١٩٧٣). لقد كان ظلاًّ خصبًا، صمتًا في قلب باريس، مستمعًا بشغفٍ إلى الآخرين، ذكاؤه انفتاحٌ وترحيبٌ. كان يستقبل كلّ طالبي النصح، أو العون، ويدعم كلّ ما هو فيهم طاهرٌ، صادقٌ وخالدٌ. وتساءلت: «لمَ لم يُصِبْ مزيدًا من الشهرة؟». تخفّيه كان نابعًا من جوهره، من نوعيّة استفساره، من اتّزانه، ومن ذلك الصمت الذي يحيط به الإنسان الكريم ذاته. كان

في عقله صلاةٌ. وكانت لديه دعوةٌ، نادرةٌ لدى الكتّاب، إلى عدم الرغبة في الظهور، وقد آثر عليها الرغبة في «الكينونة»، أو بالحريّ، في الظهور لقلّةٍ فقط، والكَلَف بسكب بضع قطرات عزاءٍ وتشجيعٍ، ورقّةٍ مكتومةٍ، وصمتٍ، ونورٍ هادٍ، هنا وهناك.

– **أنتييه:** هذه اللوحة الرائعة تنطبق، أيضًا، على معلّمك العجوز، الأب «پوجيه».

– **غيتّون:** أجل، بالتأكيد! وقد روى لي قصّة دعوته. فبما أنّه كان، في صغره، واعدًا جدًّا، أبعدوه عن القطعان التي كان يحرسها، في منطقته «كانتال»، وأدخلوه إلى الإكليريكيّة. وخطرت له فكرة الانتماء إلى الجمعيّة اليسوعيّة، بسبب غنى مكتبتها. ولكنّه قال في نفسه: «سيدفعونني إلى الأمام. فلأمضِ، إذن، إلى الآباء اللعازريّين، حيث سأظلّ مُغفَلاً». وكان من شأن هذا التفكير المغرق في التواضع، أن يدفنه إلى الأبد، لو لم نكتشفه، ذات يومٍ.

– **أنتييه:** وكان كتابك «وجه السيّد پوجيه» مكافأة هذا التواضع الذي شاء، من خلاله، ألاّ يكون شيئًا. وإنّي ألاحظ أنّ التواضع الحقّ هو نبلٌ في النفس نجده لدى أفراد الشعب، مثلما نجده في قمّة الطبقات الاجتماعيّة. ويخطر ببالي الآن الفيكونت شارل دي فوكو الذي ابتغى أن يكون «آخر الإخوة وأصغرهم».

– **غيتّون:** والبابا يوحنّا الثالث والعشرون، الذي باح لي، يومًا: «لم أسعَ إلى التألّق بثقافتي ومعرفتي، ولكنّني جهدتُ في التمثّل بيسوع الوديع والمتواضع القلب. نهجي هو البساطة والطيبة». وبتواضعه أشرع لكنيسةٍ تراودها مشاعر «الانتصار»، آفاقًا جديدةً.

– **أنتييه:** ما هو نقيض التواضع؟

---

(١) سپينوزا (١٦٣٢– ١٦٧٧) فيلسوفٌ هولنديٌّ.

– **غيتّون:** الكبرياء، ولكنّه من الصعب التمييز بين خيوط الكبرياء، وخيوط ما يسمّيه سپينوزا[1] «فيلوسيا»، أي حبّ الذات الفاضل، والذي يحدّ من مخاطر تربيةٍ كانت، قديمًا، تسلب الفتى ثقته الطبيعيّة في قدراته، وتجعله متبصّرًا قبل الأوان.

– **أَنتييه:** الرجال العظماء، المتواضعون حقًّا، قليلون جدًّا. فهل عرفت بعضًا منهم؟

– **غيتّون:** «ألبير كامو» (Albert Camus). تواضعه كان نابعًا من تقييمه لإنتاجه. وكان يستسيغ قول «فلوبير»[1]: «الروائع تحاكي الحيوانات الكبيرة، بسكون وجهها».

– **أَنتييه:** من النادر العثور على كاتبٍ متواضعٍ. يخطر ببالي المرحوم «هنري كيفّيليك» و«ج. م. ليكليزيو». فمهنة الأَدب، كمهنة الفنّ، لا تحرّض على التواضع، واليوم لا بدّ للكاتب من أن يعرّف بنفسه، كي يثبت وجوده.

– **غيتّون:** يوم تسلّمه جائزة نوبل في الآداب، حافظ «ألبير كامو» على ذلك التواضع الذي كان جوهريًّا فيه. ومع أنّه كان كائنًا نابضًا، مرتعشًا، مفعمًا هوًى، كان يرتاح إلى ضربٍ من ظلّ ذاته يلقيه على ذاته. هذا، أيضًا، هو التواضع.

– **أَنتييه:** وهل أنت، يا جان غيتّون، متواضعٌ؟ «دوم نوربير كالميلز»، الذي رسم صورتك، في كتابٍ عنك، أكّد أن «موهبتك تعمل في ظلّ تواضعك».

– **غيتّون:** لم يكن هذا رأي الكردينال أنجيلو رونكالّي الذي أصبح البابا يوحنّا الثالث والعشرين، يوم زرته عام ١٩٥٠، وكان، حينذاك، قاصدًا رسوليًّا في باريس. وكان أحد كتبي عن العذراء مريم مهدّدًا

---

(١) غوستاف فلوبير (Gustave Flaubert) (١٨٢١–١٨٨٠) من أشهر الروائيّين

بالحظر من قبل المجمع المقدّس في روما، فقال لي بلطفٍ: «إنّك تغالي في استخدام فلسفتك، يا سيّد غيتّون. وإنّي لأنصحك بالتمثّل بتواضع يسوع المسيح، كما أتمثّل به أنا نفسي». وتقبّلت نصحه بتواضعٍ، وعدّلت كتابي.

- **أَنتييه:** أتعلم أنَّ «پاسكال» كان يندّد، بعنفٍ، بما يدعوه «صَلَف الفلاسفة»؟

- **غيتّون:** أعترف أنّني ارتكبت خطيئة الكبرياء. لم أكن قطّ مزهوًّا، فالزهو هو حبّ الأشياء الباطلة. ولكنّني أعوّض عن الزهو بالكبرياء. الزهو هو التماس تقدير الآخرين. أمّا الكبرياء فهي التمتّع بتقدير الذات. ولكنّني أمضي إلى أبعد من ذلك. فكبريائي أكثر مكرًا، وأستمدّها من كوني متواضعًا. بوسع «دوم نوربير» أن يمتدح اتّضاعي و«امّحائي». ولكن، للأسف، اتّضاعي خطأٌ باهظٌ. إنّه الرغبة في أن أُمتدح مرّتين.

- **أَنتييه:** لست أظنّ أنّك مُمَّحٍ، بل أنت متواضعٌ. والأمر مختلفٌ.

- **غيتّون:** ما الذي يدفعك إلى هذا القول؟

- **أَنتييه:** زوجتك كانت تراك «بريئًا». ومنذ كنتَ في المعهد، كانوا يسمّونك «البراءة المقدّسة». والبريء هو ساذجٌ متواضعٌ. وهذه فضيلة الطفولة.

- **غيتّون:** إنّني بريءٌ، ولكنّني مدركٌ لذلك. وهنا تكمن المشكلة (حرفيًّا «هنا تجرح البردعة ظهر الحمار») ولكن لا يولد المرء متواضعًا، بل هو يصبح متواضعًا، أحيانًا، ولاسيّما عندما يدمغ العمر فكرك بألم الجسد المبتلى بالشيخوخة.

- **أَنتييه:** أجل. إنّ الألم يعلّمنا التواضع، كما تشهد بذلك «مارت روبان».

– **غيتّون:** الألم مصدر معرفةٍ. لقد عثرت على هذه الخاطرة لأُمّيٍ عن الألم، وإنّي أتغذّى بها: «إنّ فكرًا مقتنعًا بوهنه وعدمه، وإرادةً خاضعةً، لا يكفيان لصنع قلبٍ متواضعٍ. بل لا بدّ من أن يُضاف إليهما الألم، الذي يتعيّن تقبّله بلا ثورةٍ، وفي كلّ بساطته. وحينئذٍ عندما يشرع الألم يفعل فينا فعله، وهو النفاذ إلى النفس وبثّ نفحة الله فيها، يسكن القلب، ويتّضع، وينحني، وأخيرًا يذوب وتقهر الكبرياء. وكلّما بكى إنسانٌ دنا من طفولته، داخليًّا».

– **أَنتيه:** هل يمكننا أن نتخيّل غدًا يلزم فيه كلّ امرئٍ مكانه، ولا يسعى أحدٌ إلى سحق الآخر؟ أليس هذا هو شأن الجميع؟

– **غيتّون:** أجل، بالتأكيد! لقد سأل صحفيٌّ الأمّ تيريزا: «ما هو، اليوم، الخطأ في عالمنا؟» فأجابت: «الخطأ، يا سيّدي، هو أنت وأنا».

– **أَنتيه:** التواضع هو اختصاص القدّيسين، وهو السبيل الإلزاميّ إلى التجربة الصوفيّة.

– **غيتّون:** عندما يخلق الروح التواضع في ذاته بالفراغ، ويتجرّد من ذاته، يشرع في تنمية قدرات الدهشة، والتجدّد، والحبّ. وقد قالت القدّيسة تيريز الطفل يسوع: «لأنّني كنت صغيرةً وضعيفةً، تنازل يسوع، وانحنى نحوي، ولقّنني، سرًّا، شؤون حبّه».

– **أَنتيه:** كلّ مدارس الروحانيّة، المسيحيّة أو الشرقيّة، تؤكّد على ضرورة محو الأنا.

– **غيتّون:** ننطلق من تبيّن صغرنا بالقياس إلى الكلّ الذي هو منشأنا. التواضع هو أن نكون صادقين أمام الله كي نتقبّل هبة حبّه. هذه هي الفضيلة الأولى التي يتلقّنها الرهبان. هذا التواضع يتوافق، باسم الحقيقة، مع ضربٍ من احترام الذات، أي مع تلك الخليقة الكفيلة بالتصعيد في معارج الكمال، على صورة الله.

العدل

– **مرادفاتٌ:** إنصافٌ، استقامةٌ، دقّةٌ.

– **أضدادٌ:** ظلمٌ، إجحافٌ.

– **أقوالٌ مأثورةٌ:** «حيث يسود العدل، على الحرّيّة أن تخضع». (مونتغمري)

«عدلٌ بلا قوّةٍ، وقوّةٌ بلا عدلٍ، مصيبتان مريعتان». (جوبير)

«العدل أقلّ كلفةً من المحبّة». (آلان)

«طوبى للجياع إلى البرّ، فإنّهم سيُشبعون». (يسوع، متّى ٥ : ٦)

تعريفٌ: العدل هو ما يتوافق مع الحقّ. إنّه أولى الفضائل الأربع الأساسيّة، وفق أرسطو، مؤسّس علم الأخلاق. وهو يقتضي احترام حقوق الآخرين. يقول «جانكيليڤتش»، في هذا السياق: «العدل هو معهد القِيَم، واحتجاج العقل على العنف، وعلى غريزة الأنانيّة والجشع. وهو يكافح لا من أجل مضاعفة القوّة، بل لكي يعوّض عن الضعف. إنّه الثأر الصامت، فائق الطبيعة، والذي لا غنى عنه، عاجلاً وآجلاً، للمغلوب، الذي يملك الحقّ إلى جانبه. إنّه يذود عن الضعف الأعزل في مواجهة العنف الهائج، وعن الحقّ المنتَهَك، في مواجهة القرصنة المنتصرة».

العدل، إذن، يفرض ثورةً على نظام القوّة البهيميّة التي سادت العالم طيلة ملايين السنين، وأفضت إلى القضاء على الضعيف عملاً بشريعة التطوّر، والانتقاء الطبيعيّ. وهكذا باسم ضعفه، وباسم الحبّ، أمست الأولويّة للضعيف، وأُطيح بنظام قِيَمٍ بائدٍ. وشاع مفهومٌ جديدٌ يقضي بتوقّف حرّيّة عملنا حيث تبدأ حرّيّة الآخرين. وليس هذا بالأمر اليسير، فالقويّ، إن لم يكن صالحًا، يتعرَّض، دائمًا، لغواية التنكيل.

وأيضًا، في سبيل وضع نهايةٍ للحروب، اخترع الحكماء، ذات يومٍ، العدل. يقول «كونت سپونڤيل» في هذا الشأن: «إنّ العادل يضع قوّته في خدمة الحقّ، رغم مظاهر اللامساواة. ولا بدّ من أن يقاوم كلّ امرئٍ الظلم الذي يحمله في ذاته، وهو ذاته».

على العدل أن يكون فطريًّا، ولكنّه ليس كذلك. فكلّ إنسانٍ حريصٌ على مصلحته الخاصّة. ولذلك ابتُدع «الحقّ»، وهو نظامٌ قانونيٌّ يحدّد قواعد الحياة في المجتمع. وهو ينزع، رغم ما يلقاه من مقاوماتٍ، إلى أن يكون، تقريبًا، متشابهًا في كلّ مكانٍ من العالم.

ثمّة أقلّيّةٌ تعارضه، وتسعى إلى انتهاكه. هذه الأقلّيّة تتألّف من السارقين، والقتلة، والمغتصبين، والمزوّرين، وشتّى المجرمين، والدول التوتاليتاريّة. إنّهم يعارضون العدل الذي عرفّه «كنت» (Kant)[1] هكذا: «عادلٌ كلّ عملٍ يتيح للإرادة الحرّة، لدى كلّ فردٍ، التعايش مع حرّيّة كلّ إنسانٍ آخر وفق شريعةٍ عالميّةٍ شاملةٍ».

العدل، إذن، يبتغي إقامة ضربٍ من المساواة بين القويّ والضعيف، بين العالم والجاهل. ولتحقيقه لا بدّ من قداسةٍ، إذ ما زالت الأنانيّة هي المهيمنة، لدى كلٍّ منّا. ولذلك الشرائع هي ضروريّة. وقد قال پاسكال: «ينبغي قرن العدل بالقوّة». وذاك هو دور السياسة التي تصنع الشرائع.

ولكن، بما أنّ الأوضاع والأقوام تتباين، فالشرائع تفتقر إلى الليونة حيال تعدّد الأوضاع والأطباع اللامحدود. ومن ثمّ، يوجد، إلى جانب العدل، الإنصاف، وهو ضربٌ من العدل الملتصق بالأرض، والذي يحدّ من قسوة الشرائع النظريّة المجرّدة. وقد قال أرسطو: «الإنصاف هو الصفح عن الجنس البشريّ»، وهذا يؤكّد أولويّة المحبّة على العدل البارد. يقول «جانكيليڤتش»: «العدل هو مصحّح اللامساواة المنتظم، إنّه يصيب البُغض بالعجز، وإن لم يجفّف منبعه. إنّه استمرار النظام الذي يقوده من خطإٍ إلى خطإٍ عبر كسوفاتٍ وانقطاعاتٍ. غير أنّ الحبّ، وهو استمرار العدل وإرادته، هو الضمان الوحيد والدائم

(١) إيمانويل كنت (١٧٢٤ – ١٨٠٤) فيلسوفٌ ألمانيٌّ شهيرٌ.

للسلام». «العدل يقيس قيمة الإنسان بمقياس استحقاقه، وقيمة الأشياء. أمّا المحبّة، فلا قياس لها».

حوارٌ

– **أَنتيبه:** يقول القدّيس أوغسطينُس: «العدل هو الفضيلة التي تعيد لكلّ امرئٍ حقّه». فكيف يمكن تحديده بالقياس إلى الفضائل الثلاث الأساسيّة الأخرى؟

– **غيتّون:** العدل، وحده، «فاضلٌ». فبوسع السارق أن يكون حذرًا، معتدلاً، وشجاعًا. ولكنّه ليس عادلاً. وهذا ما يحدّده «كَنْت» بقوله: لا يمكن أن يُعَدّ شيءٌ صالحًا سوى الإرادة الحسنة. وهذا ما ينطبق على العدل. ولم يجانب أرسطو الصواب عندما وصف العدل بأنّه «فضيلةٌ كاملةٌ».

– **أَنتيبه:** ولكن قد لا يخلو العدل، أحيانًا، من البرودة، وعلى حدّ قول «جانكيليفتش»: «يحتفظ العدل بعقلٍ باردٍ، ولا يضعف أمام إغراءات التسامح». لا غنى عن العدل في سبيل الحفاظ على تناغم العلاقات البشريّة، ولكنّه يُحدث، أحيانًا، انطباعًا بالضيق. لماذا؟

– **غيتّون:** العدل يهتدي بمثالٍ أعلى ممعنٍ في السموّ، وهو من ثمّ، صعبٌ. كان الرومانيّون يقولون: «الشريعة قاسيةٌ، ولكنّها الشريعة». والصعوبة تكمن في إقحام الرأفة في العدل، مع مراعاة عدم التردّي إلى الفلتان والوهن.

– **أَنتيبه:** ذاك هو جوهر مشكلة التعويض عن العاطلين عن العمل، القائمة حاليًّا، ومشكلة البؤس، أيضًا. حديثًا كان على محكمةٍ أن تبتّ في قضيّة امرأةٍ سرقت موادّ غذائيّةً منتقاةً، كي تدلّل أبناءها الذين لم يكونوا يتغذّون إلاّ بالمعجّنات. وقد بُرِّئت. ولكنّ النيابة العامّة استأنفت الحكم، وأدانتها المحكمة بعقوبةٍ خفيفةٍ مؤجّلة التنفيذ.

– **غيتّون:** إنّها وسيلة حكمٍ جيّدةٍ. فالمحكمة طبّقت القانون، أي العدل، ولكنّها بتعليق تنفيذ العقوبة مارست الرأفة.

– **أَنتيبه:** قال فرنسوا مورياك: «مريعٌ هو العدل بمعزلٍ عن المحبّة». والقدّيس بولس أكّد أنّ المحبّة تتفوّق على كلّ شيءٍ. غير أن «ڤيكتور هوغو» يعترض: «من السهل أن يكون المرء طيّبًا، ولكن من العسير أن يكون عادلاً». فهل للمحبّة وللطيبة الأولويّة على العدل؟

– **غيتّون:** يجيب «شامفور» إجابةً جميلةً: «على الإنسان أن يكون عادلاً قبل أن يكون سخيًّا، مثلما عليه أن يمتلك قمصانًا قبل أن يوشّيها بدانتيلاّ».

– **أَنتيبه:** هل يمكن أن يرتكب المرء ظلمًا باسم قضيّةٍ صالحة؟

إنّ وضع قنبلةٍ تحت كرسيّ رئيس دولةٍ منتخبٍ، ليس عدلاً. ومع ذلك حاول الكولونيل «شتوفنبرغ» فعل ذلك بهتلر، وكان فشله موضع أسفٍ عامٍّ. وهل ثمّة ما يبرّر لجوء لصٍّ إلى سرقة مصرفٍ بغية توزيع المال على الفقراء؟

– **غيتّون:** هذه الحالات الخاصّة القصوى، تُظهر صعوبة تحديد العدل، وهذه الصعوبة تنسحب، أيضًا، على الطاعة. فأين هو العدل، عندما يكون النظام سيّئًا؟ لا مخرج من هذا المأزق سوى الحذر والفطنة.

– **أَنتيبه:** هذا ما حدّده أرسطو، وأضاف أنّ لا وجود للعدل إلاّ في التساوي بالحقوق: «العدل هو ما يتطابق مع القانون، وما يحترم المساواة».

– **غيتّون:** ولذلك ما من عدلٍ إنسانيٍّ، بمعزلٍ عن العدل الاجتماعيّ، أي بمعزلٍ عن المحبّة والحبّ. ولكن ينبغي عدم الخلط بين العدل والمحبّة. فالمحبّة، وإن كانت مستحسنةً، لا يمكن فرضها

بالقوّة كالعدل. إنّها تُكمل العدل وتؤنسنه. إنّ الاقتصار على تحقيق العدل لا يولي أيّ استحقاقٍ. بيد أنّ العدل هو شرطٌ ضروريٌّ للمحبّة.

– **أَنتيبه:** ما السبيل إلى تحقيق العدل في عالمٍ حيث كلّ امرئٍ تلقّى، منذ مولده، قسطًا كبيرًا أو ضئيلاً من الخصال أو من الإعاقات؟

– **غيتّون:** هنا يحاول العدل تحقيق التوازن. وليس ذلك بالأمر السهل، إذ لا بدّ من احترام النظام. القانون يحمي اللامساواة في الثروات، ويشجّع العمل والذكاء، ولكنّه يُحسن صنعًا بإعادة توزيع الأرباح، عن طريق الضرائب.

ليس العدل فضيلةً إلاّ إذا كان قيمةً. وليس المهمّ، فقط، تطبيق القانون.

– **أَنتيبه:** ومن ثمّ مهنة القاضي وعرةٌ، ومهنة المحامي خطرةٌ جدًّا! والحكم صعبٌ. وهنا تبرز المفارقة التي عبّر عنّها پاسكال بقوله: «هناك نمطان من البشر لا ثالث لهما: البعض أبرارٌ يعدّون أنفسهم خطأةً، وآخرون خطأةٌ يعدّون أنفسهم أبرارًا».

– **غيتّون:** هكذا تُطرح القضيّة جيّدًا. فليس، ثمّة، عدلٌ إنسانيٌّ، ولا يمكن للعدل إلاّ أن يكون لاهوتيًّا، إلهيًّا، أي مهتديًا بمثلٍ أعلى مطلقٍ، وبالحاكم الأسمى.

– **أَنتيبه:** حتّى قبل المسيحيّة أدلى الشاعر اللاتينيّ «لوكريس» بهذا القول الرائع: «إنّه من العدل أن يرأف الجميع بالضعفاء»، ولكأنّ في قلب الإنسان شريعةً أخلاقيّةً طبيعيّةً، فضيلةً حقّةً تسمو فوق الحقب البربريّة.

– **غيتّون:** أجل، يثوي في القلب البشريّ الصفح والحبّ، لأنّنا

مخلوقون على صورة الله. علينا أن نعي هذه الحقيقة. للمؤمن العدل يعني استقامة الروح التي تحييها النعمة الإلهيّة. وقد أوصى المسيح ألاّ يفعل المرء للآخرين ما يأبى أن يفعلوه هم له.

– **أنتييه:** هذا ما توضحه وثيقة المجمع الفاتيكانيّ، «فرحٌ ورجاءٌ»، حيث جاء: «العدل يؤهّل لاحترام حقوق كلّ فردٍ، ولتحقيق التناغم والإنصاف في العلاقات الإنسانيّة. إنّه يراعي الكرامة الإنسانيّة، ويقوم على أساس مجتمعٍ أخويٍّ وحرٍّ». والعدل، فضلاً عن ذلك، ينطبق على الجميع: «كلّ تفرقةٍ تنتهك حقوق الفرد الأساسيّة، سواءٌ قامت على الجنس، أو العرق، أو لون البشرة، أو الوضعٍ الاجتماعيّ، أو اللغة، أو الدين، ينبغي أن تُقاوَم بصفتها مخالفةً لمخطّط الله».

– **غيتّون:** مخطّط الله، الذي أعلنه المسيح، هو الحبّ. وفي ميدان العدل ينبغي الإقرار بأنّ الفقراء الذين قهرهم الأقوياء طوال قرونٍ، ما عادوا يكتفون بوعود عدلٍ في الآخرة، يعوّضهم عمّا عانوا من إجحافٍ. فلا بدّ من تحقيق العدل هنا، في هذه الدنيا، والآن، ولن يكون سلامٌ إلاّ بتحقيق ذلك. أمّا «الدينونة الأخيرة»، فهي قضيّة وجدانٍ شخصيٍّ. حينئذٍ يُحكَم على كلّ إنسانٍ وفق أعماله، وهذا لا يتعلّق، فقط، بنخبةٍ تقيم وزنًا للقِيَم الأخلاقيّة، بل بكلّ فردٍ.

الرحمة

مرادفاتٌ: صفحٌ، رأفةٌ، تعاطفٌ، عطفٌ، محبّةٌ، تسامحٌ، شهامةٌ، إنصافٌ.

أضدادٌ: قسوةٌ، صرامةٌ، حقدٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «طوبى للرحماء فإنّهم يُرحَمون». (يسوع، متّى ٥ : ٧)

«يصفح المرء بقدر ما يحبّ». (لاروشفوكو)

«الرأفة بلا كبرياء من خصائص المرأة». (تورغينيف)

«فهم كلّ شيءٍ، هو غفران كلّ شيءٍ». (مدام دي ستال)

تعريفٌ: في اللاتينيّة: misericordio تعني رأفة القلب (miserere وcor). إنّها الفضيلة التي تدفع إلى الصفح عمّا يحقّ للمرء معاقبته. ليست نسيان الإهانة أو الخطأ، بل القضاء على الغضب أو البغض، حتّى إن كانا مبرَّرَيْن. وبهذا المفهوم تتخطّى الرحمةُ العدلَ، إذ إنّها تُغضي عن العقاب، بل تتخطّى الرأفةَ إذ إنّها تفترض المصالحة. إنّها تتخطّى التسامح، فهو سطحيٌّ، وتتخطّى الإشفاق والتعاطف اللّذين يتأثّران فقط بألم المذنب، ويحتاجان، كي يُولّدا المحبّة، إلى منظر المصيبة. وحده الحبّ يتفوّق على الرحمة، وهو يتضمّنها.

يقول «كونت سپونڤيل»: «الرحمة هي فضيلة الغفران، وسرّه، وحقيقته. هي لا تلغي الخطأ بل تلغي الحقد؛ لا تقضي على الذكرى، بل على الغضب، ولا تنهي الصراع، بل تنهي البغضاء. لم تبلغ، بعدُ، مرحلة الحبّ، ولكنّها تقوم مقامه، إن كان مستحيلاً، أو تُعِدّ له، إن لم يكن قد نضج، بعدُ».

مفتاح الرحمة هو تفهّم دوافع الغير، والتماس الظروف التخفيفيّة له. ويؤكّد سپينوزا: «إنّها الاستعاضة عن الكره بالفهم». ولذلك رحمة

اللّه لامحدودةٌ، لأنّ معرفته لامحدودة.

ولكنّ للرحمة حدودًا حيال الشرّ المطلق، لأنّ هذا الشرّ يتعذّر فهمه. وقد بيّن «كونت سپونڤيل» حدود الرحمة حيال الجرائم النازيّة على الوجه التالي: «لستُ مستعدًّا لإدارة الخدّ الآخر، وأوثر، حيال العنف، السيف على الوهن. إنّ الحبّ فرحٌ، وليس عجزًا أو استسلامًا»، وفي هذه الحال، «حبّ الأعداء ليس التوقّف عن محاربتهم، بل التوقّف عن بغضهم».

الرحمة على مقربةٍ وثيقةٍ من الرأفة. وقد كتب «جانكيليڤتش»: «إنّ كلّ جوهر الحبّ يكمن في هذا الاندفاع العفويّ والمجّانيّ، غير المفروض، والذي لا مقابل له. إنّه ثغرةٌ غير مشروعةٍ في جدار الشرعيّة التي لا ترحم».

لا تُمارَس الرحمة حيال المذنب فحسب، بل، أيضًا، حيال الفقراء، والمنبوذين، والبائسين من كلّ صنفٍ، وحيال الخصم المقهور.

يقول «ستان روجييه»: «الرحمة هي قلبنا المنفتح على البؤس. فعندما أنت تتألّم، أتوجَّع أنا، وقلبي ينتصب في مواجهة البؤس، محاولاً وقايتك، والذود عنك، ومصارعة ما يسحقك».

حوارٌ

– **أَنتييه:** فلنبدأ بالغفران، إنّه نوعان: ذاك الذي نلتمسه من اللّه لذواتنا، وذاك الذي نهبه الآخرين، وهذا ما تؤكّده صلاة «أبانا»: «اغفر لنا سيّئاتنا، كما نغفر نحن لمن يسيئون إلينا». فعلامَ هذا الترابط؟

– **غيتّون:** أوّلاً نسأل اللّه، وهو القداسة، أن يغضي عن أخطائنا. وبعد أن نأسف لهذه الأخطاء، ونحقّق ما يُدعى ندامةً كاملةً، نرتبط بحبّ اللّه، فهو نبعٌ آخر لكياننا، ونستعيد جدّةً وشبابًا، ونعهد ولادةً جديدةً. ذلك هو معنى الصفح الإلهيّ الذي ينسى ويخلق من جديد. بيد أنّ الصلاة التي لقّنناها يسوع تذكّرنا بأنّنا سننال من الصفح

بقدر ما نصفح، نحن أنفسنا، للمدينين لنا.

– **أَنتييه:** وهذا هو الأصعب! هذا يذكّرنا بدعوة يسوع من لم يرتكب خطأً، قطّ، إلى رجم المرأة الزانية بالحجر الأوّل. فلم يكن، ثمّة، أحدٌ لم يخطأ.

– **غيتّون:** أجل. عندما أُجيل بخاطري ضعفي في الإهانات الكبيرة، وخاصّةً في الإهانات الطفيفة، وعندما أتخيّل سعادة البشر في عالمٍ حيث يصفح كلٌّ عن الآخر، أروز حقيقة دعوة «أبانا»: «اغفر أيضًا». إنّ الإنسان يلتمس من الله أن يفعل له، باستمرارٍ، ما يسيء، هو نفسه، فعله للآخرين.

– **أَنتييه:** لمَ تقول «يسيء فعله»؟

– **غيتّون:** لا بدّ من أن يخبر المرء الوهن الجسديّ والأدبيّ، كي يحسن الصفح. وإن هو خبره، فعليه أن يذكره. ساعدني، يا ربّ، كي أصفح بكلّ قلبك! من المحقّق أنّه من الصعب أن يغيّر المرء قلبه.

– **أَنتييه:** يقول الأب «بوديكيه»، بالاستناد إلى مصدر كلمة «الرحمة» (miséricorde): «لا بدّ من البؤس (misère) لكي يكون ثمّة قلبٌ». «على الإنسان الذي يجيد اختبار ذاته، أن يعرف نفسه بكلّ تواضعٍ، وأن يعترف بميله إلى الخطأ، كي يجيد الصفح. ويجب أن يكون قد خبر الألم الجسديّ، كي يتعاطف مع آلام الآخرين، ويهتمّ بها بجميع الوسائل النابعة من القلب، في اندفاع تعاطفٍ عميقٍ». ولكن، ثمّة قضيّةٌ تشغلني. إنّه من السهل أن أصفح عندما يعبّر المسيء لي عن أسفه، وإن هو أصلح، ما أمكن، الضرر الذي ألحقه بي. ولكن ماذا عليّ أن أفعل إن هو لم يعتذر، أو إن هو أكّد عزمه على المضيّ قدمًا في إيذائي؟

– **غيتّون:** في هذه الحال الصفح هو كمال الحبّ، والرحمة الحقّة.

إنّه صفح يسوع على الصليب. على المخطئ ألاّ يتواضع إلاّ أمام اللّه، فهو، وحده، كاملٌ.

– **أنتيه:** حبّ الأعداء... فوقنا، على الحائط، ثمّة لوحةٌ مائيّةٌ، رسمتَها أنت بيدك، وهي تمثّل يهوذا، وعليها هذا التعليق المقلق: «يهوذا يلحظ على مال جريمته صورة يسوع الرحيم». فعلامَ لم يتُب يهوذا؟

– **غيتّون:** ومن قال إنّه لم يتُب؟

– **أنتيه:** أعرف رئيسة ديرٍ سيسترسيٍّ، الأمّ جنقييف، في «بونقال» التي توجز، بعبارةٍ مرحةٍ، كمال الرحمة، فتقول: «هي أن يكون الإنسان أبله، وأن يعرف ذلك، و أن يكون سعيدًا بذلك».

الصفح عن هفوةٍ يتعرّض كلٌّ منّا إلى ارتكاب مثلها، أمرٌ سهلٌ. أمّا الصفح عن جريمةٍ؟ فعلامَ عليّ أن أغفر لمن قتل ابني؟

– **غيتّون:** ستغفر لأنّك أوفر حرّيّةً وحبًّا من «عدوّك». عليك أن تختار فريقك: فإمّا أن تكون ممّن يحبّون، أو ممّن يبغضون، حتّى وفق معايير العدالة العاديّة.

– **أنتيه:** لطالما تأثّرت، لدى حضوري محاكماتٍ جنائيّةً تنظر في جرائم مروّعة. فأحيانًا تنهض أمّ ولدٍ مقتولٍ، ثمّ ينهض أبوه، وينتصبان، وكأنّهما مدفوعان خارج ذاتهما، ويعلنان، بين شهقَتيْن: «إنّني أصفح عن قاتل ابني». وحينئذٍ تهمد صيحات غضب الجمهور، وتسكن عواصف الحقد والثورة؛ وتمرّ نسمةٌ سرّيّةٌ، مثل إشعاع نورٍ.

– **غيتّون:** إنّها نسمة الحبّ. ويشعر المرء أنّه صار أفضل، ولكأنّ ملاكًا يبتسم في أعماق البهيمة.

– **أنتيه:** ولكن هل يمكن الصفح عن كلّ شيء؟ عن جرائم الجلاّدين النازيّين، مثلا؟

– **غيتّون:** إنّ الفيلسوف اليهوديّ ڤلاديمير جانكيليڤتش، الذي تذكره غالبًا، والذي كان لي شرف خلافته في كرسيّ تعليم الفلسفة في ليون عام **١٩٣٥**، قد أجاب على هذا السؤال في كتابٍ أطلق عليه عنوان «الصفح»، وقد جاء فيه: «ليس ثمّة خطيئةٌ من الجسامة بحيث يتعذّر غفرانها، في نهاية الشوط. وإن كانت هناك جرائم من الهول بحيث يستحيل على مرتكبيها التكفير عنها، يظلّ هناك الصفح، الذي وُجد، خاصّةً، من أجل هذه الحالات المستعصية، أو التي يتعذّر شفاؤها».

– **أَنتييه:** ولكن لا يعني ذلك وجوب إسدال ستار النسيان على تلك الجرائم. بل إنّ تذكّرها واجبٌ. وينبغي، أيضًا، في هذه الحالات القصوى، أن يلتمس المجرم الرحمة. وإلاّ، ما نفعُ الجحيم؟

– **غيتّون:** الجحيم، في الواقع، هي مكان من يرفضون الرحمة، أي الحبّ المجّانيّ.

– **أَنتييه:** كيف يمكن رفض الحبّ المجّانيّ، والرحمة الإلهيّة؟

– **غيتّون:** لا يمكن تفادي ذلك إلاّ بالإيمان والاستسلام، وبالبساطة، وجميعها تنبع من الطفولة.

– **أَنتييه:** على أيّة حالٍ، إنّه من الأهون تلقّي الصفح من منحه، وخاصّةً من ممارسة فعل تضامنٍ جماعيٍّ. وتجول ببالي، في ما يتعلّق بالجرائم النازيّة، وشتّى جرائم الإبادة العنصريّة، هذه الخاطرة المريعة: في ما يتخطّى الصالحين والأشرار، ثمّة الرؤية المفيدة، والمريحة، والساذجة، ثمّة الإنسان. فلو أنّ معاهدة ڤرساي التي عقدت عام **١٩١٩** كانت تتّسم بالرحمة، عوضًا عن اصطباغها بعدالةٍ مجرَّدةٍ، مستحيلةٍ، لما وصل هيتلر إلى تسنّم السلطات في ألمانيا. هذا الخطأ لم يكرّره الحلفاء عام **١٩٤٥**، ومن ثمّ كانت المصالحة.

الموت الصالح

- **مرادفاتٌ:** وفاةٌ، عبورٌ، انطفاءٌ، هلاكٌ، انتقالٌ.
- **أضدادٌ:** ولادةٌ، ولادةٌ جديدةٌ، قيامةٌ.
- **أقوالٌ مأثورةٌ:** «ما أجمل نهاية من يموت وهو يحبّ!». (رونسار)

«أيّها الموت السرّيّ، يا شقيق المحبّة». (رنبو)

«أين شوكتك، يا موت؟». (القدّيس بولس: ١ كور ١٥: ٥٥)

«من كان حيًّا وآمن بي، فلن يموت أبدًا». (يسوع: يوحنّا ١١: ٢٦)

«مُتْ، وصِرْ». (غوتيه)

- **تعريفٌ:** الموت هو توقّف الحياة. يقال عن جسدٍ حُرِمَ الحياة، وانتفى وجوده. للمؤمن، الموت هو عبورٌ نحو حياةٍ أُخرى، لا توصف.

ليس الموت فضيلةً، ولا هو حكمةٌ. ولكنّ المقصود هنا هو طريقة التأهّب لاستقبال الموت. من المؤكّد أنّ هناك «ميتاتٍ صالحةً»، مرحّبًا بها، معدّةً في الحكمة والرجاء، و«ميتاتٍ سيّئةً»، مفروضةً، في الثورة والخوف. أجل، إنّ أُسلوب التأهّب للموت هو، حقًّا، فضيلةٌ أو نقيضها.

ولنستعرض أنماط السلوك حيال الموت:

فهناك الرفض. يقول «وودي ألّن»: «مع أنّي لست أخشى الموت، غير أنّني أوثر أن أكون في مكانٍ آخر، عندما يحدث ذلك».

وهناك الاستسلام والسلبيّة. يقول «مونتينيي» (Montaigne): «أودّ أن يباغتني الموت، وأنا أزرع ملفوفًا، ولكن غير مكترثٍ به، وأقلّ اكتراثًا بحديقتي السيّئة التنسيق». أمّا غوته فقد هتف، وهو على سرير الموت: «مزيدًا من النور!».

وهناك الحكمة. وقد قال «مونتينيي»، أيضًا: «الفلسفة هي تعلّم الموت». أمّا أفلاطون، فقوله أبعد عمقًا: «ما خشية الموت سوى ادّعاء معرفةٍ يفتقر إليها المرء».

وهناك الرجاء. وقد جاء في نصٍّ لجماعة الـ «زِن» (zen)، أورده مالرو قُبَيْل وفاته: «عندما تنتهي إلى لحظة الموت، ستشعر أنّك تبتسم. فلا تعجب: الأمر هو، دائمًا، هكذا». ويضيف «فنتيليا هوريا»: «إن كان نائمًا فسيستيقظ، وإن كان ميتًا، فقد استيقظ».

وهناك أنماط موتٍ مرتبطةٌ بالتضحية الطوعيّة. قديمًا كان الجنديّ البطل يغنّي: «الموت في سبيل الوطن هو المصير الأجمل، والأجدر بالتمنّي».

ويخلص جانكيليفتش إلى القول: «ثمّة، من جانبٍ، جرأة السماح بما سيحدث حتمًا، بلا إذنٍ منّا، ومن جانبٍ آخر استباق الموت بتعاونٍ نشيطٍ مع القَدَر. وبما أنّ الشجاعة هي تقبّل المخاطرة، فالموت هو قضيّة الشجاعة الكبرى».

الموت هو فناء الجسد المادّيّ، والفكر العاديّ، المرتكز على الأنا. وكلّما كان الأنا عميق الانكفاء على ذاته، ومتضخّمًا، أحيانًا، كان الموت أشدّ مشقّةً. فالقدّيس، والحكيم، اللّذان انعتقا من دكتاتوريّة الأنا، لا يكابدان هذا القلق من «العبور»، ولا سيّما إذا امتلكا الإيمان بقيامة الأجساد التي وعد بها المسيح، والإيمان بخلود الروح الذي لا يفنى، إيمانًا بالسرّ.

للمؤمن، مهما كان متواضعًا، الإيمان والرجاء هما دعائم «موتٍ صالحٍ»، يتمّ في رضًى تامٍّ.

وقد قال ڤيكتور هوغو: «ليس الموت نهايةً، بل هو الصباح الأعظم».

حوارٌ

– **أَنتييه:** ما سبب الموت؟

– **غيتّون:** قبل اختراع التكاثر عن طريق الجنس، لم يكن، هناك، موتٌ طبيعيٌّ، ما لم يكن نتيجة حادثٍ. غير أنّ الأجسام الوحيدة

الخليّة، التي تمثّل الحياة، لم تكن تتطوّر. وجاء التقدّم مع الوعي، المستند على الدماغ، وهو جسمٌ متميّزٌ موغلٌ في التعقيد، وناتجٌ عن التطوّر. والتكاثر عن طريق الجنس، الذي وفّر المناخ لوجود أنماطٍ جينيّةٍ لا محدودةٍ، أتاح التطوّر نحو صِيَغ حياةٍ عليا، يتعذّر تصوّرها. غير أنّ ثمن ذلك كان الشيخوخة، والموت الجسديّ، بما أنّه يتعيّن، باستمرارٍ، تجديد الركائز الجينيّة، أي الأجساد.

– **أَنتييه:** وماذا عن الملائكة؟

– **غيتّون:** وما الذي نعرفه عن الملائكة؟

– **أَنتييه:** ما الذي تعرفه عن الموت، يا جان غيتّون؟

– **غيتّون:** ثمّة ما أعرفه، وما أؤمن به. إنّنا لا نعلم سوى القليل عن فعل الموت. ومع أنّ الجميع يخبرونه، إلاّ أنّه، لم يستطع أحدٌ تبليغ خبرته عنه. هذه هي مفارقة الموت: إنّه شائعٌ، قريبٌ، مراقبٌ من الخارج، ولكنّه مجهولٌ في جوهره، تتعذّر ترجمته، ومحاطٌ بالسرّ.

– **أَنتييه:** فكرة الموت هاجسٌ مقلقٌ لكثيرين.

– **غيتّون:** وقد تكون مجرّد ذكرى خوفٍ من الولادة. شهودٌ كُثُرٌ باحوا لي بأنّ الموت ليس لحظة قلقٍ واضطرابٍ، بل هو لحظة سكونٍ وسلامٍ. فالعالم يتضاءل ويمّحي، ويسود شعورٌ بأنّ عالمًا آخر سيولد. ويتقبّل المرء ما لم يحدث بعدُ. لقد أدركت أنّ ثمّة ما هو أسمى من الانتصار أو العيش: وهو بذل الذات. الشاعر كلوديل يتحدّث عن «هذا الفرح الكامن في الساعة الأخيرة»، «أنا هو هذا الفرح، وهذا السرّ الذي لا يمكن أن يُفشى». وقد أسرّت لي زميلتي (في الأكّاديميّة الفرنسيّة) «مارغريت يورسينار» أنّ الموت يبدو لها تكريسًا لا يليق إلاّ بالأشدّ طهرًا، وأضافت: «كثيرون ينحلّون، وقليلون يموتون».

– **أَنتييه:** بشأن الفرح، تجول بخاطري جنازات الرهبان الترابيّين

(Trappistes)، التي شهدت بعضًا منها في «لاقال»، حديثًا. لقد بدت لي وكأنّها ولادةٌ أو معموديّةٌ. كلّ شيءٍ فيها يفوح بالفرح. إنّها عيدٌ، واحتفالٌ بالعودة إلى الله، أبينا. أذكر، أيضًا، القدّاس الأوّل الذي أُقيم بمناسبة الذكرى السنويّة الأولى لوفاة صديقنا الناشر «سڤن نيلسن»... كلّ شيءٍ كان يشعّ فرحًا. وقد خيّل إلى صيّادين مارّين من هناك أنّه احتفالٌ بعمادٍ، فراحوا يبحثون عن الطفل.

– **غيتّون:** إنّ اختفاء الجسم يبرز التوافق المباغت بين ذواتنا وجوهرنا، أي الروح. وهذا هو سرّ الموت العميق. وإنّك لمصيبٌ بتحدّثك عن الطفل، وعن الولادة.

– **أَنتييه:** ومن تكلّم عن المتعة؟

– **غيتّون:** إنّه «لافونتين» الذي قال: «الموت والمتعة حدّقا، هنا، إلى وجههما: فهذان الوجهان هما وجهٌ واحدٌ». ربّما ثمّة إشارةٌ إلى اللحظة الحاسمة. والقدّيسة تيريزا الأڤيلاّويّة، التي خبرت حالات انفصال الجسد عن الروح، كانت تقول إنّ الموت يحاكي انخطافًا.

– **أَنتييه:** إنّ شهود موت القدّيسة تيريز الطفل يسوع تحدّثوا، أيضًا، عن ضربٍ من الذهول... فهل هو نشوةٌ بيوكيماويّةٌ، أم فرحٌ فجّرته الرؤية الواقعيّة لما كان موضع رجاء: الحياة الأبديّة في الله: «يا ربّ، أَرِني وجهك!».

– **غيتّون:** قال لي برغسون: «كلّما شخت ازداد إيماني بالخلود، لأنّني بقدر ما أشيخ أشعر أنّني متأهّبٌ للحياة».

– **أَنتييه:** لذلك قالت، أيضًا، تيريزا الأڤيلاّويّة، التي كانت ملتهبةً هوًى واستعجالاً: «إنّ تلكّؤ موتي يميتني». ولكن ألم ننتقل من «ما أومن به» إلى «ما أَرجوه»؟

– **غيتّون:** حقًّا.

- **أنتيه:** فلنتحدَّث، إذن، عن الرجاء.

- **غيتّون:** إنّني أرجو كلّ شيءٍ. وليس لديّ ما أُضيفه. إنّ نمطًا آخر من الوجود يبدأ، وهو نابعٌ من الإيمان بأنّه لم يعد للموت وجودٌ. فنحن، تارةً، نحيا مثل حياتنا على هذه الأرض، وتارةً أُخرى نخوض نمطًا من الحياة لا نعرفه. ما يدعى موتًا، إن هو سوى التعبير الأكمل عن النقاء: أي جوهر الكيان الذي نندمج فيه... أو نتمدّد فيه.

- **أنتيه:** ولكن ما الذي يحدث بعد أن يُغلَق القبر على الجثمان؟

- **غيتّون:** تبقى النفس، ويبقى الروح، فالكائن الفريد، الأنا العميق، لم يُلغَ، بل إنّه يحيا على نحوٍ سرّيٍّ. بل إنّه يحيا أكثر ممّا نحن نحيا الآن.

- **أنتيه:** أنت تؤمن بذلك. أليس كذلك؟

- **غيتّون:** بل أنا أعلمه. وإلاّ لما كان هناك سرٌّ، بل عبثٌ لا معقولٌ. إنّني لم أتأرجح، قطّ، بين عبثيّة الإنكار، وسرّيّة النَعَم الذي نستجيب به للحبّ. الموت هو ولادةٌ جديدةٌ، تتيح لنا كلّ طاقاتنا وكلّ رغباتنا، تخمينَها. تلك هي حال الجنين، في بطن أمّه. فلو هو تمكّن من التفكير، لاقتنع بأنّه وُجد كي يولد، أي كي يُدفع به إلى بيئةٍ أُخرى غير بيئته، تحاكي الفضاء. وبشأن الموت قال القدّيس بولس: «نحن لا نرغب في أن نجرّد من ثيابنا، بل في أن تضاف لنا ثيابٌ أُخرى، لكي تمتصّ الحياة ما هو زائلٌ فينا».

- **أنتيه:** السؤال الوحيد الذي يُطرح: أليس الروح سوى ثمرةٍ عابرةٍ لكتلةٍ من الخلايا جمعتها الصدفة، أو إنّه سابق المادّة وصائغها؟ وفي هذه الحال، يُحدث الموت تحوّلاً في الحياة.

- **غيتّون:** الحياة تتحوّل تحوّلاً يتعذّر فهمه. وقد قال «پلوتين» (Plotin): «الموت هو استبدال الجسد مثلما يستبدل الممثّل هندامه».

وكيف يمكن تخيّل شكل الحياة إن هي افتقرت إلى سند الجسد؟ بيد أنّ الدراسات التي أجراها برغسون على علاقات الدماغ بالذاكرة أقنعته بأنّ إلغاء الجسد لا يفضي إلى فناء الروح، وبأنّ الاستمرار في حياةٍ أُخرى هو المرجّح. غير أنّ اعتباراتٍ أخلاقيّةً جعلته يوقن بأنّ استمرار الحياة هذا مؤكّدٌ. فالوجود أقصر من أن يتيح الاكتمال، وإنهاء مرحلة التطوّر في سبيل بلوغ غاية الرغبة اللامحدودة. كلّ وجودٍ هو سمفونيّةٌ غير مكتملةٍ، بل إنّها ما كادت تبدأ. وإلاّ فكل شيءٍ منافٍ للعقل.

– **أَنتييه:** ولكن من أين يأتي وسواس الموت الذي يراود الكثيرين من معاصرينا، حتّى المؤمنين منهم، بحيث يجهدون في تقليل شأنه، أو حتّى في إخفائه؟ فهل هم يخشون، فقط، ما يجهلونه، أو هم يجزعون من الدينونة والعقاب؟ أم هم يخافون من العدم فحسب؟

– **غيتّون:** ثمّة شيءٌ من كلّ ذلك، ولكنّ العدم هو الأشدّ إرعابًا. وهناك فلاسفةٌ يلقون رواجًا مثل «هيدغر» في ألمانيا، و«سارتر»، في فرنسا، اقتصروا على ترديد مفاهيم الإغريقيّين، واليهود والمسيحيّين، بعباراتٍ مدهشةٍ في شدّتها وقتامها، تلك المفاهيم الأبديّة التي تقول: نحن نولد كي نموت، ومحكومٌ علينا بالموت! والموت يجرّد المتعة والحرّيّة من كلّ معنًى. ولكن من صميم هذا اللامعقول تنبعث فكرة أنّ الموت غير ممكنٍ، بل إنّه منافٍ للعقل.

– **أَنتييه:** الواقع هو أنّ معظم البشر يخشون الموت. فما السبيل إلى إعطاء فكرةٍ عنه أوفر إيجابيّةً؟

– **غيتّون:** بتعميق مفهوم الحياة، وبالسموّ بها. إنّ ذكرى الحياة العميقة، التي اكتسبتُها بما بلغتُ من عمرٍ توفّر لي خبرةً كبرى. فإذا اعتبرنا الإنسان في جوهره وفي سرّه، لألفيناه مؤلّفًا من جسدٍ وروحٍ

متّحدَيْن وملتحمَيْن، بلا فكاكٍ. الحياة هي اندفاعٌ، حيث ما يقبع في المرتبة الدنيا، أي الجسد، يرقى إلى المرتبة العليا، أي الروح، لكي يكون أكثر كينونةً، بغية تحقيق ما وعدت به الكتب المقدّسة: الحياة الأبديّة.

– **أَنتييه:** بموجب هذه النظرة يفقد الموت مأساويّته، ويكفّ عن كونه تلاشيًا في العدم، بل يصبح عبورًا نحو هذه الحياة الأبديّة حيث سنكون جميعنا في الكلّ، أي في الله.

– **غيتّون:** هذا يعني أنّ علينا المضيّ إلى أبعد من تقبّل الموت. علينا اختيار «الموت العبور» عوضًا عن الخضوع، «للموت التلاشي».

– **أَنتييه:** إذن، أنت تفكّر بالموت؟ وتستعدّ له؟

– **غيتّون:** أفكّر في ما وراء الأَرض، في الآخرة.

– **أَنتييه:** هل تخشى الموت؟

– **غيتّون:** بل أخشى الدينونة.

– **أَنتييه:** هل أنت عملت لكي «تستأهل السماء»؟

– **غيتّون:** كلاّ. فالحبّ الحقّ لا يلتمس مكافأةً. والغبطة النهائيّة ليست مكافأة الفضيلة، بل هي الفضيلة عينها. إنّني أجهد في ممارسة فضيلة الحبّ الصافي، الذي يحبّ ببساطةٍ، ولا ينشد مكافأةً.

– **أَنتييه:** ما سبب خوفك، إذن؟

– **غيتّون:** كما أسلفت القول: أخاف من الدينونة. فقد اقترفت خطايا كبرياء كثيرةً، وخطايا إهمالٍ، عن كسلٍ، أو خوفٍ، أو جبنٍ.

– **أَنتييه:** ومن لم يرتكب خطايا؟ حتّى الباباوات... ثمّ إنّ هناك صديقَيْك: البابا الطيّب يوحنّا (الثالث والعشرين) وبولس السادس، وهما سيدافعان عن قضيّتك. فعلامَ، إذن، تخشى الدينونة؟ ألا تؤمن

بالرحمة الإلهيّة؟

– **غيتّون:** في طفولتي علّموني، خاصّةً، خشية الربّ، والخوف من عدم حبّه، ومن إغضابه. وهكذا نشأتُ في الخوف. وهذا الخوف هو الذي يحول دون حبّي لله بلا تحفّظٍ. ولذلك، رغمًا عنّي، أخشى الدينونة. ولكنّك مصيبٌ. فعلينا، أيضًا الإيمان بالرحمة الإلهيّة.

– **أَنتييه:** الإيمان بالحبّ! أنت تعلم جواب «فريديرك أوزانام» للكاهن الذي كان يشدّد عزيمته، وهو على فراش الموت: «وعلامَ أخشى الله؟ فأنا أحبّه حبًّا جمًّا!». كيف تتمنّى، إذن، أن تموت؟

– **غيتّون:** أتمنّى أن أموت وأنا بكامل وعيي، يوم عيد الفصح، فهو عيد القيامة. إنّني أرغب في أن أحيا وأموت متيقّظًا، وألاّ أؤخذ على حين غرّةٍ. إنّني متأكّدٌ من أنّني سأنقطع، وما أخشاه هو ألاّ يكون هذا الانقطاع متوقّعًا. إنّني أرى انتقالي من الحياة إلى الحياة الأبديّة مثل انخطافٍ وذهولٍ. حينئذٍ سأتذوّق ما سعيتُ إليه سحابة حياتي الطويلة، والذي ما انفكّ سرًّا. وقبل كلّ شيءٍ، أودّ أن أَموت وأنا في حميّا العمل وفي ملء الراحة، معًا، أي في استسلامٍ. فليكن موتي تفكّكًا متألّقًا بلا ألمٍ.

– **أَنتييه:** هل يمكن أن يتمّ الموت بمعزلٍ عن الألم؟

– **غيتّون:** سأذكر لك قول أبي الذي أعلن للطبيب الذي كان يعالجه: «هل عليّ أن أفهم أنّني سأموت معافًى؟» ذاك كان، أيضًا، رجاء البروفسّور موندور: «ينبغي أن نموت في صحّةٍ جيّدةٍ». أتمنّى أن أموت مثلما مات والدي. فهو الذي طالما كان مضطربًا، متمرّدًا، وصارمًا دائمًا، انقلب، بغتةً عذوبةً، وروحانيّةً، وتلقائيّةً، وتقوًى، وسلامًا، وبسمةً.

– **أَنتييه:** ما كان شعورك عندما انطفأ؟

– غيتّون: استعدت بالذاكرة بيت شعرٍ للشاعر «مالارميه»، يعبّر فيه عن تلك البساطة، وذلك التطهّر، وذلك النبل، التي يوفّرها الموت، كاشفًا الحجاب عن سرّ الكائن الأكثر تخفّيًا، عمّا كان يرغب في أن يكون، وعمّا يخلّده: «على نحو ما تحوّله الأبديّة، أخيرًا، إلى ذاته....»

– **أُنتييه:** هل شهدت ميتاتٍ أُخرى مثاليّةً؟

– **غيتّون:** ميتة زوجتي «ماري لويز». يوم وفاتها تأهَّبتْ، في النور، لاجتياز العتبة المظلمة، مستذكرةً كلّ حياتها. صباحًا قالت لي: «اثنان وسبعون عامًا، خمسٌ وعشرون سنة زواج، ويومٌ واحدٌ!» غرفتها، في أعالي «نيس»، المشرفة على المدينة القديمة، كانت مليئةً بالنور. وقد تقبّلت الأسرار بمشاعر الشكر والسلام. وقد قالت لي: «في الواقع، قد آمتُك، لأنّني، طيلة حياتي، كان يقطنني هوى المطلق». ثمّ طلبت منّي أن أكرّر على مسامعها هذه الكلمات، بالإنكليزيّة، التي اقتبستها من المركيزة «دي ڤوغوي»: «ما أروع الموت!».

– **أَنتييه:** إنّني أذكر جنازتها في كنيسة جانّ دارك. فرحٌ مشعٌّ كان يختلج في نفوس الحضور، ولكأنّ حضور ماري لويز غير المرئيّ، كان يقول لنا: «الآن أعلم! لقد وجدتُ!».

– **غيتّون:** في صباي افتُتنتُ بهذه اللفظة اليونانيّة «أوريكا»، تلك الصرخة التي أطلقها أرخميدس عندما اكتشف قانون توازن السوائل وضغطها (الهيدروستاتيكا)، فهتف «وجدتُها». واليوم أومن أنّ هتاف «أوريكا» هو هتاف الميتة الصالحة. أخيرًا، وجدت الله. سأطلب أن تُحفر هذه الكلمة على قبري، إلى جانب كلمة أمّي: «الحياة تغيّرت ولكنّها لم تُنتَزع».

– **أَنتييه:** أجل، تغيّرت الحياة، وتمّ العبور من الامتلاك إلى

الكينونة. وهذا يذكّرني بصيحة «لويس ماسّينيون»، عندما تبلّغ موت شارل دي فوكو في الصحراء، فهتف: «لقد عثر على المعبر، ووصل!».

– **غيتّون:** إنّني أتأهّب لأنّ أكون جنينًا، كائنًا لم يولد بعد، أثرًا مستقبليًّا متحجّرًا. وها إنّي قد انتهيت إلى غاية مسيرتي الأرضيّة...

– **أَنتييه:** ليس بعد. إنّك تحاكي سمفونيّات بيتهوفن الرائعة الجمال، والتي تمتدّ نهايتها وكأنّها الأبديّة.

– **غيتّون:** من شارف الموت يحقّ له أن يقول كلّ شيءٍ. إنّني أشبه جنينًا في رحم أمّه، يطرح على نفسه قضايا لا حلّ لها: «ما جدوى هاتين اليدين اللّتين لا تجسّان شيئًا، وهاتين الرئتين اللّتين تفتقران إلى ما به تتنفّسان، وهاتين العينين المفتقرتين إلى ما تريانه؟». ويخيّل إليّ سماع القدّيس يوحنّا كاتب «الرؤيا»، يجيبني: «ما سنكون، لم يظهر بعد». فلا بدّ من الاعتصام بالصبر. عمّا قريب سأبلغ المئة عامًا. لقد وصلت إلى العمر الذي يعي فيه الإنسان ذاته، وعيًا قشيبًا، الوعي الأخير قبل الدينونة. وحينئذٍ تبدو الحياة مغامرةً كبيرةً، تصرَّمت قبل الأوان.

– **أَنتييه:** تقول «قبل الأوان»، وقد شارفْتَ على المئة سنةً، وألّفْتَ مئة كتاب؟

– **غيتّون:** سمفونيّة انقطعت، بعد بضعة إيقاعاتٍ. والضمير، وهو صوت اللّه فيّ، يطرح السؤال الحاسم: هل كنت وفيًّا للنداء الإلهيّ الذي يسمّى «دعوةً»، أو مجرّد واجبٍ؟ الآن، على حدّ قول ڤيكتور هوغو العجوز، بتّ أحني نفسي نحو القبر، «مثلما يحني ثورٌ عطشان جبينه نحو الماء». الموت، هو، أخيرًا، معرفة الحياة الإلهيّة. آه! ما أروع الموت!

الطاعة

مرادفاتٌ: خضوعٌ، نظامٌ، انقيادٌ.

أضدادٌ: عصيانٌ، تمرّدٌ، ثورةٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «من السهل على المرء أن يطيع إن هو كان يحلم بالقيادة». (سارتر)

«إن توجّبت الطاعة بالإكراه، فلا حاجة إلى الطاعة بحكم الواجب». (روسّو)

«من يطيع هو، دائمًا تقريبًا، خيرٌ ممّن يأمر». (رينان)

تعريفٌ: الطاعة هي الخضوع لأوامر رئيسٍ، أو لقانونٍ، أو لمبدإٍ، أو لإيحاءٍ، أو للضمير.

واجب الطاعة مفروضٌ على الجميع وإلاّ لآستحالت كلّ حياةٍ جماعيّةٍ. والسلطة الشرعيّة النابعة من الاقتراع العامّ تتّصل بأخلاقيّاتٍ طبيعيّةٍ عبّر عنها، منذ القِدَم، حكماء من جميع المذاهب.

تعلُّم الطاعة يبدأ في الأسرة، ويُتابَع في المدرسة. ومع أنّ هذا المفهوم هو، اليوم، موضع تهكّم فئةٍ من الشبيبة الضائعة، من جرّاء إهمال الأهل، أو الإلحاد، أو الانقطاع عن المراجع الثقافيّة (كما يحدث لدى بعض المهاجرين)، إلاّ أنّه من العسير تخيّلُ بديلٍ له. ومن ثمّ تبقى هذه الفضيلة راسيةً في الذاكرة الجماعيّة، منذ العهد القديم حتّى «التعليم المسيحيّ» الجديد. كتاب الأمثال القديم قال: «احفظ، يا بنيّ، وصيّة أبيك، ولا ترفض تعليم أمّك». والقدّيس بولس في رسالته إلى الكولوسّيّين يقول: «أيّها الأولاد، أطيعوا والديكم في كلّ شيءٍ، فإنّ هذا مرضيٌّ لدى الربّ».

«التعليم المسيحيّ»، الجديد يقول: «احترام الأبناء لآبائهم الذي تقتضيه الشريعة الطبيعيّة، والشريعة الإلهيّة، يتجلّى من خلال انقيادٍ وطاعةٍ حقيقيَّيْن». ولكنّه يوضح: «على الأولاد إطاعة الأوامر المعقولة الصادرة عن مربّيهم، وعن جميع من أَوكلهم إليهم آباؤهم». في المجتمعات القديمة لم تكن الطاعة تحتمل أيّ استثناءٍ. ولكنّ الأمر مختلفٌ، اليوم، حتّى في ما يخصّ الأولاد. فالتعليم المسيحيّ الجديد يقول: «عندما تتكوّن لدى الولد قناعةٌ وجدانيّةٌ بأنّ الخضوع لأمرٍ ما ينطوي على شرٍّ أخلاقيٍّ، فعليه ألاّ ينفّذه».

كذلك هو الأمر في ما يتعلّق بكلّ إنسانٍ راشدٍ: «إنّ واجب المواطنين هو الإسهام في خير المجتمع، بروح الحقّ، والعدل، والتضامن، والحرّيّة. إنّ الخضوع للسلطات الشرعيّة، وخدمة المصلحة العامّة، يقتضيان من المواطنين أداء دورهم في حياة الجماعة».

الطاعة تفترض، في من أولوا السلطة، الكفاءة والنزاهة اللّتين تضمنان الحفاظ على المؤسّسات، وتكريس الذات، بلا حدودٍ، لمصلحة الجماعة العامّة المشروعة. بهذه الشروط، وبها وحدها، تغدو الطاعة محتملةً. ومن المحقّق أنّ فساد المسؤولين لا يدفع المواطن صوب الفضيلة، غير أنّه لا يعفيه منها.

يقول التعليم المسيحيّ الجديد إنّ رفض الطاعة قد يُبَرَّر «عندما تخالف مقتضيات السلطات المدنيّة الضميرَ المستقيم، ومقتضيات الأخلاق، وحقوق الأفراد الأساسيّة، وتعاليم الإنجيل». في الحالات القصوى يُسمح باللجوء إلى السلاح «على ألاّ يسبّب ذلك حالات فوضى أكثر سوءًا»، وإذا استحال العمل بوسائل سلميّةٍ.

وقد حدّد الجنرال ڤيغان هذه الحالة الخاصّة من واجب الطاعة تحديدًا جيّدًا بقوله:

«في وضعٍ طبيعيٍّ، حيث أمور الدولة تتمّ بانتظامٍ، واجب الطاعة واضحٌ وسهل الممارسة، وفقًا للقوانين السارية. وبالمقابل، في حقب الأزمات السياسيّة، والأخلاقيّة، قد يغدو واجب الطاعة غامضًا، صعب التحديد، وصعب الاستخلاص من أحداثٍ وأوضاعٍ معقّدةٍ. وحينئذٍ يتدخّل الضمير. ويُجري المرء فحصًا صارمًا، خاليًا من كلّ مشاعر الحبّ

والبغض، بل حتّى من المحبّة، والوفاء لحزبٍ أو لرجلٍ، كي يحدّد، بوضوحٍ، لنفسه، واجبه حيال المصلحة العليا المطروحة. وعندما يتّضح الواجب، ينبغي تنفيذه بثقةٍ وأمانةٍ، وإن اقتضى الأمر، التضحية بالمصالح الخاصّة، وبالسعادة، وبالحياة، وبالسمعة التي ليست سوى واجهة السعادة».

حوارٌ

– **أَنتييه:** ممارسة الطاعة تتطوّر، إذن، مع مكتسبات الحرّيّة. ولذلك كلّ شيءٍ، اليوم، معقّدٌ.

– **غيتّون:** بمعنًى ما، لنا دائمًا سادةٌ. وبمعنًى آخر، ليس لنا، أبدًا، سادةٌ. فالسادة يتعاقبون، من حولنا، مثل ملائكةٍ حرّاسٍ، ونستدين منهم هذا الأمر أو ذاك، ولكن، في نهاية المطاف، ليس للمرء من سيّدٍ سوى ذاته، أو إلهه. والطاعة الحقيقيّة ليست، فقط، الخضوع لقانونٍ أو لأمرٍ، بل هي واجب استنباط الواجب، كلّ يومٍ، وسط حالاتٍ وجدانيَّةٍ قد تكون مستعصية الحلّ.

– **أَنتييه:** من خصائص الحرّيّة، ذلك الرهان الجريء الذي تعقده الديمقراطيّة مع المواطن المسؤول.

– **غيتّون:** أجل، اليوم، حرّيّة الروح تضمن الحفاظ على كرامة الطاعة. قال «ألان»: «الطاعة والمقاومة هما فضيلتا المواطن. فهو، بالطاعة، يضمن النظام، وبالمقاومة، يضمن الحرّيّة». على الطاعة أن تكون «معقولةً». إنّها لا تتخلّى عن الحقّ، بل تجعل من واجبها أن تفكّر وتبرّر.

– **أَنتييه:** ثمّة من يطيعون ومن يصدرون الأوامر. أنتَ كنت، في أثناء الحرب، ضابطًا. فما هي رؤيتك لواجبات الرئيس؟

– **غيتّون:** في المقام الأوّل، الرئاسة هي خدمةٌ. ولكنّ الرئيس

معرَّضٌ دائمًا لغواية السلطة. وبوسعه، في كلّ لحظةٍ، أن يستثير مشاعر الحبّ أو الكراهيّة. يُنظر إليه من كلّ صوبٍ، ويحاكَم، ويُقيَّم. وقد يقابَل بازدراءٍ صامتٍ. ولا يحقّ له أن يبقى رديئًا أو غير مبالٍ. وعليه أن يختار بين أن يكون مبعث خوفٍ، أي مكروهًا، أو موضع احترامٍ وحبٍّ.

– **أَنتييه:** في حال تضارب الواجبات، لا بدّ من أن يكون الرئيس محترمًا، إن لم يكن محبوبًا.

– **غيتّون:** حقًّا. ففي هذه الحال ترتدي قضيّة الطاعة حدّتها القصوى. قد يظنّ البعض أنّ الطاعة أمرٌ بسيطٌ في الجماعات القائمة على النظام: كالجمعيّات الدينيّة، والجيش، والأحزاب السياسيّة. ولكن هنا، كما هو الأمر في أماكن أُخرى، وسواءٌ كان المرء مطيعًا أو متمرّدًا، يظلّ خاضعًا لمشقّة الخيار. فالعبوديّة الناجمة عن الطاعة الحرفيّة تبدو بشعةً. في كلّ مكانٍ يوجد تضارب واجباتٍ، ينجم عنه بِدَعٌ، وانفصالٌ، وثورةٌ. كان «فوش» يقول: «تبصّر أين هو الواجب». ومن الواضح أنّه لم يكن يستطيع توقّع تذرّع تلميذَيْه، ديغول وبيتان، بمثاله كي يقاوم أحدهما الآخر.

– **أَنتييه:** قد تجد الطاعة ذاتها في تجاذبٍ بين شريعة الضمير غير المكتوبة، وشريعة الوطن المكتوبة. تلك كانت حال جانّ دارك.

– **غيتّون:** كان عليها أن تختار بين حلّين، كلاهما ملزمٌ لوجدانها: بين حقّ دعوتها (تحرير فرنسا من الاحتلال الإنكليزيّ) وحقّ مؤسّسة الكنيسة المتحالفة مع البريطانيّين. لم تشكّك، يومًا، في شرعيّة الكنيسة، ولا في واجب نفسها، وهو إطاعة أصواتها الداخليّة. وبالتالي لم يعد لها مخرجٌ سوى التضحية. وعلى مقربةٍ منّا مثال «تيلار دي شاردان»، والأب الدومينيكيّ «لاغرانج»، الذي افتُتِحت دعوى تطويبه. كان البابا بيّوس العاشر قد أنّبه بسبب تفسيره الواقعيّ

للنصوص الكتابيّة، في حين كان هو يحاول إجراء مصالحةٍ بين العلم والإيمان. وخضع، وها إنّ الكنيسة تتبنّى، اليوم، أسلوبه.

– **أنتييه:** على نحوٍ آخر، يمكن ذكر «شارل دي فوكو» الذي منعته روما من الاحتفال بالإفخارستيّا، من غير وجود حضورٍ، في قلب الصحراء، فخضع وهو يتمتم: «الطاعة هي ذروة الحبّ»، ويمكن أن نضيف أنّ الطاعة هي ثمرة التواضع، التي ترى أبعد من تحقيق الرغبات، أو نجاح الآراء الخاصّة الفوريّ، بحيث يضحّي المرء بعمله، وبحكمةٍ، يفسح للمؤسّسة مجال التطوّر، وبذلك يحول دون القطيعة.

– **غيتّون:** قال لي برغسون، يومًا، مازحًا، في معرض حديثه عن الصوفيّين: «إنّهم يبحثون عن مرشدٍ يؤيّدهم كي يطيعوه». غير أنّ مرشدي «شارل دي فوكو» لم يكونوا دائمًا متّفقين معه. ومع ذلك أطاع.

– **أنتييه:** وأَنت، يا جان غيتّون، هل أطعتَ دائمًا؟

– **غيتّون:** أظنّ ذلك. غير أنّني خضت حياةً كانت الطاعة فيها متيسّرةً. وإنّي لشديد الإعجاب بالرهبان الذين يخضعون، عن تواضعٍ.

– **أنتييه:** بل أنا أعرف أنّ منهم من يفكّرون أنّ الطاعة أكثر ثوابًا، بقدر ما يكون الأمر ظالمًا. ولكنّهم قلائل.

منذ الستّينيّات، بات مفهوم الطاعة موضع شبهةٍ، في مجتمعاتنا الموصوفة بالتحضّر. أنت نفسك خَبَرتَ ذلك في جامعة السربون حيث كان «الحظر محظورًا». وقد شهدنا، حديثًا، سياسيّين ومفكّرين، يعلنون على الملأ، في معرض تدابير الهجرة، أنّهم لن يخضعوا لقانونٍ يعدّونه مجحفًا. أليس ذلك خطرًا على الديمقراطيّة؟

– **غيتّون:** بلى. وكان بوسع الحكومة التي تراجعت، في هذه الأثناء، أن تتفادى هذا المنزلق، لو هي كانت، في البدء، أوفر

حنكةً. خطر العصيان حاضرٌ أبدًا، وهو يطال المرء نفسه والنظام العامّ. فالذي ينفصل، بالعصيان، عن المجتمع، يُدخل في الصرح الاجتماعيّ مبدأ المعارضة الذي لن يعود بوسعه إيقاف عواقبه، يومًا. إنّ وجود كلّ مجتمعٍ قد يقتضي، أحيانًا، الخضوع لأمرٍ ظالمٍ.

– **أنتييه:** في الواقع، إن أصبح العاصي، يومًا، مالكًا السلطة، فهو لن يمتلك مستندًا أخلاقيًّا يقتضي به، من مرؤوسيه، الخضوع المطلق الذي أعفى ذاته منه، ذات يومٍ، وقد خَبر ديغول ذلك إبّان ثورة جنرالات الجزائر. غير أنّ المادّة **٢٣١٣** من التعليم المسيحيّ الجديد تنصح بعدم إطاعة أمرٍ يخالف مقتضيات الأخلاق.

– **غيتّون:** الأمر هنا يتعلّق بمبادئ الأخلاق الطبيعيّة، المحقّقة، الواضحة المعالم: مثل الفساد، والفسق، وشتّى الجرائم. ولكنّ التمييز أصعب في ميدان السياسة.

– **أنتييه:** في الواقع، في عام **١٩٤٠**، لم يكن الخيار واضحًا بين «پيتان» و«ديغول»، كما غدا عام **١٩٤٤**. أحد أعمامي، وكان نائبًا، بعد أن صوّت بالموافقة على منح السلطات المطلقة للمارشيال (پيتان)، التحق بالجنرال (ديغول) في برازاڤيل. وقد حكم عليه «ڤيشي» بالإعدام. كنتُ في الثانية عشرة، وما زلتُ أرى نفسي في باحة المعهد، وقد التفّ أترابي من حولي، وبسطوا أمام عينيّ الصحيفة التي نشرت إعلان هذا الحكم. بعد برهة ذهولٍ، كنت أتساءل عمّا يتوجّب عليّ اتخاذه من موقفٍ. وفجأةً تقدّم منّي أحد «الكبار» وهتف: «هذه الإدانة ليست عارًا، بل هي شرفٌ!» وكان ذلك درسي الأوّل في الديغوليّة. ولكن كم كنت مضطربًا!

– **غيتّون:** ولاضطرابك ما يبرّره. اذكر الاضطراب الذي أشاعه

(١) نسبةً إلى المسرحيّات الدراميّة التي اشتهر بها الشاعر المسرحيّ الفرنسيّ «كورنيّ» (Corneille)، والتي كانت، غالبًا تتناول الصراع بين الواجب والعاطفة.

عصيان «جانّ دارك» في التاريخ، مع أنّ التاريخ عاد فبرّأها، وأعاد لها حقّها، فهي لم تعصَ سوى رجال الكنيسة. وكان «روزڤلت» يأخذ على «ديغول» إحلال ذاته في منزلة «جانّ دارك»، مع أنّ ديغول ليس هو من قال: «المبادرة هي عصيانٌ ناجحٌ»، بل الماريشيال «ليوتيه».

– **أَنتييه:** ما هي الخلاصة التي يمكن استنتاجها من هذه المآسي الكورنيليّة[1]

– **غيتّون:** الإنسان المعاصر قد يطيع، أو لا يطيع بالقدر الكافي، أو قد يغالي في الطاعة.

– **أَنتييه:** هل هذا هو ثمن الحرّيّة؟

– **غيتّون:** بل هو نتيجتها. فقد تبدّل شكل الطاعة. قديمًا كان المرء يطيع، أحيانًا، وهو يتذمّر، تذمّرًا مباحًا. أمّا اليوم فالطاعة تقتضي الفهم والموافقة. وإلاّ، فراقب ما يحدث في النزاعات الاجتماعيّة، حيث يؤثر القوم الثورة على الخضوع مرغمين. ومن الواضح أنّ صعوبة الطاعة وفضيلتها تكمنان في ممارستها عندما تكون هذه الممارسة شاقّةً، وباهظةً. ففي هذه المعضلات القصوى نكون وحيدين مع ضميرنا.

– **أَنتييه:** وبشأن الطاعة المطلوبة من الشبّان، ربّما نسي الرؤساء ما قاله لي ذلك الكاهن، من أُسَر المحبّة، الأب «جاك راڤانيل»: «التربية محبّةٌ». وعندما تكون التربية هكذا، فالطاعة تأتي تلقائيّةً، بمرونةٍ، وحبٍّ.

التفاؤل

مرادفاتٌ: ثقةٌ، مرحٌ، ضحكٌ، فرحٌ، انشراحٌ، سعادةٌ، فكاهةٌ.
أضدادٌ: تشاؤمٌ ،حزنٌ، كآبةٌ، ارتيابٌ.
أقوالٌ مأثورةٌ: «العالم ملك المتفائلين. وما المتشائمون سوى متفرّجين». (غيزو F.Guizot)

«الناس الفرحون يُشفون دائمًا من أمراضهم». (أمبرواز پاري Paré)

تعريفٌ: التفاؤل نزعةٌ إلى رؤية الجانب المشرق من الأمور. نظريّةٌ أطلقها ودافع عنها الفيلسوف «ليبنيز» الذي قال: «كلّ شيءٍ يسير نحو الأفضل في أحسن عالمٍ ممكنٍ». والمؤمن يوقن أنّ الله لا يستطيع أن يريد سوى الخير، وغالبًا ما يستنبطه من الشرّ عينه.

وقد أسرّت لنا ربّة أُسرةٍ كانت بسمتها تشعّ على كلّ بيتها: «بما أنّني، بالفطرة، متشائمةٌ وميّالةٌ إلى الخوف، فقد كان التفاؤل هو كلّ جهد حياتي». إرادة الرجاء هذه قد تكون موهبةً، وقد تكون جهدًا وفضيلةً.

التفاؤل يولّد المرح الذي قال عنه «ألان» (Alain) «إنّه ينطوي على شيءٍ من السخاء. إنّه يعطي أكثر ممّا يتلقّى».

تحت عنوان التفاؤل نضع كلّ ما يوحي بالسعادة، وكلّ ما يوفّر الفرح.

حوارٌ

– **أَنتيِيه:** فلنبدأ بالتفاؤل. فهل بوسع المرء أن يكون متفائلاً وواقعيًّا؟ بعض الفلاسفة ينكرون إمكانيّة اقتران التفاؤل بالواقعيّة. ولكنّ هذا الموقف يعني افتراض أنّ الشرّ محتّمٌ لا مفرّ منه. ويدّعي هؤلاء

الفلاسفة إثبات نظريّتهم بتأكيدهم، على سبيل المثال، أنّ تفاؤل الليبيراليّين الأوروبّيّين هو الذي سمح لهتلر أن يبسط سطوته عام ١٩٤٠.

– **غيتّون:** لم يكن ذلك ناجمًا فقط عن تفاؤل الأوروبّيّين، بل كان، خاصّةً، نتيجة جبنهم.

– **أَنتييه:** يمكن الاعتراف بأنّ الشرّ موجودٌ في الإنسان، وخارج الإنسان، وفي الآن عينه افتراض انتصار الخير، في نهاية المطاف، أو، أقلّه، ترجّيه.

– **غيتّون:** هذه مراهنةٌ ضروريّةٌ. وإلاّ استحالت الحياة. فالتشاؤم المنهجيّ يحطّم الاندفاع الحيويّ، ويقود، أحيانًا، إلى الانتحار. إنّه لمن المعقول والإيجابيّ التحدّث عمّا يمجّد الحياة ويدعمها، لا عمّا يدمّرها. ومن ثمّ فخياري هو رفض العبثيّ واللامعقول، والإيمان بسرٍّ ينطوي على عناصر تفاؤلٍ معقولةٍ.

– **أَنتييه:** أنت، في آنٍ واحدٍ، فرِحٌ وكئيبٌ، يا جان غيتّون: متفائلٌ ومتشائمٌ. تارةً هذا، وتارةً ذاك. فكيف تحقّق هذا التناقض؟

– **غيتّون:** هذا المزيج من حزنٍ وفرحٍ ينضج على نارٍ هادئةٍ في قعر آلة تقطيري الداخليّة. وإنّني لأحبّ قرن تَيْنك النغمتَيْن من الكمَد والابتهاج. وحتّى الأمور الأعمق جدّيةً أودّ تغليفها بالفرح. فالبهجة تبدو لي غمامةً شفّافةً نيّرةً، ينبغي أن تغلّف بها كلّ الأشياء المؤلمة.

– **أَنتييه:** هل يسوغ القول إنّك متفائلٌ.

– **غيتّون:** لست متشائمًا... التشاؤم هو موقفٌ لا يرى سوى شرّ القرن الحاضر، ولا يعترف بالجانب المصعّد، منه، الذي تقوده العناية الإلهيّة. غير أنّني أحاول، أيضًا، أن أكون متبصّرًا. ولا ريب أنّ لي الحقّ في التماس الفرح الذي يصبو إليه كلّ كياني.

- **أنتيبه:** فلنتحدّث، إذن، عن الفرح.

تعريف الفرح:

الفرح رضًى روحيٌّ حادٌّ، سعادةٌ داخليّةٌ تنهض بكلّ الكيان. يقول «سبينوزا»: «الفرح هو العبور إلى كمالٍ أو إلى واقعٍ أسمَيَيْن» ويضيف «كونت سبونڤيل»: «الابتهاج هو شعور المرء بتعاظم قدرته، وهو استمرارٌ في الكينونة استمرارًا مظفّرًا. الفرح، إذن، تسامٍ بكلّ الكيان، يتعارض مع الحزن، فالحزن هو تضاؤل القدرة وفقدانها. المرء يلتمس، تلقائيًّا، الفرح، أكثر من التماسه اللذّة، فالفرح هو مزيدٌ من الوجود، ولا شيء أعذب من الوجود. ولذلك الحبّ فرحٌ، لأنّه فيضٌ من الوجود والكمال».

إنّ الفرح الذي يهب السعادة، ينبع، قبل كلّ شيءٍ، من التناغم بين الجسد والروح، بين الحيّ والطبيعة.

والفرح مُعْدٍ. إنّ توفير الفرح لإنسانٍ هو فضيلةٌ كبرى، تنال جزاءها، فالسعادة الحقّة هي منح الآخرين الفرح. ومن أجل ذلك ينبغي أن يمتلك المرء سلام النفس، وقلبًا محتفلاً، وتلك خصالٌ موقوفةٌ على من يقرنون التوازن بالهوى، ويحدوهم مبرّرٌ منيعٌ للحياة. وبالمقابل كان سبينوزا يندّد بالحاسدين الذين يتلذّذون بغمّنا، ويعدّون فضيلةً دموعنا، وخوفنا، وسائر علامات عجزنا الداخليّ.

وكان سبينوزا يرى في الفرح دليل كمالٍ: «بمقدار ما يكون الفرح كبيرًا، يكون الكمال كبيرًا، وبنفس القدر يتعيّن أن نشارك في الطبيعة الإلهيّة».

فالفرح عبادةٌ علينا تأديتها للّه. إنّه ميزان حرارة النفس، إشاراته تبيّن درجة الحبّ. ألا يقال: «القدّيس الحزين بئس القدّيس»؟ إنّ الفرح، وهو، أيضًا، فيض رجاءٍ، يفترض إيمانًا باللّه عظيمًا، أو طبعًا متفائلاً لدى الإنسان. لا مراء أنّ التفاؤل هو موهبةٌ فطريّةٌ، ولكن يمكن تنميتها، ولا سيّما أنّها ليست، دائمًا، صافيةً. فالإنسان هو، أبدًا، نهبٌ بين شعورَيْن أحدهما إيجابيّ والآخر سلبيٌّ، بين الثقة والريبة، ولكأنّ فيه روحَيْن. وبهذا المعنى يرتدي الفرح، كما يرتدي التفاؤل،

ثوب الفضيلة.

حوارٌ

– **أَنتييه:** الفرح شعورٌ جليل الشأن، يتعارض مع الكآبة، ويقتضي صحّةً نفسيّةً ممتازةً، ومعنًى رفيعًا يُسبَغ على الحياة. هكذا كانت «مارت روبان» (Marthe Robin) دائمة الفرح، مع أنّ آلامها كانت متواصلةً.

– **غيتّون:** ينبغي عدم المزج بين الفرح الشعبيّ، فورة الابتهاج الجماعيّ، البهجة العابرة التي تطبع الأعياد، وفرح الحياة الحقّ، الفرح المقيم، العميق الغور، والذي قد يكون وقورًا، ويقتضي تبصّرًا بمعنى الحياة. كانت «مارت روبان» مكرَّسةً بكاملها لرسالتها، وتستمدّ منها فرحًا لا يوصف، ليقينها بأنّ المسيح، الذي كانت تتّحد به، كان يحبّها. وقد ينبع الفرح من طبعٍ متفائلٍ. ما أكثر البشر المساكين، الحزانى بلا سببٍ! فعلامَ لا يوجد مبتهجون بلا سببٍ، ويكون وجودهم اعتراضًا على السوداء، والهواجس، وتقطيب الجباه، والأقوال المريرة؟

– **أَنتييه:** ثمّة واقعٌ: الفرح يمنح القوّة. ولكن ما هو سرّ الفرح؟

– **غيتّون:** ليس الفرح ثمرة العمل فحسب، بل هو، أيضًا، وسيلةٌ للعمل. ثمّة فرحٌ يسبق الجهد، وفرحٌ ينبع من الجهد، وينبغي إيقاظه، في الذات، عندما يهمد، وذلك بإبطال أو بإخماد ما كان يواكبه من حزنٍ. لقد أقلع الإنسان المعاصر عن الغناء وهو يعمل. وهو لا يحسن استخدام الخيرات الفائضة التي يتلقّاها. إنّه يبتغي الامتلاك، ولكنّه لا يعرف التمتّع.

– **أَنتييه:** أهناك، إذن، وضعٌ ذهنيٌّ، أو فضيلةٌ كفيلةٌ بتوليد الفرح؟

– **غيتّون:** ينبغي إعمال الفكر، والسيطرة على الذات، رسم

المخطّطات، وانتظار ساعة التنفيذ، التنفّس بعمقٍ، والعمل ما دام النور مشرقًا، حسب قول الإنجيل الذي كان يحبّه «مارسيل پروست»، والثقة بوفاء الأقربين، والتأكّد من القدرة على الالتزام بالوعد، والشعور بالترسّخ في الأرض، في محورٍ ثابتٍ، ولكن في مرآةٍ منفتحةٍ على كلّ شيءٍ، وقادرةٍ على عكس صورة الكون. ذلك هو سرّ الفرح، فالأعمال ستنجم عن هذا الإيمان. من توفّرت له كلّ أسباب اليقين هذه، ما عليه سوى الاستجابة للدعوات التي تناديه، مثلما تستسلم النبتة المثقلة بالبذور إلى الريح، وستأتي الظروف تلقائيًّا، وستتطاير الحبوب، وسيولد من هذا الفيض الإنتاج، سواءٌ كان فكرًا أو عملاً. المُحتَرَف، أو الحانوت التجاريّ، أو المزرعة، أو المصنع، أو المكتب، أو الأسرة، أو المدرسة، كلّ هذه، وسيّان إن هي كبرت أو صغرت، قادرةٌ على توفير فرح الحياة النابع من الحياة وكأنّه إضافةٌ، كالنور، والشباب، والمجد، بفضل جهودٍ كثيفةٍ، أو بمعزلٍ عن مثل هذه الجهود، وبمنأًى عن الاضطراب أو التشنّج. وعلينا أن نلتزم بمثالٍ أسمى، يكون لنا بمثابة معيارٍ، كي يبقى الإنسان، فينا، أرفع من نتاجه.

– **أنتييه:** والفكر الدينيّ يحتاج إلى رؤيةٍ فائقة الطبيعة.

– **غيتّون:** في النفس الصوفيّة، الفرح هو دائمًا أقوى، ودائمًا منتصرٌ، إذ إنّه يشعر، مسبّقًا، بالسعادة التي ستوفّرها له رؤية اللّه.

– **أنتييه:** وكما قالت «سيمون ويل»: «الفرح هو هروبنا خارج الزمن». والفرح يولّد الضحك.

تعريف الضحك:

الضحك هو التعبير الطبيعيّ عن الفرح. وعلى حدّ قول «ربليه» (Rabelais)، الضحك هو امتياز الإنسان. وقد خصّص له الفيلسوف الوقور برغسون كتابًا. ولكنّ هناك ضحكًا وضحكًا. وقد انتقد سپينوزا

في كتابه «علم الأخلاق» الضحك الذي ينقلب هزءًا، والذي يزدري، ويسخر. ولكنّه يمتدح، بالمقابل، الضحك الفرحِ المتفجّر من الكائن السعيد، الذي هو «فرحٌ صافٍ»، وفضيلةٌ. وكان القدّيس «فيليپ نيري» يقول: «الحفاظ على الفرح المقدّس هو، أيضًا، الدرب الأمثل للتقدّم في معارج الفضيلة». أمّا الذين لا يضحكون أبدًا، فهم ليسوا قومًا جادّين، على حدّ قول «آلان».

وهل يتعيّن على الناس التعيسين أن يضحكوا؟ على هذا التساؤل يجيب «لا برويّر» (La Bruyère) بقوله: «ينبغي أن يضحك المرء قبل أن يكون سعيدًا، خشية أن يموت قبل أن يضحك».

وليست البسمة بأقلّ شأنًا. البسمة ضحكةٌ داخليّةٌ، غير متفجّرةٍ، تعبّر، بصمتٍ، عن ضربٍ من السعادة، بمجرّد حركة الفم والعينين. ولكن، أيّة شحنةٍ عاطفيّةٍ في البسمة! وقد قال «كريستان بوبان» (Christian Bobin): «الابتسام لما نحبّ هو حبّه مرّتين أكثر».

هذا الضحك الصامت ينبئ بسعادةٍ داخليّةٍ مكتومةٍ، وبأسلوبٍ متسامحٍ في معالجة الحياة... والضحك، في الحياة اليوميّة، يُظهر الطيبة، والانفتاح، والترحيب بالآخر، ويعبّر عن المودّة. من لم يذُب سعادةً أمام بسمة ثقةٍ على شفتَيْ طفلٍ استطاع ذووه إسعاده؟

في اللحظات المأسويّة، عندما يتعذّر الضحك، تظلّ البسمة ممكنةً، وهي أسلوبٌ للتسامي بالمصيبة والموت، وللارتضاء بالقدَر. عدوى البسمة كبيرةٌ، ومفعولها الاجتماعيّ مدهشٌ. وقد اعترفت امرأةٌ لم ترحمها الحياة: «إن ابتسم لي الناس في الشارع، فهذه البسمة تسعدني، لأنّها تقضي على اللامبالاة، والعزلة، والازدراء». البسمة حضورٌ للآخر مفعمٌ عطفًا. ومن جانبٍ آخر: «ينبغي ألاّ نثق بإنسانٍ لا يبتسم أبدًا»، على حدّ قول «مونترلان» (Montherlant). الابتسام يُسبغ جمالاً على الرجل أو المرأة الأشدّ بشاعةً. وقد لاحظ «شاتوبريان»: « كلّما كان الوجه جادًّا، كانت بسمته أجمل». البسمة ليست فضيلةً فحسب، بل هي، أيضًا، فنٌّ.

حوارٌ

– **أَنتييه:** أراك مبتسمًا، يا جان غيتّون. ولا أظنّك ستعارضني، أنت الفيلسوف الوقور، إن قلت إنّ البسمة فضيلةٌ، تضيء الحياة، حياة المبتسم، وخاصّةً حياة الآخرين. امرأةٌ أو ولدٌ يبتسمان في البيت يشيعان شمسًا وسعادةً، على نقيض الوجوه الكئيبة، الصامتة، التي تلقي الظلال حيثما مرَّت. البسمة ليست ضحكًا، وإن هي كانت ضحكةً مكتومةً، داخليّةً، ولا تتّسم أبدًا بالابتذال. والبسمة ليست الفرح، مع أنّ الفرح يولّد، سرّيًّا، البسمة، مع كرّ الزمن. إذن، كيف يمكن تعريفها؟

– **غيتّون:** البسمة هي علامة الروح على المحيّا. وتخطر ببالي بسمة الملاك في كاتدرائيّة «رانس». الملاك يعرف، والملاك يصمت. ولا يفجّر ضحكةً ساخرةً، مثل شيطانٍ أحمق. تقطنه سعادةٌ ساجيةٌ، ويقينٌ. ولا يُعبّر عن ذاته إلاّ بالبسمة، وهو، عند عتبة الكاتدرائيّة، بيت الله، يجعل الحجر نفسه يبتسم.

– **أَنتييه:** وماذا عن بسمة الجوكندا؟ إنّها لغزٌ، وشديدة التباين عن بسمة الملاك.

– **غيتّون:** يمكن التساؤل أليست روعة الجوكوندا المصطبغة بمسحة حزنٍ كامنةً، خاصّةً، في قدرتها على إيقاظها، لدى حشودٍ من المشاهدين، وبلغز بسمتها، لحظةً محدّدةً من السعادة، مغلّفةً، هي أيضًا، باللغز.

– **أَنتييه:** لمَ تصفها باللغز.

– **غيتّون:** بسبب الحزن المختبئ تحت هذه البسمة. فحتّى في ليالي الحياة القاتمة، ثمّة لحظاتٌ يتعذّر وصفها، تقطر فرحًا لا سبب له، وتُسيل في نفسك العزاء، وتعوّضك عن كلّ شيءٍ، هذا هو ما تعبّر عنه تلك البسمة.

– **أَنتييه:** كيف لفرحٍ أن يكون، ولا سبب له؟

– **غيتّون:** أردت أن أقول أن لا سبب له يمكن تفسيره. إنّ كلّ ما يتحدّث عن الحبّ أو الصداقة يشدو بذلك على نحوٍ غامضٍ، حتّى الموت.

– **أَنتييه:** الموت؟

– **غيتّون:** أجل. فمن كان، مثلي، على مقربةٍ منه، يعتريه انطباعٌ بأنّ حجابًا صفيقًا يتمزّق، فجأةً، في أحد جوانبه، وبأنّ وراء هذا الحجاب يختبئ عالمٌ آخر يتسلّل منه شعاعٌ واحدٌ.

– **أَنتييه:** علامَ، إذن، حزن الجوكندا المتواري خلف تلك البسمة؟

– **غيتّون:** إنّه سرّ الزمن. إنّ اللحظة المميّزة، الخاطفة، باتت من الماضي، وأمست وهمًا يستذكر الاندفاع والكآبة. لدى الإنسان توقّفٌ مستحيلٌ للوجود في مرور السعادة الخاطف: إلهامٌ فنّيٌّ يتجلّى به الوجود اليوميّ، شرودٌ مفاجئٌ، زيارةٌ لا يترك صاحبها بطاقته، ولكنّها تخلّف شيئًا من الحزن، لأنّنا نجهل السرّ الذي قد يمكّن من إعادة حدوثها.

– **أَنتييه:** إنّ بسمة الجوكندا تسفر عن عالمٍ بذاته، وهي، في ما يتخطّى ذلك، تسفر عن عالم الفنّان. فإن قال «فلوبير» (Flaubert): «رواية «مدام بوڤاري» هي أنا»، فهل الجوكندا هي ليوناردو دي ڤينشي؟

– **غيتّون:** لا ريب! إنّها زبدة آرائه في المرأة، والطبيعة، والكيان، وأسلوب حياةٍ ومصيرٍ، وربّما هي بحثٌ عن وحدته الداخليّة، وهي، في جميع الأحوال، حكمةٌ. كان يحتفظ بتلك اللوحة على مقربةٍ منه، ولكأنّها مرآةٌ لما لديه ممّا لم يتمّ اكتشافه، بعدُ، وللمستحيل في حلم الخلق. لقد كان في حاجةٍ إلى تلك الرسالة المشفّرة.

– **أَنتييه:** بسمةٌ.

– **غيتّون:** بسمةٌ من نمطٍ معيّنٍ.

– **أَنتييه:** إنّها بسمتك، يا جان غيتّون. إنّك تبدو صارمًا، وهذه واجهة الفيلسوف فيك. ولكنّك، لمن يعرفك، تشعّ مرحًا، ذلك المرح الذي يمكّننا من تقبّل ما يؤلمنا.

– **غيتّون:** المرح هو مزيجٌ من سخريّةٍ وحبٍّ. وفي الواقع ليس المرح بعيدًا عن الحبّ. إنّه حبٌّ مموّهٌ بحجاب السخريّة. وتقول عنه الراهبات إنّه شقيق الحبّ الصغير.

– **أَنتييه:** إذن فلننهِ حوارنا بالتحدّث عن المرح. كيف تعرّفه؟

– **غيتّون:** من لا يعرف الضحك يستطيع أن يعبّر عن فرحه بالمرح، فهو بهجة الخيال؛ إنّه مزيجٌ من علمٍ، وأخلاقيّاتٍ، ومن لمحاتٍ سارّةٍ غايتها الحدّ من قسوة الخطاب.

– **أَنتييه:** الكاهن الدومينيكيّ الشهير «سيرتيلانج» كان يتحدّث عن «معنى المرح الإلهيّ». فهل هو فضيلةٌ؟

– **غيتّون:** المرح الذي يزري بعلم الأخلاق المعتدّ والناطق بالحِكَم، يتيح للفضيلة التحرّر من الحزن، ويغفر لها طابعها القسريّ. وهو، أيضًا، بالهزء من الذات في المِحَن، أسلوبٌ مهذّبٌ يتفادى إزعاج الغير.

– **أَنتييه:** إنّ «أندريه كونت سپونڤيل» يجعل من الفرح فضيلةً، وله فيه هذا القول المدهش: «المرح هو سلوك حِدادٍ».

– **غيتّون:** هذا صحيحٌ. فالمرح يمكّننا من احتمال ما يؤلمنا، إذ إنّه يعيد إلى مكانها الصحيح قِيَم التجرّد الحقيقيّة.

– **أَنتييه:** ها نحن قد نأينا عن التفاؤل والفرح.

الوطنيّة

مرادفاتٌ: قوميّةٌ، تعصّبٌ.
أضدادٌ: شموليّةٌ، دوليّةٌ، عالميّةٌ.
أقوالٌ مأثورةٌ: «الفضيلة الأولى هي التفاني في سبيل الوطن». (ناپوليون) «ليس للعمّال وطنٌ». (ماركس)
«أوروبّا الحقيقيّة تحتاج إلى أوطانٍ، احتياج الجسم الحيّ إلى لحمٍ ودمٍ». (فرانسوا ميتيران)
تعريفٌ: إنّه حبّ الوطن، مسقط الرأس، أو وطن التبنّي الذي يظفر المرء بجنسيّته، ويصبح فيه مواطنًا مسؤولاً، عليه واجباتٌ وله حقوقٌ، في شراكة مصالح.

فكرة الوطن ضاربةٌ في القدم. فالمؤرّخ اللاتينيّ «سلّستس» مجّد «الوطن، والأبناء، والأرض، والأُسرة». غير أنّ سقراط كان يعلن نفسه «مواطن العالم»، واليونانيّ أريستوفانُس كتب، أربعة قرونٍ قبل المسيح: «حيث المرء بخيرٍ فذاك هو وطنه».

كثيرون من شبّان اليوم يرفضون فكرة الوطنيّة التي يعدّونها ضيّقةً، عفاها الزمن، وغالبًا ما يخلطون بينها وبين التعصّب الداعي إلى وطنيّةٍ مغاليةٍ حادّةٍ، خطرةٍ، تحتقر الأمم الأُخرى، يحدوهم تضامنٌ مع جميع البشر الذين لا يرون فيهم «غرباء»، بل إخوةً. وكان الكاتب «غي دي موپاسّان»، في زمانه، قد رأى أنّ «الوطنيّة هي البيضة التي تفقّس الحروب». هذه النزعة الشموليّة دافع عنها، أيضًا، الشاعر لامرتين بقوله: «هل ترون، في السماء، حدودًا؟ كلّ فردٍ ينتمي إلى مناخ فكره. أنا مواطن كلّ نفسٍ تفكّر، والحقيقة هي موطني».

ويمضي «جول روا» إلى أَبعد من ذلك فيؤكّد: «وطني الحقيقيّ هو المجرّة، أكثر من الأرض». إنّه مفهومٌ شبه دينيّ، يماثل مفهوم المسيحيّين

القائل: «وطني هو السماء». في حين أنّ «پول ليوتو» يقول: «الوطن الأوّل هو الحياة».

هذه الشموليّة السمحاء تعارضها القوميّة، عدوّة العالميّة، والعالميّة قد ترتدي أشكالاً متناقضةً: فهي دوليّة الطبقات وفق النموذج الماركسيّ الاستبداديّ؛ أو دوليّةٌ مفرطة الليبراليّة تقوم على الترابط الاقتصاديّ بين الشعوب كافّةً؛ أو مثاليّةٌ تنادي بأرضٍ واحدةٍ، ووطنٍ واحدٍ، يمكّن، يومًا، من ردم الهوّة التي تنحفر بين الأمم الغنيّة والعالم الثالث.

المعضلة واقعيّةٌ، وهي، أحيانًا، مأسويّةٌ. ولم يعد ممكنًا الاكتفاء بالتحديدات السالفة. فعالم الاجتماع «غوستاڤ ليبون» يقول: «تبقى الوطنيّة من أقوى تجلّيات روح شعبٍ. وهي تمثّل غريزة بقاءٍ جماعيّةً، تقوم، في حال خطرٍ وطنيٍّ، مقام غريزة البقاء الفرديّة». أمّا «جيرار دي نيرڤال» فيقول: «تربطنا بالأرض وشائج عديدةٌ. فلا أَحد يستصحب معه رفات آبائه عالقةً بنعل حذائه». وفي زمن الأنترنيت لم يعد ممكنًا القول مع ألبير كامو: «أجل، لي وطنٌ هو اللغة الفرنسيّة».

حوارٌ

– **أَنتيِيه:** إنّها لجرأةٌ من قبلنا أن نورد هذه اللفظة «غير الصحيحة سياسيًّا»، ضمن قائمة فضائلنا. فاليوم، حتّى في فرنسا، فكرة الأُمّة مهتزّةٌ. إذ كيف لك أن تبقى «وطنيًّا» وفرنسيًّا، ولا توصف باليمينيّ المتطرّف، ويُنظَر إليك، بالتالي، وكأنّك شيطانٌ؟ ليس الجواب سهلاً، ولكنّ الصمت والحذر الجبان لا يحلاّن معضلةً. نحن، هنا، ندعو إلى توافق الفرنسيّين على فكرة الوطن الأمّ، الفكرة النقيّة، الجميلة، التي عليها أن تتعايش مع فكرة عالمٍ متّحدٍ وأخويّ...

– **غيتّون:** ينبغي، في الحدود الدنيا، الالتزام بالبند **٢٢٣٩** من التعليم المسيحيّ الجديد: «حبّ الوطن وخدمته ينضويان في إطار واجب العرفان بالجميل، والمحبّة».

– **أَنتيِيه:** اسمح لي أن أورد، أيضًا، البند **٢٣١٠**، الذي توجب

به الكنيسة الدفاع عن الوطن المهدّد من قبل معتدٍ ظالم: «للسلطات العامّة، في هذه الحال، حقٌّ وواجبٌ بأن تفرض على المواطنين الالتزامات الضروريّة للدفاع عن الوطن. إنّ من يقفون ذواتهم على خدمة الوطن في الحياة العسكريّة هم خدّام أمن الشعوب وحرّيّتها. وهم، بنهوضهم بمهمّتهم على الوجه الصحيح، يسهمون، حقًّا، في خير الأمّة العامّ، وفي حفظ السلام». والآن، فلنرجع بالوقت إلى الوراء، فأيّة ذكرياتٍ توحيها لك لفظة «الوطنيّة»؟

– **غيتّون:** كان لي من العمر ثلاث عشرة سنةً عندما أُعلنت حرب ١٩١٤، وقد شاركت فيها بتعلّمي تاريخ فرنسا، وبتمجيدي الصوفيّ لكلّ الشعب. كنت أشهد قطارات الجند تمر «باتّجاه برلين»، وأشارك في هذا النسيان القاتل لواقع الحرب الرهيب، مع أنّي كنت أدرك، ولو على نحوٍ مبهمٍ، أنّ الحرب تصنع الموت، مثلما المعامل تصنع الأسلحة. بعد مرور شهرين، اجتيحت فرنسا حتّى منطقة «المارن»، وباتت باريس مهدّدةً، وحينئذٍ غدا لي مفهوم «الوطن» حضورًا جسديًّا مباشرًا ومتألّمًا، مثل حضور أمٍّ أو أختٍ كبرى مريضَتَيْن. وُلد مفهوم الوطن فينا، بآلام الحرب، التي كانت تبعث روحًا في طيفه المجرّد، الشاحب. وباريس «المدينة المفتوحة» المعرّضة دائمًا لنيران عدوٍّ جارٍ، قريبٍ، أمست لي كنزًا هشًّا، مهدّدًا، جمالها، مثل جمال الفتيات، مرتبطٌ بشعور المعطوبيّة.

– **أَنتييه:** مع ذلك، ورغم الجوّ العامّ، كان على «تمجيدك الصوفيّ» أن يهمد شيئًا فشيئًا؟

– **غيتّون:** أجل، فالحرب كانت تتمادى. عام ١٩١٦، كان الفحص الشفويّ للبكالوريا قد عَرَض عليّ، بمثابة موضوعٍ في الأدب الفرنسيّ، تعليقًا على هذه الأبيات للشاعر «دوبيلّلي»: «فرنسا، يا أمّ الفنون، والأسلحة، والشرائع، لطالما أرضعتني من لبن ثديك». ولكنّنا، في كلّ أسبوعٍ، كنّا نحاط علمًا بموت شخصٍ عرفناه،

وبتشويه عشرةٍ آخرين. فكيف لا نثور؟

– **أَنتيبه:** وحينئذٍ، رغمًا عنك، لم تستطع سوى الربط بين لفظتي الوطنيّة والحرب.

– **غيتّون:** أجل. وكان، في ذلك، مزيدٌ من الألم.

– **أنتيبه:** في أيّة لحظةٍ محدّدةٍ أدركت عبثيّة الحرب؟

– **غيتّون:** في الخامسة عشرة كنت أتبيّن، في الآن عينه، لا معقوليّة الحرب، وسموّها، واستحالة الإحجام عن تنفيذ كلّ الواجب، وهو، في هذه الحال صِنْوٌ للاستشهاد. وكنت أتساءل: «ما هي، إذن، فرنسا؟» ولكنّني، حتّى الآن، لم أُجب، بعدُ، على هذا السؤال.

– **أَنتيبه:** عام ١٩١٧، هجرت مسقط رأسك، مدينة «سانت إيتيين»، و«صعدت»، إلى باريس. وكاد حلمك يتحطّم من جرّاء التهديد بالاجتياح.

– **غيتّون:** كان والدي قد سجّلني في معهد لويس الكبير، تمهيدًا لانضمامي إلى مدرسة المعلّمين العليا. وأظنّ أنّني ما زلت أسمع الدويّ الخافت للقنابل الجبّارة التي كانت تقذفها المدافع المسمّاة «بيرتا الضخمة». وقد لزمتنا سنةٌ كي نستطيع دحر العدوّ، وننتزع نصرًا، لم نتخيّل، في حميّا اندفاعنا الوطنيّ، أنّه كان على ذلك القدر من الهشاشة... وأنت، يا جاك أَنتيبه، أين كنت، وأنت في الثالثة عشرة؟

– **أَنتيبه:** كنت في «روان»، حيث كانت تسحقنا، في آنٍ واحدٍ، الجزمة النازيّة والقنابل الأميركيّة. كانت وطنيّتي مستثارةً، وكنت أسمع، وأنا أهتزّ طربًا، صوت ديغول الأجشّ، من خلال تشويش محطّة الإذاعة البريطانيّة. وكان التحرير عام ١٩٤٤ أعظم لحظةٍ في

حياتي، ولاسيّما يوم رفرف علمٌ ثلاثيّ الألوان جسيمٌ، كان محظورًا إبّان الاحتلال، فوق مصباح سهم الكاتدرائيّة. إنّ معظم شباب اليوم، بل حتّى البالغين الذين وُلدوا في أعقاب الحرب، عاجزون عن استيعاب مفهوم هذه الوطنيّة الملتهبة المشاعر. فحينئذٍ كنّا قد خسرنا فرنسا، بالهزيمة أو بالهجرة، هجرة السجناء والأسرى، والهجرة الطوعيّة التي قادت كثيرين إلى لندن أو الجزائر.

– **غيتّون:** أجل لقد كانت حياتي شاقّةً في معتقلي في ألمانيا، عام ١٩٤٠. وقد نظّمنا احتفالاً للمقاطعات الفرنسيّة. فالمناطقيّة هي، بلا ريب، أساس الوطنيّة: هذا الشعور الصوفيّ بمسقط الرأس، والذي قد يكون باريس نفسها. وكانت الشمس الرائعة والرقيقة تضيء أزياءنا الزريّة. ولمّا حانت لحظة الرقصات الختاميّة، تحقّقت دقائق من النشوة، أذهلتنا عن الأسر، بل قد أقول دقائق انخطافٍ لمن كان حبّ فرنسا الصوفيّ يسكنهم. كنّا نحدّق نحو الغرب، وكانت فرنسا تولد تحت أنظارنا.

– **أَنتيبه:** أترى، يا جان غيتّون؟ لقد كنتَ «وطنيًّا». وأنا كنتُ كذلك. فهل ما زلنا وطنيّين، أقلّه بالمعنى الذي كان يفهمه آباؤنا «أبطال عام ١٤»، في هذه الحقبة حيث فرنسا وألمانيا المتصالحتان تنظران معًا نحو هذا الكيان الذي ما زال مبهمًا: الولايات الأوروبّيّة المتّحدة؟

– **غيتّون:** بما أنّني ولدتُ مع هذا القرن، قرن الحروب الكبرى، فقد عرفت أصدقاء كُثُرًا «ماتوا من أجل فرنسا». وقد وقف كثيرون منهم موقف الشهداء. من خلال الوطن، ابتغوا الشهادة لحقيقةٍ أبديّةٍ كانت فرنسا تبدو لهم رمزها. اليوم، هذا الشعور لم يُلغَ، ولكنّه انتقل إلى دائرةٍ اجتماعيّةٍ. ونحن نعلم أنّ الأوطان والممالك صائرةٌ إلى زوالٍ، وليس لها مستقبلٌ مطلقٌ. فوحده الله هو كلّ شيءٍ في

الجميع، حسب قول القدّيس بولس.

– **أَنتييه:** إنّ فكرة الوطن ماضيةٌ في تضاؤلٍ لدى الشباب، ولفظة «وطنيّة» باتت تثير لديهم بسمة سخريَّةٍ.

– **غيتّون:** إنّ الشباب، وهم صورة عالم المستقبل، ما عادوا يطيقون مظاهر الرياء النفعيّة، وتصنّع القداسة. هذا لا يعني أنّ حبّ الوطن قد اندثر، ولكنّهم أمسوا يريدونه مبرّرًا، مقنعًا، شخصيًّا، متبصّرًا. وما عاد ممكنًا السكوت عن الجوهريّ، ولا استثناء المبادئ الأساسيّة التي يبني عليها المرء سلوكه، من المعارضة والتساؤل.

– **أَنتييه:** أرى أنّ ديغول ما برح نموذجًا لكثيرين، ليس فقط من اليمينيّين. فهو يجسّد فكرة الوطن.

– **غيتّون:** أجل إنّه يجسّد «فكرةً ما عن فرنسا». الوطن لفظةٌ لم يعد أحدٌ يحسن التلفّظ بها. وما من أحدٍ كان يجيد التحدّث عن الوطن مثل ديغول. عام ١٩٦١، قدّمت له كتابي عن «جانّ دارك»، فأخذه بين يديه الكبيرتين، وتصفّحه، ثمّ تمتم: «في حقبةٍ كان الكثيرون من حولها في حالة ارتيابٍ، وضياعٍ، وقنوطٍ، كانت جانّ معتمدةً على ضميرها، وإلهامها، وعلى الأصوات التي كانت تقول إنّها آتيةٌ من السماء، تجسّد جوهر الوطن، وخلاصته، وأبديّته». حينذاك، في قاعة قصر الإليزيه التي كانت تغمرها أنوار الظهيرة، والشمس تجعل الزخارف الذهبيّة تتألّق، كنت أتخيّل ملاكًا يسِم جسد ديغول بدمغة «فكرة فرنسا الصافية».

– **أَنتييه:** نحن، إذن، متّفقون حول الجوهريّ؟

– **غيتّون:** بلا ريب. ولكن لا شيء بسيطٌ في حقبة التحوّلات الراهنة. ولا بدّ من تحديد فكرة الوطن وفكرة الأمّة، فهما مختلفتان. ولكي نجعل من الوطنيّة فضيلةً، لا بدّ من إبراز الدليل على طابعها

الدائم، الثابت، فالفضيلة الحقّة تبقى أبديّةً.

– **أَنتييه:** قال «ألان پيريفيت»: «فكرة الوطن ليست من مخلّفات الماضي. إنّها دائمةٌ». وأنت، ما هو تحديدك «لوطنيّةٍ فاضلةٍ، ثابتةٍ»؟

– **غيتّون:** يبدو لي أنّ الوطنيّ، اليوم، هو من يملك ويستخدم القدرة على التفاني، بل على التضحية بالذات في سبيل الجماعة التي يشعر أنّه مرتبطٌ بها بوشائج التاريخ، والمولد، واللغة، والثقافة. وهل أنت، بدورك، تستطيع أن تعطي تحديدًا للوطنيّة، في عام ٢٠٠٠، يقبله الجميع، شبّانًا وشيوخًا، فرنسيّين وألمانًا، من أهل البلاد الأصليّين أو من المهاجرين؟

– **أَنتييه:** سأختصر التحديد بثلاثة بنودٍ: إنّني أُحبّ وطني، فرنسا، على اختلاف أجناسه. وفي سبيل الدفاع عنه، إن هو هوجم، أنا متأهّبٌ لبذل حياتي، فكوني فرنسيًّا لا يعني لي فقط أداء الضرائب المتوجّبة، والانتفاع بالامتيازات. وفي الآن عينه، أشعر بأنّني مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بأوروبّا وبالعالم. وإنّي استخدم كلمة «شارل دي فوكو»، فأقول إنّني حيال جميع البشر طيّبي النوايا «أخٌ كونيٌّ شاملٌ». ولكنّ ذلك لا يلغي من وجداني انتمائي إلى جماعةٍ مصيرها ومصلحتها العامّة يقودان مشاعري. لقد أمسى، اليوم، كلّ انتسابٍ إلى أُمّةٍ يُعَدّ خطيئة «نزعةٍ قوميّةٍ»، وعيبًا سياسيًّا. أمّا لفظة «الوطنيّة»، فتبدو وكأنّها لم توجد قطّ.

غير أنّ البرفّسور «أيف لاكوست»، مؤسّس مجلّة «هيرودوت»، يقول: «لقد حان الأوان لكي نعيد لخطاب الأمّة الجمهوريّ اعتباره»، وإلاّ تعرّض بلدنا للذوبان، أي لفقدان روحه.

– **غيتّون:** ماذا تقصد بخطاب الأمّة الجمهوريّ؟

– **أَنتييه:** «حرّيّةٌ، مساواةٌ، إخاءٌ».

المثابرة والصبر

مرادفاتٌ: عنادٌ، إصرارٌ، ثباتٌ.

أضدادٌ: إحباطٌ، تقلّبٌ، إحجامٌ، تهاونٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «ليس من يباشر، بل من يثابر حتّى النهاية في العمل المباشَر، هو الذي يخلص». (القدّيس جان كاسّيان)

«سلسلةٌ من الإِرادات الصغيرة تؤتي نتيجةً ضخمة». (بودلير)

تعريفٌ: المثابرة هي صفة من يستمرّ في عمله. ولكنّها ليست، دائمًا، فضيلةً، إذ يمكن الاستمرار في عمل الشرّ. في الحياة الجارية، المثابرة المرتبطة بالخير هي أجلّ شأنًا من المهارة، التي قد تتردّى إلى الإحباط. إنّ المضيّ قُدُمًا بثباتٍ، في ما وُطّن عليه العزم، وتوظيف الإرادة والطاقات في سبيل تحقيق الهدف، هما أحد مفاتيح النجاح. إنّ القول الشهير المنسوب إلى «غيّوم دورانج» (Guillaume d'Orange): «ليس النجاح شرطًا للمثابرة....» يبدو قليل الإقناع في هذا القرن الذي يقتضي من العمل نتيجةً سريعةً. ولكنّ هذا القول يحتفظ بكلّ قيمته كي يحدّد فضيلةً هي دعوةٌ إلى عدم التخاذل في مواجهة الإخفاقات والمصاعب.

العناد هو المثابرة على الخطأ، أمّا الثبات والإصرار فهما عنادٌ مبرَّرٌ. الصبر هو ابن المثابرة الصغير. هو أيضًا ينتصر على كلّ شيءٍ، «فالصبر يتخطّى العلم»، وهو، أحيانًا، أجدى من القوّة، وقد قال لافونتين، في هذا الشأن: «الصبر والوقت يفعلان ما تعجز القوّة والعنف عن فعله». «ميسترال» دعا الصبر «عماد الحكمة»، فهو فضيلةٌ تمكّن من تحمُّل الآلام بلا كَلَلٍ، حتّى التسليم. المثل يقول «الصبر هو جرأة كلّ يومٍ». و«ڤوڤنارغ» يقول: «الصبر هو فنّ الرجاء». ولكن هل «العبقريّة هي صبرٌ طويلٌ» كما يوحي بذلك «بوفّون»؟ لا ريب، شرط أن توجد،

في الأساس، ومضة العبقريّة. وذلك هو شأن كلّ المهارات التي تبلغ مستوى الكمال.

إنّ عصرنا، عصر الهياج والسرعة، لا يقيم كبير وزنٍ لفضيلة الصبر، ولا يرى فيها سوى ضربٍ من البطء. وفي الواقع الصبر هو (أو كان) حكمة من يملكون الوقت، بل حتّى الأبديّة: الفلاّحين القدامى، والنسّاك الذين كانوا يستصلحون أراضي مهجورة، وملاّحي السفن الشراعيّة، وبخاصّة الطبيعة والحياة اللّتين لا تستعجلان أبدًا بناء ما لا نزال عاجزين عن إدراكه.

في تواضعه، الصبر «فضيلةٌ صغيرةٌ» وهو فضيلة المرضى والمتألّمين. مزاياه خفيّةٌ حتّى عندما يبلغ مراتب البطولة: آلامٌ جسديّةٌ وأدبيّةٌ محتملةٌ في صمتٍ تفاديًا لتسبيب أيّ ألمٍ للمحيط... بذلك يتأهّل من يمارسون هذا الصبر لمزيدٍ من الحبّ. لقد كانت القدّيسة كاترينا السييناويّة تعدّ الصبر بمثابة «مخّ المحبّة»، في العلاقات اليوميّة مع الآخرين. وهناك صبر الأمّهات والمعلّمين، والصبر في العلاقات الزوجيّة والأُسرويّة، وفي المجتمع، وفي أماكن العمل، وفي السياسة، إلخ...

حوارٌ

– **أَنتييه:** ما هو سرّ الصبر؟ أو، إن شئت، لمَ يكون المرء صبورًا، أو نافد الصبر؟

– **غيتّون:** القضيّة قضيّة طباعٍ. فالإنسان، بفطرته، صبورٌ أو غير صبورٍ. إنّ البعض، ولاسيّما في البلدان اللاتينيّة، يتميّزون بدمٍ حارٍّ، وهم سريعو الانفجار، عاجزون عن الاحتفاظ ببرودة الأعصاب التي يتميّز بها الإنكليز. الأطفال والفتيان يقتضون كلّ شيءٍ، وفي الحال. والحياة هي التي تلقّنهم الصبر، الذي سيغدو، حينئذٍ، فضيلةً. «مونتينيي» (Montaigne) كان يقول: «نفاد الصبر يودي بنا إلى الهلاك». أمّا المثابرة فهي المضيّ قُدُمًا، بصبرٍ، في النهج الذي اختير. الصبر خصلةٌ، بمعزلٍ عنها تتبدّد كلّ المواهب الأُخرى. عام ١٩٤٢،

قال تشرشل: «إنّ كسب الحرب يستلزم رجالاً، ومالاً، وصبرًا. الروس يقدّمون الرجال، والأميركيّون يقدّمون المال، ونحن نقدّم الصبر».

– **أنتيه:** والفرنسيّون؟

– **غيتّون:** عام **١٩٤٠**، قدّموا تضحيةً، وهي أيضًا تستلزم صبرًا. كان «شارل دوبوس» (Charles du Bos) يضع كلّ الحكمة في هذا القول لشاعرٍ إنكليزيٍّ: «لمن ينتظر، كلّ الأمور تسفر عن ذاتها بذاتها، شرط أن يمتلك من الجرأة ما يحول دون إنكاره، عندما تسود الظلمة، ما كان قد شاهده في وَضَح النور».

– **أنتيه:** إنّ مثال تشرشل الذي جعل إنكلترا المهدّدة تستمرّ في الحرب، في حين كان الحذر قد دفع تشامبرلان إلى التماس سِلمٍ مُخزٍ مع هتلر، هو أكثر من المثابرة، هو العناد، هذه الفضيلة القصوى التي تتخطّى، بلا قياسٍ، مجرّد المثابرة.

– **غيتّون:** أستذكر شخصًا آخر عنيدًا، هو الماريشال فوش، الذي التقيته في اجتماعٍ طلاّبيٍّ عام **١٩٢٦**. وقد أدهشني منه ذقنٌ بشكل قبقاب. وكان «ألان» يقول إنّ الحكم على إنسانٍ، واستشعار مصيره، يستلزمان التحديق لا إلى جبينه، بل إلى النافر من ذقنه الذي يُشعر بعناده. وبالفعل تحدَّث فوش إلينا عن العناد موضحًا أنّ الفكرة الصائبة لا تكفي، بل لا بدّ من الدفاع عنها في وجه كلّ الصعاب، وكلّ الرياح والعواصف. كان يشير إلى الأشهر الرهيبة من عام **١٩١٨**، إذ كانت الجبهة الفرنسيّة قد اختُرقت، وباتت باريس مهدّدةً، وكان يقول: «إنّ خصمنا قويٌّ، ولن يتراجع إلاّ إذا كان صمودنا أشدّ مراسًا من صموده».

– **أَنتيه:** في الواقع، العناد العاديّ هو المثابرة عندما لا يبقى أيّ

رجاءٍ معقولاً. أمّا العناد العبقريّ فهو الذي يسرّب إلى السلوك موهبة تمييزٍ فريدةً. ومثال ذلك الجنرال ديغول.

– **غيتّون:** أجل. إنّه ذلك النمط من الفكر الستراتيجيّ الذي يتصدّى مباشرةً للجوهريّ، ويزري بما سواه، متساميًا فوقه. هذه الخصلة التي تميّز بها ديغول، وتشرشل، وفوش، أي تلك النظرة التي تتطلّع تلقائيًّا إلى الجوهريّ، وهذا العناد في المضيّ قدُمًا، ومواجهة كلّ صعبٍ، قد بدت لي، دائمًا، شبيهةً بجهد الفلاسفة الرامي إلى تمييز الجوهريّ من العرَضيّ، وبجهد الصوفيّين الذين بعد أن قيّموا الحياة على ضوء الأبديّة، لا يقيمون كبير وزنٍ لأعراض الألم والموت المدوّنة في الزمن.

– **أَنتييه:** ذلك هو جهدك، أيضًا، يا جان غيتّون، الفيلسوف العنيد، والمؤمن الذي ظلّ، سحابة قرنٍ كاملٍ، وفيًّا لوعد طفولته: الإيمان بسرّ النور، راجيًا رجاءً لايتزعزع، نائيًا بذاته عن لا معقوليّة العدم ،التي كانت خيار زميلك «جان پول سارتر».

– **غيتّون:** أجل، إنّني أشعر أنّ النور قد بات قريبًا، وينتابني انطباعٌ بأنّ الوعد سيُنفّذ، وبأنّ الموعد سيحين. ولكن كم كان هذا القرن المتمرّد طويلاً وشاقًّا! قرن ارتيابٍ، حيث بدا أنّ مهمّة العنف والشرّ تكذيب البشرى الطيّبة التي أُعلنت للوُدعاء ومتواضعي القلوب. إنّ اجتياز هذا القرن يجعلني أفكّر باجتياز الأطلسيّ الجنوبيّ الذي قام به الطيّار «مرموز» في محاولةٍ لربط أوروبّا بأميركا الجنوبيّة، مصطدمًا بمنطقة الهدوء الاستوائيّ، مستودع الأعاصير، والصواعق، والغيوم.

– **أَنتييه:** لقد كان مرموز عنيدًا، وانتصر، مثلما فعل ليندبرغ في الأطلسيّ الشماليّ.

– **غيتّون:** هذا المثال هو ما أودّ وضعه نصب عيون الشباب الذين

يبلغون العشرين من العمر، عام ٢٠٠٠، ويتعيّن عليهم مجابهة الألفيّة الثالثة، المثقلة بالرجاء، وبالكثير من النذُر. إنّ جميع الذين، نظيري، كُتبت لهم حياةٌ طويلةٌ، قد خَبَروا بروز جمٍّ من العوائق، المتوقّعة وغير المتوقّعة، التي تتلقّفنا في أعاصيرها السوداء، وتعمي أَبصارنا، وتجعلنا نرتاب في كلّ شيءٍ، ولا قبلَ لنا على التغلّب عليها إلاّ بالهروب إلى الأمام، مثل «مرموز»، وفقًا للمحور الذي سبق لنا أن حدّدناه. مدى خمسين سنة تقدّمت البشريّة، متلمّسةً طريقها، تحت قنطرة رعبَيْن متنابذَيْن، يلغي أحدهما الآخر، ويؤلّفان ضربًا من السلم.

– **أَنتييه:** أمس كانت تلك الحرب الباردة بين العالم الغربيّ والاتّحاد السوفيتيّ. وغدًا ستبرز مخاطر أُخرى: تعاظم قوّة الشعوب الجائعة، والإرهاب، والتعصّب، والبطالة، والتلوّث، ورفض الحياة المرتبط بالمخدّرات.

– **غيتّون:** من الواضح، إذن، أنّ المستقبل معرَّضٌ للعطب، وقد يتساقط لهبًا أسود. ولكن خلافًا لما كان يقول «تاشيترنُس» (Taciturne)، لا بدّ من الرجاء من أجل المبادرة، ولا بدّ من النجاح من أجل المثابرة. وأكثر من أيّ وقتٍ سيتوجّب العمل، والتألّم، والتأسيس، وتعويد الأجيال على الصبر، والمثابرة، والعناد. وبهذا الثمن سيتحقّق الوعد بعالَمٍ أفضل.

– **أَنتييه:** وهذا ينطبق على الأمور الكبيرة وعلى الأمور الصغيرة على السواء. فإنجاح حياة كلّ يومٍ يستلزم، أيضًا، صبرًا ومثابرةً: الحياة الزوجيّة، والأسرة، والعمل، والعلاقات البشريّة، والكتابة، والفنّ، والرياضة، والمرض، والتحوّل النفسيّ الشخصيّ الذي يتعيّن صقله باستمرارٍ، واستئنافه، وتمحيصه؛ والحياة الروحيّة، ذلك النبع الداخليّ الصغير المعرَّض لتهديدٍ مطّردٍ، وإنّني لأستذكر هذه الأبيات الأربعة للقدّيسة تيرزا الأڤيلاّويّة، التي أصلحت الكرمل، مواجِهةً

الفطنة

مرادفاتٌ: حكمةٌ، سداد رأيٍ، اعتدالٌ، حيطةٌ، اتّزانٌ، حذرٌ
أضدادٌ: طيشٌ، تهوّرٌ، جنونٌ.
أقوالٌ مأثورةٌ: الحذر هو الحبّ الذي يُميّز، بتبصُّرٍ، بين ما هو مفيدٌ له وما هو ضارٌّ». (القدّيس أوغسطينُس)
«الحذَر هو أُمّ الأمان». (ديكتون)

تعريفٌ: الحذر هو الخصلة التي تتيح تبيّن المخاطر والأخطاء، وترشد إلى فعل ما يليق في مسيرة الحياة. الحذر يجهد في تمييز واختيار الجيّد، والصالح، والمفيد. وهو يختلف عن الحكمة، بكونه قائمًا على الحسابات. كان «كروميل» ينصح جنوده: «توكّلوا على الله، واحفظوا بارودكم جافًّا». الحذر حكمةٌ تراعي مصلحة العمل، ولا غنى للحكمة عنها.

وفق أرسطو، الحذر هو موقفٌ يتيح للمرء أن يقرّر، بصوابٍ، ما هو صالحٌ له أو سيّئٌ، في وضعٍ محدّدٍ، كي يعمل لخير مصالحه. ويوضح «كونت سپونڤيل»، مستشهدًا بإيپيقور، «أنّ الفطنة شرطٌ أساسيٌّ لجميع الفضائل الأُخرى. فبمعزلٍ عنها، لا تعرف أيّة فضيلةٍ ما يتعيّن عليها فعله». ويؤكّد القدّيس توما الأكوينيّ: «من الضروريّ أن ينطوي العقل على فضيلةٍ فكريّةٍ توفّر له قدرًا كافيًا من الكمال كي يتصرّف تصرُّفًا سويًّا، حيال الوسائل التي يتعيّن استخدامها. هذه الفضيلة هي الفطنة».

منتقدو الحذر يعترضون بأنّه ليس عدلاً، ولا هو حبٌّ. و«عندما يسود الحذر في كلّ مكانٍ، لا مكان للجرأة على الإطلاق»، على حدّ قول الكردينال مرسييه. والفيلسوف «كانت» لم يكن يرى في الحذَر فضيلةً، بل كان يراه «حبًّا للذات متبصّرًا وحاذقًا». وكان «ماريڤو» قد

لاحظ أنّ القوم الطيّبين هم، غالبًا، غير حذرين، لفرط طيبتهم، في حين أنّ الحذرين هم، نادرًا، طيّبون.

ليس الحذر علمًا، ولكنّه يقوم مقامه، عندما يكون العلم غائبًا. الحيوانات تمتلك الغريزة، وبها تتنظّم، وتتوجّه، وتتفادى الألم، وتعثر على اللذّة، أمّا البشر الحكماء فيمتلكون الفطنة.

ولكنّ الحذر ليس جبنًا، ولا ينفي المخاطرة، ولكنّه يُحسن روز الخيارات كي يواجه المخاطر. «ليس خوفًا، ولا جبنًا، وهو، بمعزلٍ عن الجرأة، يصبح صغارةً، وبمعزلٍ عن الحذر تغدو الجرأة تهوّرًا أو حماقةً» (كونت سپونڤيل).

ولكن ينبغي ألاّ يحكم الحذرُ الفضيلةَ، بل «الحذر يُسدي النصح، والأخلاق تأمر»، على حدّ قول «كانت». والحالة المثلى هي أن يكون الحبّ دافع أفعالنا، والفطنة هاديها. وحيال المخاطر التي تنتجها تجاوزاتُ حضارتنا البشريّة، الفطنة ضروريّةٌ، وإن هي أزعجت كما يزعج الدفاع عن البيئة، والحماية التي يفرضها خطر السيدا على الجنس المتحرّر.

حوارٌ

– **أَنتييه:** الفطنة هي إحدى الفضائل الأساسيّة الأربع، الموروثة عن أرسطو، وهي كفيلةٌ بإثارة تهكّم من يبحثون عن المواقف القصوى. فكيف تعرّف الحذر؟

– **غيتّون:** المرء الحذر هو من يرجّح، في ذاته، إنسان المدى الطويل على إنسان اللحظة الراهنة. ولكن في حقبتنا التي تتميّز بالتحوّلات، لا بدّ من جهدٍ يكاد يتخطّى القدرات الإنسانيّة، من أجل استشفاف المستقبل الذي نهوي نحوه.

– **أَنتييه:** الحذِر هو كائنٌ «عقلانيٌّ».

– **غيتّون:** بالفعل فضيلة الفطنة تؤهّل العقل العمليّ كي يُميّز، في كلّ الحالات، ما هو خيرٌ لنا، ويختار الوسائل الصحيحة لتحقيقه.

وعلى حدّ قول أرسطو، «الفطنة هي مبدأ العمل السويّ»، وهي تتباين عن الجبن والخوف، وعن الازدواجيّة والرياء. إنّها تقود سائر الفضائل، وتحدّد لها القاعدة والقياس. إنّها توجّه حكم الضمير. غير أنّ الحدود تبقى مبهمةً بين الحذَر والوَجل. ولا بدّ، في الحياة، من بعض إقدامٍ، ومن شهوة المخاطرة.

– **أَنتيبه:** هناك، إذن، حذرٌ جيّدٌ، وحذرٌ سيّئٌ. الإفراط في الحذر يقطع أجنحة العمل، ولكنّه يضمن البقاء. وهذا يذكّر بأبيات شعر «راسين»: «أعوامٌ كثيرةٌ لا مجد فيها، أو أيّام معدوداتٌ تعقبها ذكرى طويلةٌ». أنت وقد امتدّ بك العمر، لا بدّ أنّك تمتلك فطنةً مثاليّةً.

– **غيتّون:** القضيّة قضيّة تمييزٍ. فهل عمري المديد هو نتيجة حذَري؟ لقد اعتمد حذري على الظروف. وكان لا بدّ لي من المخاطرة كي أنجح وأبقى. الفطنة كانت تملي عليّ ألاّ أترشّح للأكّاديميّة الفرنسيّة، منافسًا دوقًا. ومع ذلك فعلت وتمّ انتخابي.

– **أَنتيبه:** أنا، في شبابي، برهنت عن تهوّرٍ أحمق. وخاطرتُ مئات المرّات بحياتي، بلا مقابلٍ يستأهل المخاطرة. لقد كانت مخاطرتي «مجّانيّةً».

– **غيتّون:** أمن أجل ترّهاتٍ؟

– **أَنتيبه:** من أجل لذّةٍ عابرةٍ، وكأنّ لا قيمة للحياة، في شبه نشوةٍ. لقد عرفت نشوة الانطلاق على الطرقات، على متن درّاجةٍ بخاريّةٍ مثل حصانٍ جامحٍ، ولكأنّ الدرّاجة جزءٌ منّي. وكان يتولاّني شعورٌ بأنّني، أنا نفسي، درّاجةٌ بخاريّةٌ جامحةٌ. يا للقلب، ويا للحياة! وأنت كنت تتكلّم عن التمييز؟

– **غيتّون:** كنّا نتحدّث عن الفطنة. البقاء وإنجاح الحياة يقتضيان الإقدام على المخاطرة، عندما تستأهل عواقبها ذلك. وحينئذٍ، في سبيل

الحشمة

مرادفاتٌ: خَفَرٌ، كتمانٌ، تحفّظٌ، احتراسٌ، تواضعٌ، عفّةٌ.
أضدادٌ: قحةٌ، فحشٌ، بذاءةٌ، عدم رصانةٍ، استفزازٌ.
أقوالٌ مأثورةٌ: «الحشمة هي عطر اللذّة». (أندريه سواريس)
«الحشمة هي بَشَرة النفس». (ڤيكتور هوغو)
«خَفَرك الفريد يجهد في تمويه ما تدعوه ضعفًا، وما أدعوه حبًّا». (كوليت)

تعريفٌ: الحِشمة هي موقفٌ متحفّظٌ يحول دون قول أو فعل ما قد يخدش الحياء أو ما قد يصدم ذوق الآخرين، أو يضايقهم أخلاقيًّا.

ولكنّ الإفراط في الحياء قد يفضي إلى سلوكٍ متشدّدٍ، وإلى التزمّت، والصرامة.

وفي المقابل، التعدّي على الحياء يعني استفزازًا وقحًا، يمارسه إنسانٌ على آخر، بغية إرضاء نزوةٍ جنسيّةٍ. وانتهاك الحشمة العامّة يعني سلوكًا مخالفًا للآداب، يمارَس علنًا.

الكنيسة الكاثوليكيّة لا تبالي بالانتقادات والسخريّة التي يواجَه بها مفهومها للسلوك الجنسيّ، وتتشبّث بتعاليمها في هذا الشأن.

«الطهر يقتضي الحشمة، وهي جزءٌ أساسيٌّ من التقشّف، والسيطرة على الذات. الحشمة تقي حميميّة الإنسان، وتدعو إلى الإحجام عن إظهار ما ينبغي أن يظلّ مستورًا. إنّها مرتبطةٌ بالعفّة وتشهد على رهافتها. وهي تقود الأنظار والحركات، وفقًا لكرامة الأفراد ووحدتهم؛ وتحمي سرّهم وحبّهم؛ وتدعو إلى الصبر والاعتدال في علاقات الحبّ. الحشمة بساطةٌ، وهي توجّه اختيار الملابس، وتحافظ على الصمت أو التحفّظ حيث يُستشفّ خطر فضولٍ وبيلٍ وتتحوّل إلى كتمانٍ». «إنّها

تملي سلوكًا يمكّن من مقاومة غوايات الأزياء المستحدثة، وضغوط الإيديولوجيّات السائدة». إنّها استشعارٌ دائمٌ لكرامةٍ روحيّةٍ يتميّز بها الإنسان. «إنّ تلقين الحشمة لفتيانٍ أو لمراهقين يوقظهم على احترام الكائن البشري». إنّ ما يُدعى تحرّرًا أخلاقيًّا إنّما يقوم على مفهومٍ خاطئٍ للحرّيّة البشريّة، التي تحتاج إلى الشريعة الأخلاقيّة، كي تستقيم».

حوارٌ

– **أَنتيبه:** نحن نعيش في عصر فقدان الحياء. والتحدُّث عن هذا الموضوع يثير التهكّم، ولكأنّ التصدّي للفحش هو مسٌّ بالحريّة الأساسيّة، حرّيّة إظهار الذات، بدءًا بإظهار الجسد العاري. كانت ممثّلة شهيرةٌ تغنّي أنّ التعرّي، «عاريةٌ تحت الشمس»، يعني التحرّر من كلّ المحرّمات، والحداثة العصريّة. كثيرون يحلمون بمذهب العري، وربّما هم يستذكرون خرافة الفردوس الأرضيّ، قبل الخطيئة، حينما كان آدم وحوّاء يعيشان عاريين، في حالة البراءة.

– **غيتّون:** ينبغي أن نفهم العري على أنّه ما لم يُعِد الفكرُ تصوّرَه، أو ما لا يظهر مغلّفًا بحجابٍ. والمفارقة هي أنّ الخَفَر لا يتجلّى أكثر ممّا يتجلّى لدى كائنٍ مجرّدٍ من ثيابه، ويخشى نظرات الغير. إنّ بعض تماثيل النساء أو الآلهات العاريات، وبعض اللواتي يقفنَ نماذج أمام الرسّامين، تُشعر بالخَفَر، في حين أنّ لا شيء أقلّ احتشامًا من الأزياء التي تخاطب الحواسّ بما تموّه.

– **أَنتيبه:** ولكن في الواقع، ما الدافع إلى الخَفَر؟ ولمَ، بعد أن ارتكب آدم وحوّاء خطيئةً لم تكن خطيئةً جسديّةً، بل خطيئة عصيانٍ وكبرياء، رأيا نفسيهما عاريين، واستحيا من عوراتهما فأخبآها.

– **غيتّون:** لأنّهما فقدا البراءة، ورغم تحذير الربّ ابتغيا، قبل الأوان، هتك سرّ الخير والشرّ. لقد أوجدت الطبيعة رشيماتٍ ينبغي

أن تظلّ ساكنةً، وحيدةً، آمنةً ،إذ عليها أن تكتمل ببطءٍ. إنّها تنطوي على موادّ جوهريّةٍ مغرقةٍ في النقاء، وبالتالي عليها التحاشي عن أيّ اتّصالٍ سابقٍ للأوان. ولذلك تضع الطبيعة حول الرشيمات، غلافاتٍ، وأغشيةً، ومُهلاً، وشبكات حماية. هذه الحشمة تحمي الفكر من الاستعجال، ومن المتعة المبكّرة، إن هو تُرك على سجيّته. وسواءٌ دُعيت بساطةً، أو اعتدالاً، أو خفَرًا، الحشمة تحمي الكائن الأخلاقيّ من دُوار رؤية ذاته يعيش ويتمتّع بذاته، بلا تحفّظٍ.

– **أنتييه:** في الواقع توفّر الحشمة ازدهارًا سليمًا وجميلاً لقدرة التمتّع، للمتعة السليمة.

– **غيتّون:** بالأحرى لحسن استخدام أمور الحواسّ. ولـ «جوبير»، في هذا السياق، قولٌ رائعٌ: «الحشمة تضع فينا شيئًا لا يفسد، يمكّننا من الحبّ بلا توقّفٍ».

– **أنتييه:** جميلٌ هو هذا الحبّ، الذي، بفضل الحشمة، والاعتدال، يدوم بلا توقّفٍ، ويظلّ بمنأًى عن الابتذال، والزمن، والاعتياد، والفساد، التي تمثّل صدأ النفس. ولكنّ العصر ليس عصر حشمةٍ!

– **غيتّون:** إنّنا نحلم بزمنٍ يقع في الجانب الآخر من الزمن الراهن، حيث لا شيء محتجبٌ، ولا شيء متروكٌ للمستقبل، لا شيء ينمو ببطءٍ، أو يوقف على الحميميّة. بل يُدفع بكلّ شيءٍ، دفعًا عنيفًا، تحت الأنظار، بمعزلٍ عن النموّ، والازدهار، والنضج.

– **أنتييه:** لا يقتصر الأمر على الممارسات الجنسيّة، التي تُعرَض على الشاشات، وعلى صفحات المجلاّت، بمنأًى عن أيّ احترامٍ للآخرين، ولنظراتهم. بل هناك، أيضًا، الآلام والموت التي تنشب بالإنسان العامّ الشهير، أو بالإنسان النكرة المُغفل. إنّه تلصّصٌ

تيليفزيونيٌّ مباشرٌ! فما الذي حدَث؟

– **غيتّون:** لقد فقدنا ذلك الحسّ الذي يقتضي التمرّس منه جهدًا طويلاً: حسّ السرّ القدسيّ، والتأهّل له. هذا الحسّ هو ضرورةٌ أساسيّةٌ لكلّ ما يتعلّق بالعمق الحميم: الألم واللذّة، الحياة والموت، الجنس في الحبّ، حسّ النجوى، والحياة الخاصّة، والكتابة الحميمة؛ والنفور من الظهور قبل الأوان؛ حسّ الصمت الذي يغلّف الكلمات.

– **أَنتييه:** هل كنت تقول: حسّ السرّ القدسيّ؟

– **غيتّون:** لقد لاحظ «نوڤاليس» أنّ مفتاح كلّ شيءٍ هو الارتقاء بالأحداث إلى مستوى السرّ القدسيّ.

– **أَنتييه:** حتّى الحبّ؟

– **غيتّون:** بل خاصّةً الحبّ، تلك الثمرة العذبة الناجمة عن صدفة لقاءٍ بين رجلٍ وامرأةٍ؛ الحبّ، تلك الصدفة التي آمن بها القلب.

– **أَنتييه:** يمكننا أن نتساءل بسذاجةٍ، ونحلم: هل ستعود الحشمة إلى الغرب؟ لا بأسلوب الإكراه المفروض على بعض النساء، بل بحرّيّةٍ، ولكأنّها فنٌّ، وطريقة عيشٍ متناغمةٌ؟

– **غيتّون:** إنّني أرجو ذلك، وأومن به. ما من قرنٍ بزّ قرننا فسقًا! لقد انتفت فيه كلّ حميميّةٍ، وكلّ تأهّلٍ للسرّ القدسيّ، كلّ صمتٍ حول الكلمة. وستكون النتيجة أن نقرف، قريبًا، من الفسق. فهو يبدّد الجمال. وهذا ما أدركه الشرقيّون الذين اخترعوا الثياب الفضفاضة، والثنيات، والحُجب. وغدًا ستعود الأزياء إلى الفستان، والخمار الشفّاف. وسنكتشف، مجدّدًا، الثياب، والتريّث، والسرّ القدسيّ، والانتظار، والصمت.

– **أَنتييه:** على ماذا تبني رجاءَك هذا؟

– **غيتّون:** قلت لك: على الطبيعة، التي لا يمكن انتهاكها بلا عقابٍ. فالحشمة ليست بدعةً عابرةً، أو اختراعًا مصطنعًا. بل إنّ لها وظيفةً بيولوجيّةً جوهريّةً مهمّتها ضمان تناغم النفس والجسد، الروح والمادّة.

– **أَنتيبه:** تحدّثت عن التريُّث، ذلك المساعد للحبّ المنقطع النظير.

– **غيتّون:** إنّ الطبيعة تحمينا من الانفجار المباغت (انفجار الألم أو انفجار اللذّة) بواسطة التريّث. إنّها تحول دون استعجالنا، ودون فعلنا كلّ شيءٍ، في الحال. إنّها تضع حاجزًا زمنيًّا بين الرغبة والمتعة. في المدى يُدعى ذلك مسافةً. أمّا في الزمن فيُدعى تريّثًا، تلكّؤًا، انتظارًا، رجاءً. بالإجمال الحشمة هي جهاز النضج. نحن نودّ أنّ نتمتّع ونموت ولكنّ الحشمة تعلّمنا أن ننضج ونحيا؛ وتساعدنا على ألاّ نحتفظ من الهوى إلاّ بالمودّة، ومن المودّة إلاّ بجوهرها. إنّها تمكّننا من ألاّ نكفّ عن حبّ من نحبّ، حتّى بعد غيابهم. وعلى حدّ قول «جوبير (Joubert)، أيضًا: «الحشمة تُبقي البذرة في حالة سكونٍ، وعزلةٍ، وأمانٍ، وفجأةً، تجعلها تنبثق». على هذا النحو صيغ الكون.

الاحترام

مرادفاتٌ: اعتبارٌ، تقديرٌ، تبجيلٌ، إكرامٌ، محبّةٌ، صداقةٌ.

أضدادٌ: ازدراءٌ، قحةٌ، استهتارٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «النفس الأرستقراطيّة تحترم ذاتها». (نيتشه)

«يحترم الناس من يحترم ذاته». (بلزاك)

تعريفٌ: الاحترام موقفٌ يحمل على عدم الإضرار بقضيّةٍ، أو بشخصٍ، أو بشيءٍ. فهناك احترام مال الغير، واحترام الحرّيّة، والحقيقة، والقوانين، والأخلاق، والذكرى، والتقاليد، واللياقات الاجتماعيّة، والصمت، والحياة، والطبيعة. إنّه شعورٌ إيثاريٌّ يحمل على معاملة الآخر بتوقيرٍ، لأسبابٍ متنوّعةٍ: السنّ، أو الجنس، أو الوظيفة الأسرويّة أو الاجتماعيّة، أو المركز، أو الاستحقاق، أو المصلحة. وقد يكون تعبيرًا مرهفًا عن حبّ الفقراء والمتألّمين، على حدّ قول أشعيا: «إنّ لك في نفسي قيمةً، وأنا أحبّك».

كتب «جانكيليفتش»: «الاحترام هو الوسيط بين موقف التسامح الفارغ، وإيجابيّة الحبّ المفعمة لطفًا، بين الممارسة الرسميّة والمحبّة. إنّه اعترافٌ بسرّ الفرد القدسيّ وبحميميّته الفائقة».

ولا بدّ من الاعتراف بأنّ العالم الحديث والعلم لا يكفّان ينتهكان هذا الاحترام بفضولٍ سافرٍ، بل مدنّسٍ ووبيلٍ: صحافة الفضائح، وتشريح الجثث، وتحقيقاتٌ بحجّة خدمة العدالة. الاحترام هو، أوّلاً، احترام القطاع السرّيّ من ذواتنا، الذي ينبغي أن يبقى خاصًّا، لأنّه درجة الحرّيّة الأولى.

في العلاقات بين الرجال والنساء، كان الاحترام يلعب دورًا أساسيًّا، ولكنّه فقده، اليوم. وكم نودّ أن نهدي شباب العام **٢٠٠٠** هذا المقطع لـ «جانكيليفتش»، المثقل بالمغزى:

«إنّ الاحترام الذي يفترض مسافةً ليس حبًّا بقدر ما هو محاولة حبٍّ، اندفاعٌ ملجومٌ، ومكبوتٌ أبدًا. الاحترام يتطلّع إلى الحبّ، ولكنّه لا يقوى، أو لا يجرؤ عليه. يودّ الاندماج بهدفه والذوبان فيه، ولكنّ حاجزًا يفصله عنه، حاجز الخجل».

حوارٌ

– **أَنتييه:** يسود انطباعٌ بأنّ الأجيال الجديدة تعتبر الاحترام عائقًا دون الحرّيّة، وبخاصّةٍ، ضربًا من الفشل المقنّع. غير أنّ «جانكيليڤتش» يقول: «الاحترام يتطلّع إلى وعي الحبّ الأقصى. الاحترام يركع أمام الشيء المحترم، لا من أجل تأمّله وكأنّه مشهدٌ، بل لكي يعبده، وكأنّه سرٌّ قدسيٌّ».

– **غيتّون:** لفظة «العبادة» هذه تُدخلنا إلى سرّ البُعد الروحيّ. حتّى في الأماكن المقدّسة، فقد الناس الاحترام المفعم مهابةً الذي كانوا يُبدونه، قديمًا، لكلّ ما يتحدّث عن فائق الطبيعة. وما ذلك إلاّ نتيجة فقدان الحسّ القدسيّ الناشب بحضارتنا التي تعبد المادّة والمال، وتعدّهما الوحيدَيْن الجديرَيْن بالاحترام.

– **أَنتييه:** لحسن الطالع، يقول، أيضًا، «جانكيليڤتش»: «الاحترام لا ينضب. ولكنّه، في اللامحدود، يتروحن. وكما أنّ أفق الحرّيّة يتخطّى كلّ عبوديّةٍ تخطّيًا لامحدودًا، هكذا ينتزع الاحترامُ قدس الأقداس اللاملموس من براثن تقدّم انعدام الحسّ بالمقدّسات».

– **غيتّون:** الاحترام يُفقَد. هذا أقلّ ما يمكن قوله!

– **أَنتييه:** احترامٌ حيال السلطة القائمة: المدنيّة، والعسكريّة، والعائليّة، والدينيّة والمهنيّة. وذلك الاحترام الكبير الذي كان أساس قوّة المجتمعات الإغريقيّة والرومانيّة، احترام المسنّين. أراك تبتسم، يا جان غيتّون.

– **غيتّون:** إنّه لواقعٌ راهنٌ: لم تعد الشبيبة تعترف بما للسنّ من

سلطةٍ. فعندما أقول لشابٍّ إنّ عليه أن يحترمني لأنّني بلغت السابعة والتسعين من العمر، أُثير ضحكه. وإنّني أتبيّن جيّدًا ما يدور في خَلَده: إنّه يعتقد أنّ من بلغ مثل عمري لا يصلح إلاّ للقبر.

– **أَنتييه:** قديمًا كانت سلطة الشيخ بدهيّةً، لا تناقَش. فكبير الأُسرة كان، دائمًا، على حقٍّ، نتيجة سنّه، وما اكتسبه من خبراتٍ، والحكمة التي توليها المِحَن التي تمّ تخطّيها. عن كلّ ذلك كان ينجم الاحترام. ولكن يبدو لي استشفاف عودة الشبيبة صوب الشيوخ، كما نلحظ لدى «إخوة الفقراء الصغار» وموقفهم هذا يُدعى حبًّا.

– **غيتّون:** على أن يكون الشيوخ جديرين بالاحترام والحبّ، واعين لدورهم في تمثيل الحكمة والقدوة، ومحافظين على كرامتهم حيال أسرار الألم والموت.

– **أَنتييه:** وليس الاحترام وقفًا على الشيوخ، بل هو حقٌّ لكلّ حيٍّ، لكلّ موجودٍ، ما خلا الشرّ. وكما جاء في قولٍ رائعٍ ورد في الـ «الأوبانيشاد»: «الله هو ثقل الحجر، وقدرة النبتة على النموّ، وتنفّس الحيوان، وهو الحبّ في الإنسان». ولسنا نناى عن موضوعنا بملاحظاتنا هذه. إنّ الاحترام هو شرط الحبّ الأوّل.

يمكن تفسير موقف الشباب السلبيّ بخشيتهم من أن يفضي الاكتفاء بقِيَم الماضي إلى إيصاد أبواب المستقبل. هذا ما نشهده في الأوساط العلميّة، وخاصَّةً في ميدان البحث البيولوجيّ. وهنا تُطرح قضيّةٌ جديدةٌ: أين ينبغي أن تتوقّف عين العلم التي فقدت الاحترام، باسم التقدّم؟ كيف ينبغي تقييم ردّ فعل الأونيسكو حيال معالجة الجينات، وردّ فعل رئيس الجمهوريّة حيال الاستنساخ البشريّ؟ وهل يتوجّب احترام أُسس الحياة احترامًا أعمى؟

– **غيتّون:** إنّها قضيّةٌ أخلاقيّةٌ، عسيرة الحلّ.

– **أَنتييه:** ولكنّها قضيّةٌ لا بدّ من التصدّي لها، ففي المرحلة التي انتهت إليها بشريّةٌ شرعت تتولّى مصيرها بنفسها تدريجيًّا، وتتدخّل

لمنع الموت أو لتأخير أجله، وتعيق عمليّة الانتقاء الطبيعيّ الدهريّة، لا يمكن لَجم الأبحاث العلميّة. فإن أتيح لاّمرأةٍ تخطّت الخمسين من العمر أن تنجب اصطناعيًّا، باسم حرّيّة الإنجاب، فلا بدّ من جهدٍ موازٍ يستهدف البحث، بالوسائل الجينيّة، عن طريقةٍ تقيها من وضع ولدٍ معطوبٍ.

– **غيتّون:** ليس هذا سببًا كافيًا لفعل أيّ شيءٍ.

– **أَنتييه:** فإذن أين هي حدود البحث؟ وأين يبدأ، وأين ينتهي الاحترام؟

– **غيتّون:** في كلّ بحثٍ يعرّض نظام الحياة للاضطراب، يتعيّن الدأب ببطء، ورَوْز الإيجابيّ والسلبيّ، واستشارة الحكماء في شتّى الاختصاصات، والاسترشاد بالسلطات الروحيّة والأخلاقيّة، وإيلاء الأولويّة للمصلحة العامّة على المصلحة الخاصّة بمختبرٍ ما، أو بجماعة بحثٍ ما، باسم الحرّيّة.

– **أَنتييه:** ولكن ينبغي أن تكون، ثمّة، فكرةٌ واضحةٌ عن «المصلحة العامّة». فما تقترحون؟

– **غيتّون:** إنّ الغاية القصوى للمحيط الحيويّ وللتكوين الكونيّ، هي إيجاد جنسٍ مفكّرٍ، مؤهّلٍ للسعادة الحقّة، زمنيًّا وأبديًّا معًا، في حيّزٍ قد يكون فريدًا، وهو الأرض. وأظنّ أنّ غاية الكون والعوالمٌ هي إنتاج كائنين سامين، أي إنّهم، بفضل آليّةٍ تحرّكها صدفةٌ موجّهةٌ من بُعد، كائنون قادرون على الفهم والحبّ، والاتّحاد، في ما بينهم بحرّيّةٍ، والاتّحاد بالله.

– **أَنتييه:** في الواقع، قال برغسون: «إنّ وظيفة الكون الأساسيّة هي أن يكون آلةً لصنع آلهةٍ».

– **غيتّون:** وفي هذا السرّ الذي لا يحيط به وصفٌ، تندرج هذه

الحكمة

– **مرادفاتٌ:** ذكاءٌ، تعقّلٌ، فطنةٌ، اعتدالٌ، حكمٌ سديدٌ، سلوكٌ سويٌّ، تمييزٌ.

– **أضدادٌ:** جهلٌ، طيشٌ، حماقةٌ.

– **أقوالٌ مأثورةٌ:** «الحكمة تزوّد الحكيم بقوّةٍ تتخطّى قوّة عشرة قادة حربٍ مجتمعين». (سفر الجامعة ٧: ١٩)

«الشباب هو مرحلة دراسة الحكمة، والشيخوخة هي مرحلة ممارستها». (روسّو)

«النجّار يصوغ الخشب، والحكيم يصوغ ذاته». (بوذا)

«الإنسان الحرّ هو الذي يحيا تحت قيادة العقل، لا غير». (سپينوزا)

«العقل يصنع فلاسفةً، والمجد يصنع أبطالاً. ووحدها الفضيلة تصنع حكماء». (ڤوڤينارغ Vauvenargues)

«الحكمة هي مطلع الجمال». (جوبير Joubert)

– **تعريفٌ:** الحكمة هي معرفة الأشياء، معرفةً فطريّةً أو مكتسبةً. وهي التوافق مع قواعد العقل والأخلاق. إنّها نقيض الحماقة. وهي لا تكون فضيلة العقل إلاّ إذ انطوت على الحلم.

على مستوى الحياة اليوميّة تقتضي الحكمة «أخذ الأمور على علاّتها، واستخدامها وفقًا لما تتيح الظروف»، على حدّ قول «جاك دي لاكريتيل» (Jacques de Lacretelle). إنّ بعض المتهوّرين أو الثائرين يحطّون من شأن فضيلة الحكمة، بحجّة أنّها تلامس البرودة، أحيانًا، أو تلجم جموح الحرّيّة. بيد أنّ الحكمة الحقّة تكمن في كونها توفّر التوازن بين الهوى، أي المحرّك، والقاعدة الصارمة، وهي المكبح.

والحكيم متواضعٌ أبدًا، فعلى حدّ قول «المشنا»: «إنّه من يجد لدى كلّ إنسانٍ ما يتعلّمه منه».

لاهوتيًّا، تستند الحكمة على تمييز يتّسم بما يفوق الطبيعة، إذ إنّ الله وحده هو حكيمٌ حكمةً مطلقةً. إنّ موهبة الحكمة هي إحدى مواهب الروح القدس السبع. يقول العهد القديم: «أساس الحكمة مخافة الله». ويؤكّد سليمان، في «سفر الحكمة» أنّ هذه الفضيلة هي منبع السعادة في الدنيا، وضمان الخلود. «بما أنّ الحكمة واحدةٌ، فهي تقوى على كلّ شيءٍ. ومع بقائها ساكنةً في ذاتها، فهي تجدّد كلّ شيء».

وعلى مقربةٍ وثيقةٍ من الحكمة، العقل هو امتياز الإنسان. وهو يمكّن من المعرفة، والتمييز، والحكم، ويجب أن يكون قاعدة أعمالنا. غير أنّ العقل نادرًا ما ينتصر على الأهواء. ولذلك ينبغي عدم فصله عن الوعي الأخلاقيّ، مثلما ينبغي إغناؤه، وصقله بالتجربة التي تصنع الحكم السليم. غير أنّ الحكمة البشريّة، كما تبيّن من سياق ما سلف، نسبيّةٌ جدًّا، وعن هذه النسبيّة عينها تنجم المصائب الفرديّة والجماعيّة.

حوارٌ

– **أَنتيبه:** لمَ الحكماء هم قلّةٌ؟

– **غيتّون:** فلنقلب السؤال: لمَ يبدو أنّ في جماعات الحشرات، كالنمل والنحل، من الحكمة أكثر ممّا في المجتمعات البشريّة؟ ذلك لأنّ غاية الحياة السرّيّة، ليست الاستقرار، بل البحث الدائب.

– **أَنتيبه:** أفهم وجهة نظرك. فالفشل يولّد البحث، ويتيح للإنسان، رأس الأحياء الباحث، أن يتطوّر، ويرتقي إلى مرحلةٍ عليا.

– **غيتّون:** أجل، بالضبط. غير أنّه لا بدّ من الحكمة لتنظيم هذه المكتسبات. الحكمة، إذن، هي أسلوب حياةٍ وعملٍ، وبناءٍ للذات، بتفعيل الفضائل: العدل، والفطنة، والقوّة، والاعتدال. إنّ الإيمان، والرجاء، والمحبّة، تشرع الدرب صوب «فضائل» أفلاطون الثلاث: الجمال، والخير، والحقّ. بيد أنّ الحكيم هو، أوّلاً، «المتيقّظ»، أي من يدهش من كلّ شيءٍ، ويتمتّع بكلّ شيءٍ، هنا، والآن. ولذلك

ينبغي السيطرة على الزمن، أي العثور عليه، وإيقافه، وتذوّقه.

– **أَنتييه:** تحدّثت على إيقاف الزمن. فهل تعني العمل؟

– **غيتّون:** إنّ الحياة تتولّى هذه المهمّة، نيابةً عنّا. فكم من الفراغ في حياتنا؟ صداعٌ، وعِلَلٌ، وأوهانٌ، وعجزٌ، وأخيرًا النوم الذي يكفّن نهارًا مُتعبًا. هذه اللحظات الغامضة المتمرّدة، تُعطى لنا لكي نتمكّن من تجسيد الحكمة، بتوقيف الزمن.

– **أَنتييه:** إنّني أُحبّ هذا العرض الثوريّ الذي يذكّرني بقول «إيخيليُس» (Eschyle): «يحسن تعلّم الحكمة في مدرسة الألم». ولطالما أدهشني هذا الواقع: في المحنة، وفي الفشل، أتوقّف، ويُكره الألم «أَناي» على الامّحاء. ويعبر ملاكٌ، وتلامسني الحكمة بجناحها. إنّها لحظة سعادةٍ صافيةٍ. وأكاد أصبح ذكيًّا. وحينئذٍ يستعيد «أَناي» كيانه، وأنطلق من جديدٍ، أفضل أهبةً للعمل، عملٍ لن يكون، بعدُ، كينونةً، بل امتلاكًا. وهكذا يتحقّق التناوب بين العمل والفكر، الذي تصفه أنت بأنّه محرّك التطوّر.

– **غيتّون:** على مدى حياتي الطويلة، مُنيت بطائفةٍ من المِحَن، مثل وقوعي أسير حربٍ، وبعددٍ من الحوادث، مثل الوعكات الصحّيّة. وقد استخدمتها على الوجه التالي: إنّني أُعمل الفكر في الحادث حتّى أجرّده من طابعه العَرَضيّ، وأُلحقه بالتاريخ الكونيّ، إذ ينبغي أن يُنتزع من كلّ حادثٍ طابعه الوبيل المثير، واكتشاف جانبه الإيجابيّ.

– **أَنتييه:** حتّى الموت؟

– **غيتّون:** بل خاصّةً الموت. وبعبارةٍ أُخرى، إنّني أجهد في اقتباس كلّ ما هو جيّدٌ من الأمور السيّئة، ظاهريًّا.

– **أَنتييه:** كثيرون لا يتعرّضون لحوادث كفيلةٍ بإيقاظهم. فما هي

الحكمة، لهم؟

– **غيتّون:** حتّى إن لم يفعل المرء شيئًا، واقتصر على كونه ما هو، بوسعه أن يعمل. لقد كان الشاعر الشيخ الأعمى ميلتون يدعو إلى: «الانتصاب وقوفًا والانتظار».

– **أَنتييه:** كان پاسكال يؤكّد أن «كلّ بؤس البشر ناجمٌ عن عجزهم على البقاء، ساكنين، في غرفةٍ». ولكن ألا يلزمهم، لممارسة هذا السكون، اكتساب السلام، والحكمة، والتوغّل إلى تلك الأعماق؟

– **غيتّون:** الأحداث هي التي تهب الحكمة. وهذا هو امتياز العمر لمن يعرف الإفادة منه. ولكلّ فردٍ، الحكمة هي معرفة حدوده والتزامها. كم من جهود يبدّدها التطلّع إلى عظمةٍ زائفةٍ، والتماس كمالٍ يتخطّى الطاقات الذاتيّة! لا ريب أنّه يخلق بالمرء السعي باستمرارٍ إلى إنماء فكره، وتوسيع آفاقه، ومضاعفة جرأته، ولكن بالدأب على النهوض بمهمّاتٍ محدّدةٍ، وبالتالي متواضعةٍ، مع توقّع هفواتٍ وإخفاقاتٍ لا بدّ منها. وحريٌّ بالإنسان ألاّ يداعب، عن ذاته، أوهامًا، بل أن يتبيّن ما يغشاه من ظلالٍ، وزوايا مظلمةٍ، كما من شأنه أن يتفقّد عن كثبٍ بيتًا ورثه. إنّ الحدود هي جزءٌ من الأشياء ذاتها، مثلما الندوب هي جزءٌ من الجسد.

– **أَنتييه:** إنّ فضيلة التواضع هذه هي أصعب ما يمكن اكتسابه.

– **غيتّون:** ولكن أيّة راحةٍ، وأيّ رضًى، وأيّة عذوبةٍ، تنجم عن قبول الذات على علاّتها، بما يعتورها من صعودٍ وهبوطٍ، لا خيرًا ممّا هي، ولا أسوأ ممّا هي! وأيّ فرحٍ في معرفة الذات، وفي القدرة على إضافة بعض كمالاتٍ على الكيان؛ فرح التمتّع بالذات، والرضى بما هي عليه، وبامتلاك المرء ما هو بحوزته. بمعزلٍ عن هذه الحكمة البدائيّة، وعن هذا التواضع، ما العظمة سوى وهمٍ مؤلمٍ.

– **أَنتييه:** يقول أرسطو، مقتبسًا فكرة بوذا الأساسيّة: «الحكيم يلتمس غياب الألم ولا يلتمس اللذّة». إنّني لا أستسيغ هذه الحكمة السلبيّة. فهل لديك نصائح عمليّةٌ أكثر إيجابيّةً؟

– **غيتّون:** الحكيم يقول: «أغلق عينيك، ترَ». إعمال الفكر، والسيطرة على الذات، ووضع مخطّطاتٍ، وانتظار الساعة، والتنفّس بعمقٍ، والعمل ما دام النهار، والتأكّد من وفاء من وحّدنا بهم القلب والوجود معًا، ومعرفة أنّنا سنفي بوعودنا، وسنكون أوفياء لذوينا، والشعور بأنّنا مترسّخون في موطننا، في محورٍ ثابتٍ، على أن نكون مرآةً منفتحةً على كلّ شيءٍ، وقادرةً، عند الاقتضاء، على عكس الكون كلّه، كلّ هذه أسباب رضًى متوفّرةٌ لكلّ فردٍ. ومن حظي بها، لا يبقى عليه سوى الاستجابة للنداءات، مثلما تستجيب النبتة المثقلة بالحبوب للريح. وستوافيه المناسبات تلقائيًّا، فتتطاير الحبوب. ومن هذه الوفرة سيولد العمل، سواءٌ كان فكرًا أو عملاً.

– **أَنتييه:** في نظرك من أكثر من جسّد الحكمة في القرن العشرين؟

– **غيتّون:** البابا الطيّب، يوحنّا الثالث والعشرون. كلامه كان بوحًا هادئًا. كان يسود مُحاورَه الانطباعُ بأنّه لا يصغي إليه جيّدًا، ولكنّه كان يفهمه فهمًا مطلقًا. الأُلفة كانت فضيلته، تلك التي قال عنها «ڤوڤنارغ»: «لا يمكن فهم البشر إلاّ من خلال معاشرةٍ حرَّةٍ وبريئةٍ». وقد كان «أنجيلو رونكالّي» (وهو اسم البابا يوحنّا الثالث والعشرين) ينشد مثل هذا الاتّصال. كان بحاجةٍ إلى هذا الاستسلام للآخر كي يكون ذاته، وكي يهب الله ذاته. في هذا الاسترخاء الأليف كان يجد فرصة ممارسة العظمة. كان يجيد وضع نفسه في حالة خشوعٍ وجاهزيّةٍ. الأفكار العميقة التي كانت تسكنه، كانت تخطر بباله بغتةً، ولكأنّها آتيةٌ من الخارج. كان من تلك الأذهان السريعة والطيّعة التي تحتاج إلى اللامتوقّع.

– **أَنتييه:** هل كان يتذكّر أصوله القرويّة؟

– **غيتّون:** أجل، كان يستشهد بها. غير أنّه، عندما انتُخب حبرًا أعظم، بدا منشرحًا، رشيقًا، خاضعًا للروح القدس، مرتاحًا، سعيدًا بوجوده، وبكونه بابا، وبكونه في مكانه، ولكأنّه لم يفعل، في حياته، سوى ذلك.

– **أَنتييه:** هل كان لديه منهج حكمةٍ؟

– **غيتّون:** كان يطيب له التحدّث عن منهجه الخالي من أيّ منهجٍ، ومن أيّ تصنّعٍ، والقائم على أن يكون ذاته، بكلّ بساطةٍ. كان يمارس فلسفة اللحظة الراهنة بلا خوفٍ، موليًا اللّه كلّ ثقته. كان لديه مَحاور أكثر ممّا كان لديه أفكارٌ محدّدةٌ. وكان لديه اندفاعٌ جمٌّ أكثر ممّا كان لديه من إراداتٍ خاصّةٍ. على غرار الفنّانين، كان يستسلم للعمل الذي كان يتحقّق، مستلهمًا خطوطه الأوّليّة غير المكتملة. وبالإجمال كان يقلّد، على غير علمٍ منه، عمل الحكمة الأبديّة، التي يصفها سفر الحكمة، بأنّها تعبث في أفلاك الأرض، وتتمتّع بعِشرة أبناء البشر. ولم يكن المستقبل يوحي له بأيّ قلقٍ. إنّ النور يولّد النور. والطريق المتَّبَعة ترشد إلى الطرق التي ما زال يتعيّن انتهاجها. الحياة تسبق الحقيقة. وهو كان من سلالة سقراط ومونتينيي (Montaigne)، التي أسبغ عليها تواضعه.

– **أَنتييه:** لا بدّ من التأكيد، بشدّةٍ، على أنّ التواضع هو أحد أُسس الحكمة.

– **غيتّون:** وهو، على غرار سقراط، كان يبدو يقول: «لستُ أعلم سوى أمرٍ واحدٍ، وهو أنّي لست أعلم شيئًا». ولا ريب أنّه كان يرى أنّ ثمّة شيئًا أسمى من استخدام العقل: الحكم السديد، وبساطة الكيان، والإحساس بأوضاع البشر.

– **أنتييه:** لقد انتُخب الكردينال رونكالّي حبرًا أعظم، وهو في السابعة والسبعبن من عمره. فهل الحكمة هي فضيلة الشيخوخة؟

– **غيتّون:** قد تنمو الحكمة مع السنّ، وهذا النموّ يسبغ على الشيخوخة قدرًا. لا ريب أنّ الشيخوخة قد أسيئت تسميتها، فهي ليست، للفكر، سنّ الانحطاط، بل سنّ الاستذكار والاستخلاص، التي تمكّن من تذوّق كلّ أفراح مراحل العمر السالفة. ولا ننسينّ كلمة «بوسّويه»: «الحكمة هي تعلّم الصمت»، الذي يتيح الإصغاء.

– **أنتييه:** هذا النمط من الحكمة الداخليّة يقتضي مزيجًا متناغمًا من إحساسٍ وتجرّدٍ. وقد قال «روسّو»: «كن حسّاسًا، ولكن كن حكيمًا. وإنْ لم تكن سوى أحدهما، فما أنت بشيءٍ».

– **غيتّون:** أجل. وتحين لحظةٌ، في أقصى الشيخوخة، حيث يتعيّن اختيار الإقلاع عن المعرفة، والعمل، والاستقبال، حتّى اليوم الذي ينبغي أن يقبل المرء أن يكون جسدًا مسجًّى، ثمّ أن يتحوّل تحوّلاً أبديًّا. وحينئذٍ سيتذوّق الحكمة القصوى.

الصمت

مرادفاتٌ: تأمّلٌ، تواضعٌ، سلامٌ، حياةٌ داخليّةٌ، سكونٌ، فراغٌ، انكفاءٌ على الذات، سكوتٌ.

أضدادٌ: ثرثرةٌ، تبجّحٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «الصمت حكمةٌ». (كيركيغارد)

«من يعلّمك الصمت، أي الحكمة الوحيدة التي تلائمك؟». (سفر أيّوب) «كلّما رغبتَ في الكلام، اصمتْ». (تورينّ Turenne)

«وحده الصمت عظيمٌ. كلّ ما سواه وهنٌ». (ألفريد دي ڤينيي)

«الصمت روعة الأقوياء، وملجأ الضعفاء». (ديغول)

تعريفٌ: الصمت هو انعدام الضجيج. هو وضع شخصٍ صامتٍ، ممسكٍ عن الكلام. مجازًا هو إخفاء النوايا والمشاعر، والإحجام عن إبداء الرأي. ويقال، أيضًا، «صمت الأهواء» للدلالة على السلام الداخليّ. وهو يعني أيضًا التسليم، والألم الصامت.

سواءٌ تعلّق الأمر بسلوكٍ، مثل إحداث ضجيجٍ أو عدم إحداثه، أو بأسلوب التعبير عن فكرةٍ، التزام الصمت أو عدمه ينمّ عن طبعٍ معيّنٍ. فمن لا يزعجه الضجيج ينزع إلى إحداثه، لأنّ الصمت يشيع فيه الاضطراب. هذا ما يتّضح في قول من يصفون المدينة التي يهدأ فيها كلّ شيءٍ، بعد الساعة العاشرة ليلاً، «مدينةً ميتة».

لا ريب أنّ الصمت التامّ لا يتوافق مع الحياة. وخير دليلٍ على ذلك هو دويّ الغابات، ليلاً. غير أنّ إحداث ضجّةٍ لا مبرّر لها سوى اللهو، ينمّ عن أَثَرةٍ مُقلقةٍ. ومن ثمّ يتحتّم على كلّ فردٍ السعي إلى الحدّ من كلّ ضجيجٍ من شأنه إزعاج الجوار، نهارًا أو ليلاً. إنّ مجرّد طرح هذا السؤال يدلّ على شعورٍ بالمسؤوليّة. والعمل بهدي هذا الشعور يثبت التمتّع بإيثارٍ لا تطاق الحياة، بمعزلٍ عنه.

وفي ميدان الفكر، لا معدى عن الصمت. فهو يتيح التركيز، والخشوع الذي يقتضيه إعمال الفكر. وقد قال «لوي لاڤيلّ» (Louis Lavelle): «الصمت هو آية التكريم التي يؤدّيها الكلام للفكر».

أمّا في ميدان علم النفس، فالكلام ضروريٌّ، لأنّه أداة تحرّرٍ، وقد قالت الطبيبة النفسيّة «ف. دولتو» (F. Dolto): «المعضلة التي يتكلّم عنها المرء تفقد خطورتها».

وللصوفيّ الذي ينشد المطلق، الصمت هو طريقٌ ملكيٌّ، وقد كتب «دركهَيْم» (K.Durckheim): «حيث يُسمع جرْس الصمت يتخطّى التأمّل الموضوع» و«وحدها الأُذن المتحرّرة من كلّ الأصوات تستطيع سماع الصوت الذي يعلو على كلّ الأصوات». وعندما يصبح المتأمّل شفّافًا لجسده، ولواقعه المادّيّ، حينئذ «يدخل الصمت، صمتٌ هو أكثر من انعدام ضجيجٍ، صمتٌ يتكلّم، وفيه يعبّر الكيان عن ذاته مباشرةً».

في عصرنا الضاجّ الثرثار، أصمّ الإنسان ذاته، بما يُحدثه من صخبٍ، وبات يردّ على «صمت الله» بإنكار كلّ ما ورائيّةٍ، وبالإلحاد. ولكن، بفضل الصمت يغوص الإنسان إلى أعماق ذاته ويكتشف الجوهر الروحيّ الذي يقوم عليه أساسه. وهكذا يكتشف توافقه مع خالقه الصامت. فسماع الصمت هو رؤية اللامرئيّ. وهذا ينجم عن بُعدٍ آخر، وارتحالٍ آخر، ليس ما يضاهيه، على هذه الدنيا، مغامرةً. ومن جرّاء عجزنا عن بلوغ هذه الغاية الآن، نحلم بها، صامتين.

حوارٌ

— **أنتييه:** ثمّة تناقضٌ في ما يتعلّق بالصمت. فهو، من جانبٍ، فضيلةٌ أساسيّةٌ تسمح بالانحدار إلى أعماق الذات من أَجل سماع الجوهريّ، أي صوت السيّد الداخليّ الخافت. ولذلك تفرض الأديرة والمناسك «الصمت الكبير». ومن جانبٍ آخر نفكّر بأنبياء العهد القديم الذين كانوا يجأرون بالدعوة إلى التوبة وسط الجماهير، وبهذا القول لپاسكال: «لم يصمت القدّيسون، قطّ».

– **غيتّون:** لقد أصبت كبد الحقيقة بقولك إنّ الصمت هو مؤسِّسٌ. فهو يؤهّل الضمير لتلقّي رسالة الآلهة، ويؤهّل الفكرة كي تصوغ ذاتها، ويمكّن المشروع من بلوغ النضج. وقد قال پول ڤاليري: «كلّ ذرّة صمتٍ هي فرصةٌ لثمرةٍ ناضجةٍ». وبعدئذٍ، كلّ من يؤمن أنّ لديه ما يقول فليقلْه. حينئذٍ ينبجس الكلام من صمتٍ عنيدٍ، وتنطلق السهم من وترٍ مشدودٍ. وقد عبّر عن ذلك «ألدوس هكسلي» (Huxley Aldous) بقوله: «يزخر الصمت بقدرات الحكمة والفكر، مثلما يزخر الرخام الخام بقدرات النحت». ومن المحقّق أنّ الصمت، وهو روح كلّ كلامٍ، قد عدّه الحكماء دائمًا، بمثابة الخير الأثمن والأغلى. لا بل ألّهه الأقدمون، فكان «هربوقرات» الإغريقيّين، و«تاشيتا» الرومان...

– **أَنتيه:**... لا بدّ من السكوت من أجل السماع. الصمت يحاكي ظلّ الصوت، وهو يصنع نور الكلام الذي لم يُتلَفَّظ به، بعدُ. إنّ التمرُّس من الصمت فنٌّ. كان أبي ينصحني: «ما ستقوله، أنت تعلمه. فخيرٌ لك أن تصمت وتصغي». من يصمت ويصغي يظفر بمحبّة محيطه. ولكن من دواعي الأسف أنّ كلام من أَلفوا الصمت هو الأوفر فائدةً لنا، أمّا الآخرون فثرثارون. وقد أدلى «مونترلان» (Montherlant) بهذا القول القاسي: «ما أكثر الأقوال التي لا تستأهل أن تقال. وما أكثر الذين لا يستأهلون أن تقال لهم الأقوال الجيّدة»! فما أوسع رقعة الصمت! هل ينبغي الصمت، إذن؟

– **غيتّون:** بل ينبغي التكلّم عن درايةٍ. وقد ورد على لسان «ميرلو پونتي» (Merleau Ponty) هذا القول الكفيل بإِطراب الأدباء: «بتحطيمه الصمت يحقّق الكلام ما حاول الصمت التعبير عنه، وعجز».

– **أَنتيه:** كذلك هو شأن الكتابة، ذلك الكلام الصامت. وما زلت

أؤكّد أنّ أكثر ما يفتقر إليه عالمنا الصاخب بآلاته، والفيّاض بثرثراته النافلة، هو الصمت.

– **غيتّون:** الصمت والعزلة. ولا جديدَ في ذلك. وقد كان «پاتريس دي لا توردوپان»، (Patrice de La Tour du Pin) ذلك الشاعر الملهم الذي كان رفيق أسري في ألمانيا، يقول إِنّ أكثر ما كان يؤلمه هو الافتقار إلى الوحدة والصمت. وكنتُ أشاركه هذا الشعور، وكم كنت أتمنّى أن تكون لي حجرةٌ ضيّقةٌ كحجرة ناسكٍ! وأَذكر أنّني، في أثناء مرضي، وحين كان الرفاق يُستدعون إلى الخارج، كان يغمرني شعورٌ مدهشٌ بالانعتاق. كنت أنعم بعشر دقائق صمتٍ. كان عصفورٌ يغرّد، وكنت أسمع تغريده!

– **أَنتييه:** أنا يخيّل لي سماع نشيد «سانت إكسوپيري» (Saint - Exupéry)[1]: «إنّ الصمت هو الفضاء الذي يمكن للروح أن يبسط فيه جناحيه».

(١) أنطوان دي سانت إكسوپيري (١٩٠٠– ١٩٤٤): كاتبٌ وطيّارٌ فرنسيٌّ. أشاد، في مؤلّفاته، بالأمانة، والشرف، والشجاعة، وأواصر التضامن بين البشر. من آثاره: «أرض البشر»، و«الأمير الصغير»، و«الطيران الليليّ».

البساطة

– **مرادفاتٌ:** طيبة القلب، سذاجةٌ، براءةٌ، روح طفولةٍ، تقشّفٌ، تجرّدٌ، اقتصادٌ، تواضعٌ، سكونٌ.

– **أضدادٌ:** بذخٌ، تعقيدٌ، تظاهرٌ، غرورٌ، ادّعاءٌ.

– **أقوالٌ مأثورةٌ:** «ما من رهافةٍ أفضل، وأجدر بالالتماس من البساطة». (القدّيس فرنسيس الساليزيّ)

«لغة البساطة بسيطة». (سينيكا)

«كن بسيطًا بفنٍّ». (بوالو)

البساطة هي قمّة الفنّ، وجهده الأقصى». (دي ساسي)

– **تعريفٌ:** البساطة هي صفة ما هو مجرّدٌ، سهلٌ، يسيرٌ، طبيعيٌّ، خالٍ من التعقيد، والتظاهر، والتمويه، والخبث، والنوايا الخفيّة أو المعوجّة. وهي فضيلة من يعزف عن البذخ، والخُيلاء. والبساطة القصوى هي سذاجةٌ. وفي نفسٍ متميّزةٍ، البساطة الطبيعيّة هي دليل سموّ المشاعر.

حوارٌ:

– **أنتيبه:** كيف يمكن تحديد البساطة؟ أو ليست تلك المحاولة وهمًا؟ وعلى حدّ قول «پول ريڤيردي» (Paul Reverdy): «أن يكون المرء بسيطًا ليس بالأمر البسيط»، و يقول «رولان دورجيليس» (Roland Dorgeles) عن الكتّاب: «إنّ أصعب ما يواجهونه هو الكتابة ببساطة». أمّا «پول ڤاليري» (Paul Valéry)، فقد لاحظ متشائمًا: «ما هو بسيطٌ هو دائمًا خاطئٌ، وما ليس بسيطًا يتعذّر استخدامه».

– **غيتّون:** كان لدى «غوتيه» حدْس بساطةٍ أساسيّةٍ، ولكنّه كان يستنتج: «وفي الآن عينه، كلّ شيءٍ متشابكٌ».

– **أَنتييه:** هذا هو القول الفصل. فجسدنا وروحنا على قسطٍ مريعٍ من التعقيد. وفكرنا، سواءٌ كان ناجمًا عن مليارات النيرونات، أو متأثّرًا بها فقط، هو ثمرة أحاسيس، ومشاعر، وأهواء، وإلهامات حدْسٍ، وذكرياتٍ، تتصادم، تصادم حشود مدينةٍ كبرى في ساعة ازدحامٍ. وبما أنّ الكائن البشريّ هو ثمرة تطوّراتٍ امتدّت ملايين السنين، فهو يزداد تعقيدًا باطّراد. وهل كان إنسان «نياندرتال» بسيطًا؟

– **غيتّون:** ليس ما يؤكّد ذلك! اليوم «التقدّم» يحتدم، وكما ذكرتَ، كلّ شيءٍ يزداد تعقيدًا. والبساطة، تحديدًا، هي نقيض كلّ تعقيدٍ يولّده لدينا الإسراف في الوفرة. إنّ كَلَفي بالبساطة يجعلني أخشى الإفراط في الوفرة الذي يطبع زمننا، زمن ازدهار «السوبر ماركت». إنّني لا أقدّر الغنى إلاّ إذا أُعطيتُه بتقتيرٍ. ولست أستسيغ التمتّع بما هو مفرطٌ. هذا في ما يتعلّق بالعيش المادّيّ.

– **أَنتييه:** وماذا عن حياة الفكر؟

– **غيتّون:** لقد أجبرتني مهنتي، بصفتي فيلسوفًا مدرّسًا، على تبسيط كلّ ما هو معقّدٌ في الفكر البشريّ. إنّ الحقيقة، في جوهرها، بسيطةٌ. وكلّ ما يتعيّن هو التوافق معها، والالتزام بها.

– **أَنتييه:** وماذا عن الحياة الروحيّة؟

– **غيتّون:** الأمر سيّان. إنّني أُحبّ الروحانيّات التي تنزع إلى الاقتصار على الزهيد. إنّ ازدحام الكنائس بالتماثيل يضايقني ويثيرني، فهو سدٌّ في وجه الصلاة. البساطة هي ما يفتنني في الكنائس السيسترسيّة. فهي، سواءٌ كانت من حجرٍ أو من خشبٍ، كلّ شيءٍ فيها مجرّدٌ. حتّى زجاج نوافذها فهو أبيض أو رماديٌّ. حتّى أدوات

الطقوس وألبستها، «فلا ذهبَ ولا فضّة، ولا زركشة فيها»، وفقًا لطلب القدّيس برنار. أنا أحبّ الصحراء.

– **أنتيه:** صحراء الأب شارل دي فوكو، الذي تعذّرت عليه الصلاة في روما، فنشد في صحراء الجزائر تجرّد السلطات، وروعة الفلاة.

– **غيتّون:** بل «روعة ما هو بسيطٌ!» على حدّ قول «هيديغر» (Heidegger). ولكن ما أصعب تحديد هذه البساطة! السؤال الحقّ هو: ألا تجعل الحياة الحديثة، ومجتمع المشاهد والاستهلاك، كلّ تقشّفٍ، وتجرّدٍ، وتواضعٍ، أمرًا عسيرًا؟ يمكن القول مع «برغسون» إنّ حلّ الكثير من المعضلات الراهنة يكمن في العودة إلى البساطة: شرب الماء عوضًا عن التسمّم بالكحول؛ قضاء العطلة في الريف عوضًا عن الشخوص إلى أطراف الدنيا؛ مطالعة كتابٍ جيّدٍ، عوضًا عن ارتياد الملاهي، وأماكن اللهو المصطنع. في الواقع البساطة الحقّة هي بساطة الفكر، هي عقد حوارٍ دائمٍ، لا تنازلات فيه، مع الذات. وإنّني أجد نموذج البساطة الأمثل في القدّيسة تيريز الطفل يسوع. أجد فيها نمطَيْن من البساطة، ونمطَيْن من الطفولة. بساطة الفقر، وطفولة الانطلاق في الحياة، وما هي سوى صورةٍ للهدف المنشود؛ وبساطة الاكتمال، وهي طفولة يستحيل بلوغها، وضربٌ من صبوّ الكائن الناضج صوب نبعه. هذه البساطة السحيقة هي التي تضع هذه القدّيسة في منزلة الثوريّين الذين استنبطوا من كنز الإنجيل الأبديّ دروبًا، بل حقائق حياةٍ جديدةً.

– **أنتيه:** لا حياتها فقط، بل، أيضًا، كتاباتها وأقوالها تعلن «بساطة الإكمال» هذه، المتّصلة بروح الطفولة.

– **غيتّون:** لقد قالت لأختها «سيلين» عن الموت: «ولكأنّ المرء قطرة ندًى، تشرُقها الشمس».

– **أَنتييه:** نموذجٌ آخر للبساطة الروحيّة هو صديقك، البابا يوحنّا الثالث والعشرون.

– **غيتّون:** كأنّني ما زلت أسمعه: «أسلوبي هو البساطة والطيبة». قاعدة حياته كانت أن يكون، دائمًا، خاضعًا، من غير أن تخامره رغبةٌ في الإدهاش، والتميّز، وخاصّةً التميّز بالقداسة. كان يدّعي أنّه لا يعرف شيئًا، ولا رغبة لديه في النقاش.. بل كلّ ما يرجوه هو أن يكون مثل الجميع، وأن يحافظ على بساطة النور، أي على الحكم السديد المصطبغ بطابعٍ فائق الطبيعة. العمل كان يعني له التقدّم، خطوةً فخطوةً. بشأن المجمع، الفكرة البسيطة التي راودته هي ضرورة تحديث الكنيسة، والتخلّي عمّا ليس جوهريًّا، من أجل تطهيرها. فكرة الإصلاح تلك بغية توحيد المسيحيّين في وحدة الكنيسة وبساطة الرسالة الإنجيليّة، كانت شرارة العبقريّة لدى إنسانٍ بسيطٍ وطيّبٍ، صوفيٍّ أكثر ممّا هو سياسيٌّ. ولا يسعني إلاّ أن أرى فكرة «برغسون» التالية منطبقةً عليه: «إنّ نفس الصوفيّ، بفضل ازدهارٍ هادئٍ لكلّ ملكاتها، تتميّز برؤيةٍ واسعةٍ، وأيًّا كان وهنها، تنجز بقوّةٍ. وهي، على نحوٍ خاصٍّ، ترى كلّ شيءٍ بسيطًا، وهذه البساطة التي تدهش، في أقوال الصوفيّ أو في سلوكه، تقوده عبر التعقيدات، فيبدو وكأنّه لا يلحظها».

– **أَنتييه:** مع أنّ قيادة الكنيسة ليست بالأمر السهل.

– **غيتّون:** كان يكفي ذلك البابا التزوّد بمبادئ بسيطةٍ، وأن ينام نومًا جيّدًا، وأن يستسلم للّه استسلام طفلٍ، وأن يكون متواضعًا، متحرّرًا من كلّ مطمعٍ. أحيانًا، كانت توقظه، ليلاً، خاطرةٌ طارئةٌ فيقول: «يجب أنّ أحدّث البابا بذلك». ثمّ لا يلبث أن يتذكّر: «ولكن، ألست أنا البابا؟».

– **أَنتييه:** أَوَليس روح البساطة، أيضًا، دواءً ناجعًا لمعالجة الألم ومصائب البشر؟

– **غيتّون:** بلى. ويجوز الاعتقاد بأنّ المصيبة قد تحلّ علينا كي تدعونا إلى البساطة. فهي وحدها توفّر الخبرة، وخبرة الحقيقة.

– **أَنتييه:** جوهريًّا، البساطة هي التسليم. وكان «لاوتسي» (Tseu-Lao[1]) يقول: «الامتناع عن فعل أيّ شيءٍ، يحلّ كلّ مشكلٍ».

– **غيتّون:** في الواقع، كم من أوضاعٍ معقّدةٍ انحلّت تلقائيًّا، بفضل الاهتراء والاستنزاف، أو بفضل ظروفٍ مستجدّةٍ. بعض الأمور التي تبدو، اليوم، مستحيلةً، ستصبح، غدًا ممكنةً، من جرّاء الحاجة إليها. وما يدهشنا اليوم، سيصبح هو القاعدة غدًا. حسبُنا أن نستمرّ، وندع الأمور تمرّ وتنضج، وأن ننتظر ملء الزمان، متذكّرين قول سفر الجامعة: «حمارٌ يعيش خيرٌ من أسدٍ ميّتٍ». هذه هي البساطة.

– **أَنتييه:** فلنعد إلى روح الطفولة. هل هو مفتاح البساطة؟ وتخطر بفكري أقوال يسوع المقلقة: «دعوا الأطفال يأتون إليّ، فملكوت السماوات لهم، وإن لم تصبحوا مثلهم لن تدخلوه». فما معنى أن يصبح المرء طفلاً؟

– **غيتّون:** الصبوّ إلى براءةٍ مستعادةٍ، وإلى البساطة، وإلى طهرٍ أعيد اكتسابه بالتغلّب على أدناس الكهولة. في الواقع، سرعان ما يفقد الشباب بساطة الطفولة. إنّ المصير يتحدّد في الخامسة عشرة. نحن نولد شيوخًا، وعلينا، أن نجهد كي نموت شبابًا.

– **أَنتييه:** ومن استطاع أن يحقّق ذلك؟ من توفّق إلى استعادة الطفولة؟

(١) فيلسوفٌ صينيٌّ من القرن الخامس أو السادس قبل المسيح. يُعتَبر مؤسّس مذهب الطاويّة.

– **غيتّون:** بيكاسّو الذي قال: «عندما كنت في الخامسة عشرة كنت أرسم مثل رفائيل. وها إنّني، في الثمانين، أريد أن أرسم مثل فتًى صغيرٍ». فعلى غرار الطفل، ينبغي أن تعِد اللوحة بأكثر ممّا تعطي؟ ومن جهته، كان «لا كوردير» يؤكّد أنّه لم يعهد الشيخوخة، ويقول: «أنا لم أبلغ سنّ الشيخوخة، بل عبرت بعدّة مراحل شبابٍ متعاقبةٍ». وإنّي لأحبّ هذا القول!

– **أَنتييه:** هل الصبا هو سنّ السعادة، كما يقال عمومًا؟ أنا لم ينتبني هذا الانطباع، من جرّاء أساليب التعليم الموغلة في الصرامة.

– **غيتّون:** الفتى لا يتمتّع بصباه. وعندما يصوّر الكهل صباه بألوانٍ مثاليّةٍ لا يعبّر عن الحقيقة. فما الصبا سوى حلم إنسانٍ كهلٍ.

– **أَنتييه:** وهل بوسع الطفل أن يعلّمنا، على الأقلّ، شيئًا؟

– **غيتّون:** قال لي «هيدغر» (Heidegger)، يومًا: «إن ابتغيت التقدّم في ميدان الفلسفة، وفي ميدان الدين، دع فتًى صغيرًا يطرح عليك أسئلةً. لن تستطيع، دائمًا إجابته، ولكنّه يجعلك تقترب من الحقيقة. فالحقّ هو، دائمًا، متّشحٌ بحجابٍ، والفتى هو من يزيح هذا الحجاب».

– **أَنتييه:** في الواقع، يطرح الفتى أسئلةً مستحيلةً، أسئلةً بسيطةً، ولكنّها من العمق بحيث يحجم البالغون عن طرحها، إذ لا قِبَل لأحدٍ على الإجابة عليها.

– **غيتّون:** ولكنّ الأسئلة تبقى. وأخطر سؤالين هما: كيف؟ ولماذا؟

– **أَنتييه:** وهذا سؤال بالغٌ: ما السبيل إلى الحفاظ على روح الطفولة؟

– **غيتّون:** الاحتفاظ بالدهشة إزاء جمالات الخليقة: شروق شمسٍ وتغريد عصفورٍ، وحبٌّ واثقٌ. الطفل يشهد ذلك للمرّة الأولى،

فيدهش، ويسعد، ويكتشف. إنّه بسيطٌ، ويشاهد بدء العالم. ولا بدّ من التنويه، أيضًا، بأنّ الطفل يعرف الفرار عبر الحلم. وما أسعد هذا اللهو!

– **أَنتييه:** في صغري، كنت أحلم وأنا في قاعة الدرس، فاغرًا فمي. وكان المعلّم يؤنّبني: «أطبق فمك يا جان جاك، لئلاّ يطير فكرك!». وكان الصفّ بأكمله يُغرق في الضحك. وكنت، أنا، آخذ هذا التهديد مأخذ الجدّ، وأتألّم: «ماذا لو طار فكري!».

– **غيتّون:** من يحسن تنمية الحلم، قد تسبغ عليه هذه التسلية سعادةً، وقد تزوّده بالعبقريّة. نحن نلقّن الفتى الجهد، وهو يعلّمنا فعل التسليم، الذي يُدعى نعمةً. نحن نكشف له عن تعقيدات الحضارة والعلاقات البشريّة، وهو يذكّرنا ببساطة البدايات. نحن نعطيه القاعدة والنظام، وهو يهبنا عبث التخيّل والبراءة. نحن نفرض عليه الصرامة، وهو يعلّمنا البهجة والفرح.

– **أَنتييه:** ولكن لمَ البساطة على قدرٍ كبيرٍ من الصعوبة؟

– **غيتّون:** لأنّ الكائن البشريّ ليس بسيطًا، فكلٌّ منّا يخفي، داخله، نقيضه. القدّيس يخفي خاطئًا مسكينًا؛ والمؤمن يخفي مرتابًا؛ والملحد يصبو إلى حقيقةٍ فائقة الطبيعة.

– **أَنتييه:** إذن، من هو البسيط؟

– **غيتّون:** الله بسيطٌ في كلّيّته وفي كماله. ولذلك نحن نصبو إليه من خلال تعقيد جبلّتنا المفتقرة إلى الكمال.

– **أَنتييه:** هذا التعقيد في روحنا البشريّ، والعلاقة الملتبسة بين الجسد والروح يفسّران، أيضًا، انشقاقاتنا وخلافاتنا.

– **غيتّون:** أجل، من جهتي، قد أحببتُ، دائمًا، خصومي – وأَقصد من يخاصمونني بنيّةٍ حسنةٍ – فالخصم قد يكشف لنا الحيّز

الأفضل من ذواتنا، إذ إنّه نصفها المنشقّ. ولذلك، حسب قول «لاكوردير»، لستُ أسعى إلى إقناع خصمي بخطئه، بل أسعى إلى الاتّحاد به في حقيقةٍ عليا. هذه هي البساطة المستعادة.

– **أَنتييه:** من أين تستمدّ شَغَفَك بالبساطة؟

– **غيتّون:** ربّما من ترجمتي الأُولى لنصٍّ لاتينيٍّ، يروي قصّة هرٍّ يونانيٍّ يدعى «بياس»، كان قد طُرد من جزيرته. وعند رصيف الركوب سُئِل: «أهكذا تسافر بلا أمتعةٍ؟» فأجاب بزهوٍ: «إنّني أحمل معي كلّ مالي». وقد رسخ هذا القول في ذهني. علينا ألاّ نعيق حياتنا بكثرة الحطام، من أمتعةٍ، وأثاثٍ، ودمًى، وأشياء للذكرى، ومحفوظات وثائق... إنّ ثروتي كلّها ثاويةٌ في رأسي وفي قلبي.

– **أَنتييه:** هل تشعر، وقد بلغت السابعة والتسعين، أنّك عدتَ طفلاً؟

– **غيتّون:** أجل. فتربيتي الأولى كانت قد سجنتني في ميدان التعليم. ولم يكن ذلك هو دربي. وقد أتاحت لي الشيخوخة حرّيّة أن أكون، أخيرًا، أنا نفسي. وها أنا ماضٍ صوب الطفولة، نحو الولادة! وهذا يعود بي إلى فكرة الطفولة، صورة السعادة الصافية، وإلى تصوُّرٍ مسبّقٍ لحالة المجد التي تجعلنا، من جديدٍ، نظراء الملائكة. إنّ طقوس الطفولة هي طقوس التأهّب للموت. أجل، بدنوّي من ذكرى ميلادي المئة، أمضي نحو ولادتي!

الاعتدال

مرادفاتٌ: رزانةٌ، قناعةٌ، زهدٌ، تحفّظٌ، ضبط الذات.

أضدادٌ: إفراطٌ، جشعٌ، فسقٌ، تراخٍ، بذخٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «الاعتدال هو النكهة التي تمكّن من تذوّق اللذّة بكلّ حلاوتها المرهفة». (مونتينيي)

«الاعتدال هو أساس كلّ فضيلة». (سينيكا)

«لكلّ شيءٍ مقياسٌ». (هوراسيوس Horace)

تعريفٌ: الاعتدال هو الجهد في مقاومة إغراء الأهواء والملذّات، ولا سيّما الحسّيّة منها، إذا ما استفحلت وتردّت إلى الإفراط. وبذلك يعمّ التوازن في استخدام الخيرات، وتُضمَن سيطرة الإرادة على الغرائز، وتُبقى الرغبات في حدود الاستقامة. يتدخّل الاعتدال من أجل الحدّ من إفراط الميول الجسديّة، المتعلّقة بالطعام، والكحول، والتدخين، والممارسات الجنسيّة. الاعتدال هو فنّ لجم الشهوات. إنّه يتعلّق، أيضًا، بالمال، والأمجاد. وهو يسهّل المشاركة.

إنّه من الفضائل الرئيسة، وشرطٌ لا غنى عنه لصحّة الجسم والخُلُق، وهو، في المقام الأوّل، قناعةٌ، إنّه فنّ استخدام خيرات العالم، بمنأًى عن الإضرار بالذات وبالآخرين. إنّه تنظيمٌ طوعيٌّ للميول الفطريّة، وكما قال سپينوزا «تأكيدٌ صحّيٌّ لقدرتنا على الوجود». وهو، في نظر «ألان» (Alain) «الفضيلة التي تتغلّب على كلّ أصناف النشوة».

فالإنسان المتحرّر، جزئيًّا، من أغلال الغريزة، ليس تلقائيًّا، عاقلاً، بل إنّه ينقاد للرغبة، والحلم، والشهوة. إنّ الخاضع لنزواته يجد متعته حيث ينبغي ألاّ يجدها، ويتردّى إلى الإفراط، متخطّيًا حدود الاعتدال. ويقول أَرسطو عن الإفراط في الشهوات إنّه «حزنٌ غير متوازنٍ يلمّ بإنسانٍ حُرِم ممّا يوفّر له المتعة، مع أنّه من غير المعقول أن يحتمل المرء

عنتًا من أجل ملذّةٍ».

ويضيف أَرسطو: «إنّ الإنسان القنوع يحرص على الاتّزان، ولا يلتمس الملذّات المحرّمة، ولا يرغب إلاّ باعتدالٍ، بلا إفراطٍ، ولا شذوذٍ ولا انحرافٍ، ولا يسعى إلاّ إلى المسرّات العذبة والكفيلة بالحفاظ على الصحّة. إنّه يسلك بهدى العقل، وبغيةَ الخير».

إنّه، جوهريًّا، سيّد ذاته، ومُحكمٌ قبضته على رغباته. وينوّه أرسطو بأنّ فضيلة القناعة تتكوّن منذ الطفولة. «فالأطفال يحيون في حالة رغبةٍ دائمةٍ، وشهوةُ اللذّة متناميّةٌ لديهم». وإنْ لم يُخضَع الطفل باكرًا لقواعد السيطرة على الذات الصارمة، لن يعرف سعيه إلى اللذّة الارتواء، بحيث عندما يبلغ سنّ الرشد، يصبح عقله عاجزًا عن لجم أهوائه، فيستسلم بلا قيودٍ.

حوارٌ

– **أَنتييه:** تحدّثنا عن البساطة والتجرّد. وها نحن نتطرّق إلى الاعتدال. فما هو موضوعه؟

– **غيتّون:** التجرّد والبساطة فضيلتان خاصّتان بنخبةٍ معيّنةٍ. أمّا الاعتدال فهو فضيلة الجميع، ولذلك يُصنّف في قائمة الفضائل الكبرى. إنّه، أوّلاً، منهج صحّةٍ. وينبغي أنّ يُصبح حكمةً كي يصبّ في المشاركة، وهي ثمرة الحبّ.

– **أَنتييه:** إذن، اعتدال الفقير ليس اعتدال الغنيّ، وقناعة العالم الثالث تختلف عن قناعة العالم الغربيّ.

– **غيتّون:** هذا مؤكّد، إذ لا يسع المرء التجرّد عمّا لا يمتلك. ولكنّ هناك اعتدال الفقراء حيال الممارسات الجنسيّة، مثلاً، أو حيال المشروبات الكحوليّة، والتبغ، وسائر المخدّرات. وما يتعذّر الحصول عليه بالمال، يحاول المرء نيله بالأحلام، ولكنّ الأحلام فردوسٌ مصطنعٌ ومدمّرٌ.

– **أَنتييه:** إنّه من العسير، وقد يكون من غير اللائق، دعوة الفقراء إلى الاعتدال.

– **غيتّون:** إنّ وفرة الغرب الفائضة تحاذي، على نحوٍ معيبٍ، إملاقَ العالم الثالث، بل عالم من نسيهم الازدهار، عند أبوابنا، في بعض ضواحي مدننا. ولذلك، لا مناص من المشاركة، التي تقتضي قناعة الأغنياء، كي يستمرّ العالم في الحياة، ويبقى أمينًا للقِيَم التي ورثها من حكماء الإغريق، ومن المسيحيّة، ومن مبادئ الجمهوريّة.

– **أَنتييه:** فكرة المشاركة هذه، المرتبطة بالقناعة والاعتدال، قد فهمتها الكنائس. فكلّ حرمانٍ يفرضه الإنسان على نفسه، باسم الصحّة أو التضحية، ينبغي أن يؤتي الفقراء فائدةً. ولكن ما أبعد هذه الفكرة عن التطبيق العمليّ! فالغنيّ الذي لا يراود ضميره أيُّ قلقٍ لأنّ ثروته هي ثمرة جهده أو هي نتيجة إرثٍ، حريصٌ على أن يظلّ غنيًّا، وأن ينعم بثروته، بإفراطٍ أحيانًا.

– **غيتّون:** ولذلك لسنا نزعم أنّنا، من خلال هذا الكتاب، سنحمل البشر على ممارسة مشاركةٍ قصوى، كتلك التي دعا إليها الإنجيل، فهذه المشاركة نهجٌ ومثال حياةٍ التزم به البعض كالرهبان والراهبات الذين دعوا إلى نهج الحياة هذا. أمّا عامّة البشر فعليهم الانتقال إلى بُعدٍ آخر، على المستوى السياسيّ والإنسانيّ. وإنّنا نرشد، هنا، إلى دروب السعادة الحقّة الدائمة.

ما الذي ينشده المرء؟ المتعة، وقدرًا أقلّ من الضرائب. أمّا التضحيات فيودّ اختيار ما يروقه منها. ولا مخرج من هذا المأزق سوى بتبنّي قِيَمٍ أُخرى غير قِيَم الاستهلاك، وإيثار الكينونة على الامتلاك. ولن يُحجم الإنسان العاقل عن القناعة والمشاركة إن هو تعلّم أن يكون أقلّ غنًى، ولكن أوفر سعادةً، على نحوٍ مختلفٍ.

– **أنتييه:** هذا ما قاله «كونت سپونڤيل» في «موجزه» الممتاز: «ليس المقصود التضحية بالمتعة أو الاكتفاء بأدنى قسطٍ منها؛ إذ لن يكون ذلك فضيلةً بل حزنًا؛ لن يكون اعتدالاً بل زهدًا، ولن يكون قناعةً، بل عجزًا. ليس المطلوب قدرًا أدنى من المتعة، بل نمطٌ أفضل من المتعة. وفي ذلك ضمانٌ لمتعةٍ أوفر طهرًا، وأكثر امتلاءً. إنّه تذوّقٌ متبصّرٌ، مُحكمٌ، مثقّفٌ».

– **غيتّون:** ليست المتعة، إذن، محظورةً، على أن يظلّ المرء سيّدها، وألاّ يصبح لها عبدًا كما هي حال المتخمين، والفاسقين، والمخدَّرين. اللذّة تتعاظم بقدر ما تكون طاهرةً وحرَّةً، ولا تفرضها رغبةٌ جامحةٌ. وفي المقام الأوّل ينبغي ألاّ يكون المرء محكومًا لا بالفقر والحرمان، ولا بالإفراط، والبذخ، والفسق.

– **أنتييه:** كيف يمكن العيش برضًى مع الاكتفاء بالقليل؟ مع أنّ في ذلك يكمن سرّ الاستقلال، والحرّيّة، في نظامٍ يناقض نموذجَ مجتمع الاستهلاك، حيث دعاوةٌ مفرطةٌ تخلق حاجاتٍ مصطنعةً، وتشحذ رغباتٍ لا سبيل، دائمًا، إلى إرضائها.

– **غيتّون:** الاعتدال فضيلةٌ مرتبطةٌ بفنّ المتعة. فالإنسان ليس، كالحيوان، خاضعًا لسنن غرائزه التي تحدّ من إفراطه. إنّ الإنسان، من جرّاء حرّيّته، يخضع لغواية المضيّ إلى أقصى غايات رغباته. وبما أنّ الإنسان يفكّر، فهو، غالبًا، أسير خياله. إنّ اللذّة المعتدلة، بمنحها الفرح، تحرّر من الرغبة. مثال ذلك لذّة الذوّاق التي تناقض ثقل تخمة النَهِم الممتلئ؛ والحبّ المهذّب الذي كان سائدًا في قصور القرون الوسطى، في مقابل مشاهد الخلاعة التي تنشرها مراكز تجارة الجنس الحديثة. للسيطرة على الرغبة، لا بدّ من السيطرة على المتعة. تلك هي قاعدة الأكل الجيّد الذهبيّة: الاقتصار على القليل المستساغ، والتوقّف عن الطعام قبل تلاشي الجوع. ينبغي أن يحيا المرء «وقلبه

التسامح

مرادفاتٌ: حِلْمٌ، رحمةٌ، تفهُّمٌ، احترامٌ، مشاركةٌ، إخاءٌ، محبّةٌ، طيبةٌ، عطفٌ، مسكونيّةٌ، تغاضٍ.

أضدادٌ: تزمّتٌ، تعصّبٌ، تشدّدٌ، طائفيّةٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «التسامح هو محبّة العقل». (جول لومتر Jules Lemaitre)

«التسامح يقتضي مجرّد القبول بأن يكون، هناك، من لا يفكّرون مثل تفكيرك، وعدم بغضهم من جرّاء ذلك». (سباك P.H.Spaak)

«التسامح هو ذاك النمط من الحكمة الذي يتغلّب على التعصّب، أي على حبّ الحقيقة المريع». (ألان Alain)

«التسامح هو تقشّفٌ في ممارسة السلطة». (پول ريكور Paul Ricœur)

تعريفٌ: التسامح هو احترام اختلافات الآخر، وبالتالي، حرّيّته. ولا بدّ من تمييز ثلاثة أنماطٍ من التسامح:

١– حيال أمور الحياة، ضمن جماعةٍ واحدةٍ: احتمال عيوب الآخرين الطفيفة، وطباعهم، وأسلوبهم في صنع الأشياء على نحوٍ مختلفٍ.

٢– حيال الغرباء: التحاشي عن تضخيم ما قد يمثّلونه من تهديدٍ، مثل الغزو العدوانيّ، أو الهجرة، شرعيّةً كانت أم خفيّةً.

٣– حيال القناعات: ضمن الأمّة الواحدة: تقبّل الاختلافات الثقافيّة، والسلوكيّة، والسياسيّة، والدينيّة.

ويبقى أنّ التسامح ليس سوى الحدّ الأدنى، وليس هو المثال الأسمى، إذ إنّه ليس حبًّا. إنّه سلوكٌ يحتلّ منزلةً وُسطى بين العدل والحبّ، ويقتضي احترام ما لا نحبّ. إنّه نصْف فضيلةٍ مبهمةٍ، تطالب بالامتناع عن ممارسة العنف حيال القريب، وبتقبّله تقبّلاً متحفّظًا، وربّما بتجاهله. التسامح لا ينطوي على نيّةٍ مُحبّةٍ. في الواقع، يتقبّل المرء

ما لا يفهمه، لا بل ما يشجبه. إنّه وضعٌ متأرجحٌ بين الحرب والسلم، بين البغض والحبّ. وما أبعده عن وصيّة يسوع: «أحبّوا أعداءكم»!

في السياسة، التسامح «مساكنةٌ خاليةٌ من المودّة، والقلب عنها غائبٌ»، على حدّ قول «جانكيليڤتش». فالليبراليّ يحتمل نصير الدولة، وكلٌّ يأمل أن يعتنق الآخر نظرته. وفي الشرق الأوسط، الإخوة المنشقّون، عربًا ويهودًا، يحاولون تقبّل بعضهم بعضًا، ولا سبيل لهم سوى هذا التقبّل، أو الموت.

التسامح، إذن، في المقام الأوّل «موقف تساهلٍ يحول دون البغض الذي قد يفضي إلى النزاع، وأحيانًا إلى الحرب. وهو يقتضي جهد تفهّمٍ مُكلِفًا. إنّه خطوةٌ أولى، وخيرٌ أدنى.

حوارٌ

– **أَنتييه:** فلنبدأ بالتسامح الفرديّ، في الحياة.

– **غيتّون:** قد نحتمل أو لا نحتمل ضجيج الأولاد، وصخب تجمّعات الشبّان، وراكبي الدرّاجات الناريّة، الليليّة، وأكاذيب القرين الصغيرة الهادفة إلى حماية حرِّيّته، والمواقف المزعجة، مثل مواقف سائقي السيّارات المأفونين، وشتّى مخالفات السير، ورنين الهاتف في أوقاتٍ غير مناسبةٍ، وثرثرة الثرثارين، ودخان المدخّنين، وروايات الصيّادين، والدعاوات المضجرة، وبالإجمال كلّ صدمات المجتمع الصغيرة، التي يتساكن معها الكائن المتّزن الإيثاريّ، ولاسيّما عندما يبدي «الآخر» شيئًا من حسن النيّة، ومن الجهد للحدّ من الإزعاج.

– **أَنتييه:** وفي الحياة اليوميّة، يحسن تبنّي هذه القاعدة البسيطة: التسامح الأقصى حيال الآخرين، وعدم التسامح حيال الذات. وعندما يتعيّن القمع – إذ لا مناص من تطبيق القواعد، وتربية الأبناء – فلا بدّ من فعل ذلك باعتدالٍ، ورقّةٍ، ومحبّةٍ.

– **غيتّون:** لقد قال ڤولتير: «إنّنا، جميعنا، مجبولون بالوهن

والأَخطاء. فلنتبادل الصفح عن حماقاتنا. تلك هي سُنّة الحياة الأولى».

– **أَنتييه:** فلنتحدّث الآن عن التسامح حيال الغرباء. إنّ المصاعب الاقتصاديّة والضغوط الديموغرافيّة والسياسيّة في البلدان المتخلّفة، والتي تمثّل تهديدًا جدّيًّا، تُسفر عن ظاهرة الهجرة. وعندما تتفاقم هذه الهجرة، فإنّ فئةً تتعاظم يومًا فيومًا، في بلدان الاستقبال، لم تعد تحتمل الغرباء الوافدين، أو لم تعد تتقبّلهم، ويسود تشدّدٌ بلا تمييزٍ.

– **غيتّون:** تشدّدٌ أساسه الأنانيّة. وعلى حدّ قول «غينيول (Guignol)»: «أنا ما أنا. وإنّما الآخرون هم المختلفون».

– **أَنتييه:** هل أساس هذا التشدّد هو أنانيّةٌ مدانةٌ، أم دفاعٌ عن النفس مشروعٌ؟ ذلك هو النقاش المحتدم في المجتمع الفرنسيّ، وفي الخارج، بل حتّى في دولٍ فقيرةٍ.

– **غيتّون:** علامَ السائح الفرنسيّ يتنسَّم بنهمٍ الروائح القويّة المنبعثة من هذه «المدينة» أو تلك، عندما يزور تونس أو الدار البيضاء، ولا يعود يطيقها عندما تغشى أدراج مسكنه في باريس أو نيس؟ ذلك من جرّاء شعوره بأنّه مهدّدٌ في عقر داره. وسبب ذلك أنّ مؤشّر الولادات لدى الأمّهات الفرنسيّات من أصل غربيٍّ هو **١,٥٢** (وهو في مجمل أوروبّا **١,٤٣**). ولكي يضمن أيّ جنسٍ بقاءه، بلا مزيجٍ، ينبغي ألاّ يتدنّى هذا المؤشّر عن **٢,٠٨**، وإلاّ أخلى المكان، شيئًا فشيئًا، لإثنيةٍ أُخرى. في إطار هذا السياق الحارق، وهذا الواقع الديمغرافيّ، ينبغي تحديد النقاش حول التسامح الإثنيّ.

– **أَنتييه:** يبدو لي أنّ كلّ تشدّدٍ ينطلق، أصلاً، من مبرّرٍ مشروعٍ، ومن شعورٍ بأنّ المرء مهدّدٌ في قناعاته، وأسلوب عيشه، وفي ممتلكاته. وسرعان ما يفضي الأمر إلى طريقٍ مسدودٍ. وعوضًا عن محاولة فهم

الآخر، يؤثر القوم التحصّن ضمن امتيازاتهم، ومكتسباتهم، وأنانيّتهم. وحينئذٍ يمكن توقّع الأسوأ. ولن يعود ممكنًا حلّ النزاع إلاّ بالعنف والقوّة.

– **غيتّون:** من المحقّق أنّ العالم لم يعد يطيق التباين المخزي بين البلدان الغنيّة والبلدان الفقيرة. فعلى الأغنياء الذين يمثّل نموذجهم، للفقراء، غوايةً لا تُقاوَم، أن يشاركوا بطريقةٍ ما. وخيرٌ لهم أن يفعلوا ذلك طوعًا. وخير ما يفعلونه هو أن يمدّوا يد العون للبلدان الفقيرة. وحينئذٍ لن يعرفوا «غزوًا» سوى الغزو السياحيّ.

– **أَنتييه:** لنبحث الآن في المحور الثالث، أي التسامح في ما يتعلّق بالقناعات، ضمن الفريق الواحد. فحيال تصاعد كلّ الحركات الملتزمة المسلّحة، حيث نشهد أقلّيّةً ضئيلةً تسعى إلى أن تفرض بالقوّة ما تعجز عن الحصول عليه، من خلال اللعبة الديمقراطيّة، ألا ترتدي لفظة «التسامح» معنًى مثيرًا؟

– **غيتّون:** قضيّة التسامح تصبح حاسمةً، عندما يتعلّق الأمر بالقناعات، وبالحقّ. فمن يؤمن بصواب قضيّته، هل يرضى بأن يُكتَم صوتها، وأن يُحظر عليها حقّ الانتشار؟

– **أَنتييه:** صحيحٌ. ولكن لا بدّ من التمييز بين ما يعدّه المرء حقيقته، والحقيقة المطلقة. فكلٌّ يظنّ تفرّده في امتلاك الحقّ. ومن ثمّ فهو يتعرّض لغواية فرضه بالقانون، إن هو كان في السلطة، أو بالعنف، إن هو كان خارجها.

– **غيتّون:** غالبًا ما تنبع فكرة الحقيقة من الأنانيّة.... ثمّة قناعاتٌ موروثةٌ راسخةٌ تتعذّر زحزحتها....

غير أنّ الأشدّ تعقيدًا هو التزمّت الإيديولوجيّ، إذ لا يعود الأمر يتعلّق بالدفاع عن تفوّقٍ زوجيٍّ، أو وظيفةٍ، أو رقعة أرضٍ، أو بمُثُلٍ،

أو فلسفةٍ خاصّةٍ، أو دينٍ خاصٍّ، وبالإجمال عن الفكرة التي يكوّنها المرء عن الحقيقة، والتي تختلف بين تخومٍ وتخومٍ، بل داخل الدولة الواحدة، بل الأُسرة الواحدة. أمّا هنا فالأمر مأسويٌّ: فكلّ امرئٍ يحملٍ حقيقته، وهي ليست حقيقة الآخرين. وليست هذه ظاهرة جديدةً. ففي القرن الثامن عشر لم يتورّع ملكٌ كان يوصف بالثقافة والاستنارة، هو لويس الرابع عشر، عن الحكم على بروتستنتيّين، كلّ جريمتهم أنّهم يُنشدون المزامير، ولا يعترفون بالبابا، بالأعمال الشاقّة، أو بالنفي، ما لم ينكروا مذهبهم. وعلى مقربةٍ منّا، في أوروبّا، شهدنا جنون التزمّت النازيّ، وما برحت هذه النزعة الدامية موجودةً، في بلدانٍ عديدةٍ.

– **أَنتيه:** باسم التزمّت العرقيّ أو المذهبيّ، تذابحت وتتذابح، اليوم، شعوبٌ في يوغوسلافيا، وفلسطين، والهند، والجزائر، وأفريقيا السوداء. وبالإجمال يعيث التزمّت فسادًا في أماكن شتّى، والقنابل تُزرع حتّى في إيرلندا، وبلاد البسك، وكورسيكا.

– **غيتّون:** هنا تتجلّى إيجابيّة التسامح. فهو يسعى إلى الإقناع سلميًّا، بالكلام، في حين أنّ التشدّد، سواءٌ امتلك السلطة أو لم يمتلكها، يسعى إلى التمترس، وفرض ذاته بالقوّة. غير أنّني لن أتردّى إلى الانحراف المعاكس.

– **أَنتيه:** أي إلى النفور والتراخي اللّذين أدانهما يسوع. كان «ساد»، أيضًا، يقول: «التسامح هو فضيلة الضعيف». وفي الحالات القصوى يُمكن أن يفضي التسامح الدينيّ إلى فقدان الإيمان.

– **غيتّون:** بحجّة نبذ التعصّب، قد يتعرّض المرء، في الواقع، للتردّي إلى الارتيابيّة وإلى ادّعاء أنّ لكلٍّ حقيقته، ممّا يريح الجميع! وعندما ينغلق كلٌّ في يقينه، فما تقبُّله يقين الآخرين، سوى ازدراءٍ له. إنّ الارتيابيّة هي نقيض التسامح. إنّ ما يجعل الضمائر تتعارض

هو شغفها بالحقيقة، وهي، في ذلك، محقّةٌ، فكرامة الإنسان تكمن في نشدانه الحقّ. أمّا ادّعاء الحياد، وأنّ جميع الآراء في الحقّ سواءٌ، فهو افتراض أنّ جميعها خاطئةٌ.

– **أَنتييه:** إنّ الوضع الأمثل هو في أن تضمن الدولة العلمانيّة الديمقراطيّة جميع الحرّيّات، والآراء، والأديان، التي يُعبَّر عنها سلميًّا، في احترامٍ لجميع الآخرين، وبمنأًى عن محاولة اجتذابهم إلى دينٍ غير دينهم.

– **غيتّون:** شرط التزام الدولة بحيادٍ حقيقيٍّ، وهو أمرٌ يصعب على الحزب الحاكم.

وبالإجمال، أنا لا أستسيغ لفظة التسامح الهجينة، والتي تنطوي على شيءٍ من الرياء، ولكأنّها تقول: «إنّني أسمح بما أُدين». ويبدو لي سماع صيحة «المقبول»: «أيّدني أو أدنّي، ولكن لا تحتملني!».

– **أَنتييه:** الدين المتسامح هو الذي يعزف على اجتذاب الآخرين إلى أحضانه، وعن هداية «الكافر». فهل، في هذا، عدم اكتراثٍ بالآخر؟ وما المخرج من هذا التناقض؟

– **غيتّون:** إنّني أسمع «المقبول». يقول لي: «ليس التسامح هو ما أنشده، بل الاحترام، بل أكثر من ذلك، أنشد الحبّ الذي يتقبّل الاختلاف».

– **أَنتييه:** في هذا تكمن كلّ مشكلة المسكونيّة.

– **غيتّون:** أجل. في سبيل توحيد الأرواح، ينبغي أن يُطلب من كلّ فردٍ لا إنكار ذاته، بل تعميقها، وأن يكون ذاته أكثر، وأوفر طهرًا، فيكون البروتسنتيّ أكثر بروتستنتيّةً، ويتوغّل الكاثوليكيّ إلى أعماق حبّه، ويرقى كلّ فردٍ إلى القمّة المضيئة من حيث يشهد قممًا مجاورةً كان يظنّها مناوئةً. فلنتطهّر، ولنتبنَّ ما يبدو لنا حقًّا في نظر

معارضينا، لكي نُغني رؤانا، ونُعِدّ لمرحلةٍ نستعيض فيها عن «تقبّل» الآخرين، بفهمهم وحبّهم. علينا أن نواجه كلّ شيءٍ بعطفٍ، وبفضولٍ منفتحٍ، ولكن علينا، أيضًا، إخضاع كلّ شيءٍ لنقدٍ صارمٍ. ذاك كان مبدأ القدّيس بولس. وهذا هو شعار المحبّة الفكريّ: «غربل كلّ شيءٍ، واحتفظ بالأفضل».

– **أَنتيبه:** كان غاندي، رسول التسامح، يقول إنّ الإنسان لا يرى سوى جزءٍ من الحقيقة، ومن زوايا مختلفةٍ. غير أنّ قضيّة الحقيقة المطلقة تظلّ مطروحةً. يسوع قال لبيلاطس: «أنا الحقيقة»، وبيلاطس أجاب: «وما هي الحقيقة؟».

– **غيتّون:** ولم يُجب يسوع على هذا السؤال بأقوالٍ، بل بتقدمة حياته: «الحقيقة هي حبّ الله، وحبّ القريب كالذات». علينا الانطلاق من هذه الحقيقة المطلقة، والإمعان في البحث، من أجل تعميقها. وعندما نتأكّد من حبّنا، نتوغّل في داخله، في سبيل تنميته، ومزيدٍ من الحبّ.

– **أَنتيبه:** سيكون التسامح أشدّ صعوبةً في القرن الواحد والعشرين، وفي مناخ العولمة. ولا بدّ، في سبيل ممارسته، من فضيلةٍ تكاد تتخطّى القدرات البشريّة.

– **غيتّون:** وسيكون ثمن هذا التسامح تنازلاً موجعًا، إذ على المرء الإقرار بأنّ حقيقته ليست مطلقةً، وعليه الاعتراف بشذرة الحقيقة الضئيلة التي يحملها الغريب. هذا الموقف تعبيرٌ عن فقدان اليقين بالحقيقة التي يؤمن بها الفرد، وهو موقف تواضعٍ وتجريدٍ.

– **أَنتيبه:** كيف يمكن الانتقال من التسامح إلى الحبّ؟

– **غيتّون:** بتحوّلٍ مفاجئٍ ناجمٍ عن حدْسٍ مفعمٍ ودًّا، وبصبوّ كلّ الكيان إلى رجاء سلامٍ يولّد الحبّ. وحينئذٍ يصبح التسامح فضيلة انتظارٍ، ديناميّتها السرّيّة هي الإصرار على عدم التوقّف، بل المضيّ

إلى أبعد فأبعد.

– **أنتييه:** خلاصة القول، كما كتب «جانكيليڤتش»: «التسامح هو توافق الإنسان مع عالمٍ يسوده الخلاف. إنّه يشيع السلام في مأساة تعدّديّة المطلق. إنّه الزيت الذي يجعل عجلات التعايش أسلس انزلاقًا؛ ويتيح لمن لا يتحابّون أن يحتمل بعضهم بعضًا ريثما يستطيعون أن يتحابّوا. وهكذا تتحقّق معجزة الـ «نحن»، مفارقة الجماعة». ولكن ما هي حدود التسامح؟

– **غيتّون:** إنّها تتوقّف عند الأسوأ، إذ يمكن الإغضاء عن كذبة ولدٍ صغيرةٍ، ولكن لا يمكن الإغضاء عن اغتياله. ويمكن الإغضاء عن هرطقة مسيحيٍّ منشقٍّ، ولكن لا يسوغ السكوت عن خطإٍ في تقدير ربّانٍ يفضي إلى صدم سفينته بصخور الشاطئ، أو عن رعونة سائقٍ يقتل أسرةً بأكملها. يمكن احتمال مستوّلٍ مزعجٍ، ولكن لا يمكن احتمال هتلر أو ستالين. ولا يسوغ، باسم التسامح، الإغضاء عن التزمّت، كالعنصريّة العمياء، وعواقبها الوبيلة من كراهيةٍ، وعنفٍ، قد تقود إلى الهمجيّة.

الفراغ (الراحة)

مرادفاتٌ: استرخاءٌ، استراحةٌ، سكونٌ، نومٌ، لاوعيٌ، استسلامٌ، تجرّدٌ، صمتٌ.

أضدادٌ: اضطرابٌ، دأبٌ، عملٌ، جهدٌ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «لا يملأنا الله إلاّ بقدر ما نكون فارغين». (مونترلان)
«يغدق اللّه نِعَمه على حبيبه وهو نائمٌ». (مزمور ١٢٧ : ٢)

تعريفٌ: وضعٌ عقليٌّ يقيم الفراغ في الوعي، متجنّبًا النوم.

في مذهب الزن (Zen) البوذيّ، هو وضع الذهن في حالة جاهزيّةٍ، كي تتمكّن ذروة الوعي المرهفة من الإحاطة بجوهر ما هو «كائنٌ» في الواقع، أي ما يسمّيه المسيحيّون «اللّه»، ويسمّيه سواهم «الجلالة» أو «الامتياز».

في الغرب، أمعن «جونغ» (C. G. Jung)، في دراسة الفراغ، وهو ظاهرةٌ نفسيّةٌ معقّدةٌ، درسها فرويد، أيضًا، من منظورٍ إلحاديٍّ. فكرتها الأساسيّة هي أنّ ظاهرة الفكر تنطوي على قطبين يتعايشان معًا: الوعي واللاوعي. بواسطة الوعي، يتّصل الإنسان، من خلال حواسّه، بالعالم الخارجيّ، الظاهريّ. الـ «أنا» هو باني الوعي. أمّا اللاوعي فهو، أوّلاً، ذاكرةٌ، ومستودع خبراتنا، وخبرات أسلافنا (لاوعيٌ جماعيّ)، ويحتوي على مكبوتاتنا، وعلى أكثر منها، إذ إنّه منبع حَدْسنا. بوسع الفنّانين، والمخترعين والمبدعين، وكلّ فردٍ، الاستمداد من ذلك المستودع، الذي في التجربة الصوفيّة، يتّصل، أيضًا، باللامحدود، وبما يفوق الطبيعة.

إنّ وضع الفراغ الطبيعيّ هو النوم. ولكنّه فراغٌ نسبيٌّ، إذ يندرج فيه الحلم، وهو نشاط اللاوعي النفسيّ. ودور الحلم هو التعويض عن توتّرات الحياة النهاريّة، وتنظيم الحياة النفسيّة، والتعبير عن عناصرنا

القابعة عند عتبة الشعور، وربّما تلقّي رسائل من ذواتٍ خارجيّةٍ. يقول «جونغ»: «إنّ كلّ المستقبل الذي يُعدّ فيّ، محتوًى في اللاوعي». يتعذّر سبر غوره، ويتميّز محتواه بغنًى لا محدودٍ. وهذا ما يؤكّد ضرورة الفراغ من أجل بلوغ العالم الذي يحتوينا نفسيًّا، ويحتوي الكائن المثاليّ الذي بوسعنا أن نصيره، والذي نحن مدعوّون إلى أن نكونه.

إنّ الاسترخاء، وهو أسلوب الانعتاق من التوتّر الجسديّ والفكريّ، علاجٌ ضروريٌّ للجميع، وكفيلٌ بتخفيف وطأة التعب، والتوتّرات، والهواجس، التي تولّد عللاً نفسيّةً وجسديّةً معًا. الاسترخاء يمهّد لكلّ تمرينٍ، ويضاعف جدوى العمل. وينبغي أن يحظى بأولويّة التعليم في المدارس.

حوارٌ

– **أنتييه:** في سياق حديثنا عن العمل، أشركنا به الحديث عن الراحة. ونحن لا نعني، هنا، الخواء الذي ينشده الصوفيّ الباحث عن الله، بل، بكلّ بساطةٍ، الاستراحة بين جولتَيْن، والاسترخاء الذي يحتاجه الجسم، ويحتاجه، خاصّةً، الدماغ، كي يعملا بالجدوى القصوى.

– **غيتّون:** لقد التمستُ الراحة، التي لم أَفصلها، يومًا، عن العمل. وعلى حدّ قول «رافيسّون» (Ravaisson): «في كلّ غفوةٍ وعدٌ».

– **أنتييه:** يجري كلّ شيءٍ، ولكأنّ الآلة الدماغيّة تنتظر استرخاء الوعي هذا، كي تتصدّى لإحدى عمليّاتها الخلاّقة، التي يبدو أنّ انشغال الإنسان المفرط يعيقها.

– **غيتّون:** أجل. لا بدّ من تناوبٍ يحاكي تناوب الظلمة والنور. فبفضل الاسترخاء، سواءٌ كان راحةً أو نومًا، تنحلّ مواضيع تفكيري، وتفقد ما كان يربطها من صلاتٍ كي تعقد صلاتٍ أرحب مدًى.

– **أنتيبه:** ولكأنّ في الدماغ عين مشغّلٍ سرّيٍّ، تكتشف، بواسطة حاسوبٍ مصنوعٍ من خلايا حسّيّةٍ، سعة الاحتمالات، والذواكر، الكفيلة باستنباط الحلول. يمكن إفساح فرصة العمل للسبات، مثلما يمكن محاولة التدخّل في عمله، أو، أقلّه، مراقبته، فماذا تفعل من أجل تنشيط هذه الوظيفة المباركة؟

– **غيتّون:** أحرص على ألاّ أفعل شيئًا. بل أَدع الأشياء تحدث. ينبغي تجنّب الإمعان في مراقبة الذات، إذ قد يؤدّي ذلك إلى الاستيقاظ عوضًا عن الإغفاء. بل يجب التيه في ذلك المبهم الذي يمكن تسميته «كينونةً» أو «عدمًا»، في شعورٍ بأنّ لا شأن، في تلك الحال، لأيّ شيءٍ، إلاّ للراحة، فهي، في تلك اللحظات، «العمل» الوحيد.

– **أنتيبه:** إذن، ما من عملٍ جيّدٍ بمعزلٍ عن الراحة، والاسترخاء، والفراغ، والتزوّد بطاقاتٍ جديدةٍ. وما يصلح للفلاّح، في هذا الميدان، يصلح، أيضًا، للعامل في مكتبٍ، وللموظّف، وللمعلّم، وللباحث، وللفنّان، وللكاتب. فما السبيل إلى التوفيق بين العمل والراحة؟

– **غيتّون:** أنا، مثلك، دؤوبٌ، منهمكٌ. لا أحسن التوقّف كي أنال قسطًا من الراحة، وأفسح للاّوعي إنجاز العمل نيابةً عنّي. إنّني أونس، في العمل، متعةً جمّةً، وأحتاج إلى نشاطٍ مستمرٍّ، مثابرٍ، وإلى إعمال الفكر الدائم. لقد بلّغوني الجملة الأولى التي تلفّظتُ بها، طفلاً، وأنا أتأمّل لوحة العشاء الأخير لليوناردو دي ڤينشي، وقلت: «إنّهم محظوظون. فهم يأكلون بلا انقطاع». إنّ المغزى العميق لهذا القول مدوّنٌ في جوهر كياني، مشيرًا إلى حاجةٍ لنشاطٍ لا عهدَ له بتوقّفٍ. وقد أنشد الشاعر «موسّيه» (Musset)، في قصيدته «ليلة تشرين»: «أيّام العمل! أيّام حياتي الوحيدة!».

– **أَنتيه**: كيف تفسّر هذا الإفراط؟ إنّ الدماغ، كالعضلة، يحتاج، هو أيضًا، إلى الراحة؟

– **غيتّون**: هذا مؤكّدٌ. ولكن يبدو أنّ البعض يجدون متعةً في الإرهاق، سواءٌ تعلّق الأمر بطالبٍ يُعدّ لامتحانٍ، أو بكاتبٍ يعالج نصّه بعنادٍ، أو بمديرٍ عامٍّ مهووسٍ برقم أعماله.

– **أَنتيه**: قد يكون الإفراط في العمل مخدّرًا هدفه تمويه قلقٍ شديدٍ، أو قد يكون مجرّد مطمعٍ في مزيدٍ من الربح، والتكديس، والإنتاج.

– **غيتّون**: عندما يطغى على الذهن عملٌ مثيرٌ، فهو يستأثر بكلّ التفكير، وتنتفي الرغبة في الراحة. غير أنّ تلك نزعةٌ خطيرةٌ، وهي أحد عيوب الإنسان المتطوّر. ولكنّني أودّ تخطّي هذا التفسير العاديّ، مثل حاجة النيرونات المؤكّدة إلى تجدّد التزوّد بالأوكسجين، وتحقيق بنيتها المعقّدة بسلامٍ. إذ ينبغي الفصل بين الفكر والعمل، والاحتفاظ بفسحةٍ إلهيّةٍ يتهيّأ فيها التمييز بين ما هو هامٌّ، وما هو عديم الشأن. تلك هي وصفةٌ ملكيّةٌ تضمن لا عملاً ناجحًا فحسب، بل، أيضًا، تضمن السعادة.

– **أَنتيه**: إن كانت السعادة تكمن في أن يكون لدى المرء عملٌ، فهي تكمن، أيضًا، في أن يكون لديه وقتٌ. ولكن من الصعوبة بمكانٍ التوفيق بين العمل والوقت! فإن كان العمل موفّقًا، ويواكبه النجاح، نزع المرء، أو قُسِر، أحيانًا، على تحقيق المزيد باستمرارٍ. فما السبيل إلى حلّ هذا التناقض؟

– **غيتّون**: لم أفصل، يومًا، العمل عن الراحة، وقد حرصت دائمًا على أن تكون الراحة عملاً، وعلى أن يكون العمل راحةً، لكي تكون كلّ شذرات الحياة التي تُفاض علينا، أوفر جدوى، على ألاّ

تدع للفراغ سوى فسحةٍ ضئيلةٍ.

– **أنتييه:** في الواقع لا عهد للآلة الدماغيّة بالراحة، إلاّ، ربّما، في مرحلة السبات العميق، البطيء الموجات. ففي أثناء النوم، يتراجع الوعي، ويدع القيادة إلى ذلك الحيّز المبهم من الفكر، الذي أسميناه اللاوعي. إنّ الفراغ، وهو حركة تراخي الوعي، طوعًا أو قسرًا، يتيح للاّوعي أن يعمل. وفي ذلك إغناءٌ جديدٌ يغذّي العمل الجاري. ولا ريب أنّ هذه إحدى وظائف النوم. ولكن هل النوم كافٍ؟ أم هل ينبغي أن يفرض المرء على ذاته فترات راحةٍ طوعيّةٍ، في أثناء النهار؟ وبالإجمال هل ينبغي أن يعمل المرء بلا استعجالٍ، أو أن «يضيع» قسطًا من وقته؟

– **غيتّون:** إنّ مفتاح العمل الجيّد، هو إيلاء كلٍّ من الجهد والراحة حقّه. فكلّ إبطاءٍ في عملٍ فكريٍّ، جيّد الإعداد، يوفّر فرصةً لثمرةٍ ناضجةٍ. وذلك ينطبق، أيضًا، على العمل اليدويّ حيث يدخل قسطٌ من الفكر.

إنّ الوقت يمهّد للإكمال، فيسقط ما لم يكن من جوهر أفكارنا، ويُسهم في إقصاء العرَضيّ. ويعمل، أيضًا، على نحوٍ إيجابيٍّ، بإنبات ما لم يكن، بعدُ، سوى بذارٍ. إنّ خير وسيلةٍ لإصلاح ما فعلناه، (ولتنقيح ما كتبناه) هو الإخلاد إلى النوم، ثمّ البدء من جديدٍ.

– **أنتييه:** هل ينبغي، إذن، عدم قسر الذات؟

– **غيتّون:** إنّ الأمر أكثر دقّةً. إذ ينبغي الجهد في سبيل تفادي الإجهاد، والدأب في جوٍّ من الاسترخاء. ولكنّ ذلك يقتضي جهدًا جمًّا.

ويبدو أنّ في هذا المقتضى تناقضًا. ولكن من المؤكّد أنّه، في ميدان العمل، كما في ميدان الفضيلة، كي يتأهّل المرء، يومًا، لإنجاز عملٍ

بلا جهدٍ، عليه أن يكون قد بذل الكثير من الجهود.

– **أَنتييه:** أين يتوقّف العمل، وتبدأ الراحة؟

– **غيتّون:** إنّك تطرح، هنا، سؤالاً رئيسًا. عندما ينقطع الإنسان عن العمل، ويخلد إلى الاسترخاء، غالبًا ما ينتهي إلى الاستسلام للكرى. وحينئذٍ يصبح فقدان الوعي كاملاً. وجديرٌ بالتنويه أنّ الإنسان لا يلحظ أبدًا لحظة غرقه في النوم، إذ إنّ وعي هذه اللحظة يستلزم أن يكون المرء، في آنٍ واحدٍ، في الزمن وخارج الزمن، مستيقظًا ونائمًا، وهذا يبدو مستحيلاً.

– **أَنتييه:** إنّ ممارسي اليوغا يتمرّنون على ذلك. إنّهم يتجنّبون النوم، أو أقلّه، يؤخّرون حدوثه. ويؤكّدون أنّ تلك اللحظة الثاوية خارج الزمن، بين اليقظة والكرى، هي أخطر لحظات الحياة، فهي تحاكي نافذةً مشرعةً على الأبديّة، وعلى اللامحدود، وعلى الواقع. ولكن من الذي يصيب من ذلك نتيجةً؟ ومن الذي يرى، في الجانب الآخر، بالعين الثالثة؟

– **غيتّون:** في الواقع، يبدو ذلك محالاً. إنّ توقّف الوعي العاديّ، حتّى عندما يرغب الإنسان في لحظه، يتحقّق بغتةً. إنّ النوم يشبه الموت، ويأتي كالسارق.

– **أَنتييه:** هل الموت هو أن يكون المرء في «الجانب الآخر»، في «الآخرة»؟ إنّ هذه الفكرة عن النوم، وعن الاسترخاء الذي لا معدى عنه لتحقيق ملء ازدهار العمل، يقودنا، مرغمين، إلى التجربة الصوفيّة. فما رأيك في مذهب الطمأنينة؟(١)

– **غيتّون:** أرى أنّه حقيقةٌ متواريةٌ خلف غلوٍّ مفرطٍ في الحقيقة

(١) إنّه مذهبٌ صوفيٌّ أسّسه الكاهن الإسبانيّ مولينُس، الذي كان يرى أنّ الكمال المسيحيّ يكمن في محبّة الله وفي سُجوّ الروح.

التي تنطوي عليها الراحة.

– **أَنتيبه:** مذهب الطمأنينة هذا ما هو سوى صيغةٍ لصوفيّةٍ سلبيّةٍ، وقد لاقى رواجًا واسعًا في فرنسا، في القرن السابع عشر، مع مدام «غويّون» (Guyon)، ودعمه «فينيلون» (Fénelon)، فترةً ما، غير أنّ الكنيسة أَدانته، لأنّه كان دعوةً إلى التواني.

– **غيتّون:** فكرته الأساسيّة كانت أنّ بلوغ الله يتمّ عبر الراحة، أي عبر إِيقاف كلّ جهدٍ نافلٍ، ممّا يشير، في داخلنا، إلى عملٍ أعمق من كلّ عملٍ، وهو الالتزام بإرادةٍ لا وجه لها، وبكائنٍ لا حدود له، وبأبديّةٍ لا نهاية لها. غير أنّ مذهب الطمأنينة قد أمعن في مغالاته.

– **أَنتيبه:** ها إنّنا قد نأينا بعيدًا عن راحة العامل العاديّ المتواضعة!

– **غيتّون:** إنّنا مدعوّون، جميعًا، إلى التسامي فوق العمل، وإلى «تقديسه». ولا مفرّ، في سبيل ذلك، من المرور عبر «الراحة». الراحة لا تلغي العمل. بل علينا أن نصغي إلى تلك الحكمة الحميمة التي تحملنا على النوم، والراحة. وفي هذا التوازن يكمن التناغم.

الشيخوخة (السعيدة)

مرادفاتٌ: تجرّدٌ، انفكاكٌ، تسليمٌ، سلامٌ، حكمةٌ، روح طفولةٍ، سجوٌّ.

أقوالٌ مأثورةٌ: «تبدأ الشيخوخة عندما تصبح للثانويّ الأولويّة على الجوهريّ». (الكردينال ساليج)

«لا تسلب الشيخوخة رجل الفكر سوى الخصال التي لا حاجة للحكمة إليها». (جوبير)

«كلّما أوغلتُ في الشيخوخة تعاظم إيماني بخلود النفس، إذ إنّني بقدر ما أوغل في الشيخوخة يترسّخ شعوري بتأهّبي للحياة». (وليم جيمس)

تعريفٌ: الشيخوخة هي حالة قِدَمٍ، وتداعٍ. القاموس يقول، بلا تزويقٍ ولا مواربةٍ، إنّ الشيخوخة هي فقدان الشباب، والقوّة، والنضارة، والرواء. هي الانسحاب من الحياة النشيطة. هي كلّ ما سلف وبات من التاريخ، وتخطّاه الزمن، وأمسى عتيقًا، قديمًا. بعبارةٍ أُخرى، هي كلّ ما لا يجب فعله. يقول «كورنيّ» (Corneille): «يا للسخط، يا للقنوط، يا للشيخوخة المعادية!». بيد أن «أندريه موروا»[1] يقول: «إنّ شرّ الشيخوخة الحقّ، ليس وهن الجسد، بل هو لامبالاة الروح».

فالشيخوخة ليست قَدَرًا محتومًا، إلاّ في بعض حالاتٍ مرضيّةٍ. وثمّة فنٌّ يمكّن من حياة شيخوخةٍ سعيدةٍ. هذه الفضيلة الضروريّة تقوم، معًا، على التجرّد الحكيم من الخير الفذّ الذي يُدعى الشباب، والذي لا يفيد منه الشباب سوى القليل، ويقوم، خاصّةً، على قِيَم الروح. فعلى نقيض الجسم، يقاوم الروح الشيخوخة مقاومةً شديدةً، حتّى في أقصى العمر، إن قيّض له الإفلات من أمراض الانحطاط الدماغيّ، التي قد يتغلّب عليها العلم، غدًا.

(١) أندريه موروا (André Maurois- 1885 - 1967) أديبٌ فرنسيٌّ اشتهر بكتابة سِيَر كبار الأدباء والسياسيّين.

أحد أساليب الإعداد لشيخوخةٍ سليمةٍ هو الإفادة من الصحّة البدنيّة، التي تجهد، منذ المراهقة، في العناية بالجسم (بالرياضة، ومراعاة قواعد الصحّة، واليوغا) وبتجنّب كلّ إفراطٍ (ولا سيّما في الطعام وممارسة الجنس)، وبانتباذ السموم الكامنة في المخدّرات، والتبغ، والكحول. ولكنّ هذا لا يكفي، إذ لا بدّ، أيضًا، من إبقاء الذِهن في حالة نشاطٍ، بمطالعة كتبٍ جيّدةٍ، وبإغناء الذاكرة، وبتنمية مثلٍ أعلى، وهوًى، ويُفضَّل أن يكون إيثاريًّا، فمثل هذه لا تخضع لواجب التقاعد، الذي يُقسر عليه القوم في عمرٍ يصبح، أكثر فأكثر، مبكّرًا.

فإن كانت خلايانا الدماغيّة (النيرونات) لا تتجدّد، وإن كان بعضها يموت، غير أنّنا نمتلك منها عددًا جسيمًا (بضعة مليارات)، تسمح، نظريًّا، بالحياة، بل بالحياة السويّة، في ما يتخطّى مئة عامٍ، شرط أن تُبقى في حالة نشاطٍ، إذ بمقدور كلّ خليّةٍ تنمية آلاف العلاقات.

يقول «پول إلوار» (Paul Eluard): «الشيخوخة هي تنظيم الشباب، على كرّ السنين». فعلى مدى الحياة ينبغي العمل، حرفيًّا، بقول الرسول بولس: «فليكن كلّ جميلٍ وجيّدٍ هو موضع فكركم الأوحد، بحيث تتحوّلون إلى صورتهما عينها، وتتقدّمون من مجدٍ إلى مجدٍ». وبذلك يتجنّب الإنسان الانتحاب على السنوات التي ولّت، والرعدة من الموت.

وإليكم حفنة نصائح أدلت بها شخصيّاتٌ عهدت شيخوخةً جيّدةً:

– الجنرال «ماك أرثر»: «وحدها السنوات تجعّد البشرة. أمّا التخلّي عن الهدف فيجعّد النفس».

– هنري بوردو: «العمل بفرحٍ، وبذل ما أمكن من القلب» (وبالتالي تنمية الفرح والتفاؤل).

– ألبير كامو: «الانتقال من الهوى إلى التعاطف».

– شاتوبريان: «ينبغي ألاّ تكون الشيخوخة عبئًا، بل أن تكون كرامةً».

– پول كلوديل: «فليتغلّب الروح على الجسد».

ونختتم بقول «أمييل»: «إجادة الشيخوخة هي تحفة الحكمة، وأحد أصعب أجزاء فنّ الحياة الأكبر».

حوارٌ

– **أَنتييه:** يمكن إيجاز فنّ الشيخوخة السعيدة بالقول: «إنّه قضيّة حياةٍ بأكملها. هو البقاء نشيطًا ومُؤْثرًا للغير، أطول فترةٍ ممكنةٍ. ثمّ عندما تنحطّ القوى، وتنهار الذاكرة، هو التجرّد، واكتساب الحكمة، أخيرًا، وارتياد العالم الداخليّ، مع الحرص على إفادة الآخرين من هذه التجربة. وللمؤمن هو الاستجابة لدعوة التجرّد، الذي يُفضي إلى تقبّل الموت، على أنّه التسليم الأسمى، وليس النهاية بل البدء، والإيمان بأنّ الشيخوخة ولادةٌ.

– **غيتّون:** هو، أَوّلاً، الحفاظ على شباب الفكر وعلى النشاط حتّى النهاية. كان والدي يقول لطبيبه: «المهمّ هو أن نموت ونحن بصحّةٍ جيّدةٍ».

– **أَنتييه:** ذهب «ألكسندر أرنو» إلى أبعد من ذلك، فقال: «يجب أن يموت المرء وهو شابٌّ، وألاّ يشيب إلاّ بقدرٍ ضئيلٍ». فهل هذا ممكنٌ؟

– **غيتّون:** كان «جان روستان» يقول لي إنّ الشبّان هم الأكثر تعرُّضًا للشيخوخة. هذا واقعٌ بيولوجيٌّ محقّقٌ. فالشيخ هو أقلّ تعرّضًا للشيخوخة. وعندما يدرك المرء ذلك، يضع في محرّكه نمرًا.

– **أَنتييه:** إنّ نمرك يتدفّق حيويّةً، يا جان غيتّون. فأنت لا تتغيّب عن أيّة جلسةٍ من جلسات الأكّاديميّة الفرنسيّة، وتصدر كتابًا كلّ سنةٍ، وسيكون لك، قريبًا، من العمر، مئة عامٍ.

– **غيتّون:** أرجو ذلك. إنّ الكتاب، والعمل الفكريّ، يحفظانني. ولطالما نصحني طبيبي بإجهاد ذاتي. وهو يدعو ذلك المعالجة بالإجهاد.

– **أَنتييه:** على أن يتقبّل الجسد ذلك!

– **غيتّون:** إنّ هيكل الإنسان الخارجيّ لا يتقبّل ذلك دائمًا. ولكنّ الدماغ يتقبّله. كما قلت، إنّ مواردنا الدماغيّة جسيمةٌ، على ألاّ نكفّ عن تحفيز خلايانا العصبيّة. فلنعمل، ونحن في حالة استرخاءٍ جسديٍّ، حتّى ونحن مستلقون على ظهورنا، فنقوى على عبور الدهر. غير أنّ ما يجعلني أغرق في الشيخوخة هو فكرة ضآلة العطاء الذي ما زلتُ أقوى عليه. فمن يشعر بجدواه، لا يشعر بشيخوخته.

– **أَنتييه:** كم من الأجداد استنارت شيخوختهم بفضل اهتمامهم بأحفادهم! وكم قد أنقذ هذا الاهتمام أبناء أزواجٍ منفصلين!

– **غيتّون:** كان معلّمي المسنّ الأب «پوجيه» (Pouget) يقول لي: «علينا أن نحيا وكأنّنا لن نموت». فحتّى عندما يشيخ المرء ينبغي ألاّ يكفّ عن وضع المشاريع. كونوا مبتهجين، وسعداء بالحياة. فالحياة التي تُستخدم استخدامًا سليمًا هي وسيلةٌ للتقدّم في معارج الكمال. علينا أن ننمّي ذواتنا، ولدينا، في سبيل ذلك، وسائل لا حدود لها». لم يكن الأب «پوجيه» يخشى إنهاك نفسه بالعمل، حتّى النهاية، ولذلك ظلّ شابًّا حتّى مماته، وهو في السادسة والثمانين.

– **أَنتييه:** مع أنّه كان أَعمى.

– **غيتّون:** لم أشهد أحدًا أجاد شيخوخته مثله. ابتُلي بالعمى، وهو في الثامنة والخمسين، وحُرِمَ من هوى حياته، أي التعليم، ولكنّه احتفظ بفرح الحياة. وهكذا أمضى ثمانيةً وعشرين عامًا، مختليًا في منسكه اللعازريّ، فقيرًا ومجهولاً، بلا كتبٍ (عدا القراءات القليلة التي كنت أتلوها له)، بلا مستقبلٍ إلاّ في اللّه. وفي نهاية حياته باح لي: «لم أضجر، يومًا واحدًا، وكان كلّ يومٍ يعلّمني. كنت أعيد التفكير في العالم. لقد وُهبنا الحياة كي نكبر. وواجبنا هو أن ننمو ما استطعنا إلى النموّ سبيلاً». لم يكن لديه أيّ شظفٍ وبيلٍ. وكان يقول لي باستمرارٍ: «ينبغي أن نكون سعداء بالحياة. ولكثرة مشاغلي

كنت دائمًا حائرًا من أين أبدأ».

– **أَنتييه:** ولكن ما الذي كان يفعله؟

– **غيتّون:** بصفته حكيمًا حقًّا، كان ينصح الآخرين. ولكنّه كان يبدأ بالتفكير. عندما فقد البصر، قال: «أخيرًا سيتسنّى لي وقتٌ للتفكير. فلا بدّ من الليل من أجل إعمال الفكر جيّدًا... لقد أنفقت حياتي، وأنا مثقلٌ بالعمل والفرح. كم من الثروات في الأشياء، وكم من الطيبة في من صنعها! الشباب مغرقٌ في التخيّل، وبالتالي كثيرًا ما يتردّى إلى الأوهام. ومع كرّ الزمن يشفى المرء من الافتراضات، ويرى ما هو كائنٌ، ويرى نموّه، فتشتدّ عزيمته». وأنا كنت أتأمّله بإعجابٍ، صامتًا، ويخيّل إليّ أنّه كان يستعيد شبابه بقدر ما كان يبعد عن الثمانين من عمره، وأقول في نفسي: «لقد وجد، وهو يرى، ويعلم».

– **أَنتييه:** وهو أعمى، كان يرى النور. والمسيح قال: «سيروا ما دام النور معكم».

– **غيتّون:** واجبنا، وفرحنا هو أن نسير ما دمنا أحياءً، وأن نمضي قُدُمًا، رغم السنين والأمراض.

– **أَنتييه:** هذا ما تفعله، أنت، يا جان غيتّون. فلقد عهدناك لا تكفّ عن «السير» أي عن التفكير والكتابة، حتّى يومك الأخير.

– **غيتّون:** العمر المتقدّم هو الذي يمكّن الإنسان من أن يكون ذاته. كان القدّيس بولس يقول: «إنّ إنساننا الخارجيّ يتهدّم، ولكنّ إنساننا الداخليّ، يتجدّد يومًا فيومًا».

– **أَنتييه:** لمَ لا يؤتي البعض ثمارًا إلاّ في مرحلةٍ متقدّمةٍ من العمر، في حين أنّ آخرين، أمثال «موزار» و«شوپان»، اكتشفوا كلّ شيءٍ وهم في سنّ العشرين؟

– **غيتّون:** هذا سرٌّ، وهذه، أيضًا، فرصةٌ. إنّ نضج بعض العبقريّات المبكّر يدهشنا. غير أنّ شباب الشيوخ جديرٌ بأن يشدّ اهتمامنا أكثر، وأن يكون لنا أزرًا. لقد عرفت شاعرًا يُدعى «جان سولير ول» (Jean Soulairol). وهو إنسانٌ رقيقٌ وديعٌ، لم يرأف به الوجود. وقد تألّم، حتّى منتصف عمره، من جرّاء عجزه عن تذوّق الحياة. وحينئذٍ التقى ما نشده، منذ البدء، وما ظنّه مستحيلاً: أي الحبّ. فاستنارت حياته، ووضحت له معاني مِحَنه. لقد رأى السماء مشرعة الأبواب، فاستضاء شعره، أيضًا، وأنشد الحبّ، وهو كهلٌ، بحرارةٍ لا عهد لكثيرين من الشبّان بمثلها. وعاش طفولةً ثانيةً، بأُسلوب النضج.

– **أَنتييه:** هذا يُظهر توثّب الروح اللامحدود، والقدرة على عيش الطفولة ثانيةً، بمنأًى عن التردّي إلى طفولة الذهن. وهل، في هذا، يكمن سرُّ شيخوخةٍ موفَّقةٍ.

– **غيتّون:** أجل. وهذا ما تكلّمنا عنه في معرض حديثنا عن الحكمة. فعلى الشيخوخة أن تكون، للذهن، لا مرحلة انحطاطٍ، بل مرحلة استذكارٍ واستخلاص، يتذوّق فيها المرء، الأفراح بسلامٍ، أفراح الأعمار السالفة، أفراحًا مركّزةً، مكثّفةً، جوهريّةً، منزّهةً من كلّ عرَضيٍّ، ويتذوّق، على نحوٍ خاصٍّ، ما هو جوهر الطفولة، والذي لا يعرفه الطفل ولا يتذوّقه: أي النضارة، والشعور بالوجود في حالة ولادةٍ.

– **أَنتييه:** كان «فرانسوا نورّيسييه» (François Nourrissier) يقول لي: «عندما يشيخ المرء، يعتريه ضربٌ من الدهشة أمام الحياة. تلك هي إحدى مفاجآت العمر».

– **غيتّون:** هكذا تبرز فكرة عالَمٍ جديدٍ، هو بمثابة فاصلٍ زمنيٍّ بين العمل والموت، كما أنّ الطفولة هي فاصلٌ زمنيٌّ بين الحياة

والعمل.

– **أَنتييه:** هذا يقودنا إلى وجهٍ آخر من وجوه الشيخوخة، عندما يصبح النشاط متعذّرًا، ويتحتّم الانفكاك عن العمل. فعندما اضطرّت «فرنس پستوريلّي» (France Pastorelli) إلى هجر فنّها، وهو العزف على البيانو، كتبتْ: «كانت حياة العالم تنسحب عنّي انسحابًا كاملاً، ولكن على غرار الموجة التي يسفر انسحابها عن الكنوز التي كانت المياه تغطّيها». وإنّه خيرٌ للإنسان أن يتجرّد طوعًا، وهو مبتسمٌ، من أن يُكره على التجرّد قسرًا، مثل «بريّات ساڤاران» (Brillat - Savarin) الذي كان ينتحب من بلوغه الشيخوخة، ومن «تردّيه إلى الحكمة».

– **غيتّون:** بلزاك، أيضًا، قال، متأسّفًا: «الشيخ هو إنسانٌ تعشّى، ويشهد الآخرين ما برحوا يتناولون الطعام». ولكن كم نظرته خاطئةٌ! فهناك طعامٌ وطعامٌ!

– **أَنتييه:** هناك، إذن، طرقٌ متعدّدةٌ للشيخوخة. فالبعض، مثل «مـرت روبـان» (Marthe Robin) التـي أرهقـتهـا الآلام الجسـديّة والنفسيّة، يجدون السبيل إلى استنباط غنًى روحيٍّ جمٍّ، من المِحن، عبر التسليم الفرح والتقدمة، وبمنأًى عن الاستسلام. وقد لاحظ «ألبير جاكار» (Albert Jacquard)، أيضًا: «إنّ ما صنعني، هو ما أَوجعني». هنا يكمن مفتاح الشيخوخة السعيدة، أي، قبل كلّ شيءٍ، في التجرّد من الأثقال الأرضيّة، الذي أوحى للموسيقيّ «ييهودي مينوهين» (Yehudi Menuhin) هذا القول: «أنا لا أُصبح أكثر شيخوخةً، بل أوفر رشاقةً، مثل طائرةٍ انتهت إلى غاية رحلتها».

– **غيتّون:** هذا صحيحٌ. فالبالغ الشابّ مثقلٌ بالحيويّة، مثل طائرةٍ تقلع وهي مثقلةٌ بالوقود. ولذلك يكون الإقلاع، عمومًا، أكثر خطورةً من الهبوط. أنا، أيضًا، أشعر بذلك. علينا، إذن، التسليم ببساطةٍ.

لقد كانت والدتي محقّةً بقولها: «هناك طريقةٌ وحيدةٌ من أجل شيخوخةٍ سعيدةٍ هي تقبّل السنين، والاهتمام بالآخرين أكثر من الاهتمام بالذات». وكانت قد نسخت هذه القصيدة، التي ظلّ اسم مؤلّفها مُغفَلاً:

«الشيخوخة، ينبغي الاعتراف بها للذات،
وإعلانها على الملأ، لا التماسًا لاعتراض الأصدقاء،
بل لتوفيق أذواقنا معها، ولكي نحظر على أنفسنا
ما كنّا، حتّى الأمس، نظنّه مباحًا لنا.

لكي نفرض على الشهوات البهيميّة أصوامًا صارمةً،
ونغذّي أذهاننا بمعرفةٍ بسيطةٍ وأكيدةٍ.
لكي نصبح ودعاء، وطيّبين، ونحبّ الصغار،
مثلما أحببنا، سابقًا، الزهور، والرجاء، واللازورد.

ولكي ننهمك، بلا ضجيجٍ، بكلّ ما يقتضيه كلّ رحيلٍ من اهتمامٍ،
ولكي نصلّي، ونصنع بعض خيرٍ من حولنا،
ولكي نزيّن نفسنا، غير مهملين الجسد،
مدفئين هذا بالجمر، وتلك بالإيمان العريق.

– **أنتييه:** الصلاة، والتأمّل، والخشوع، والمطالعة، وبذل الذات، هذه كلّها تبقى نشاطاتٍ جوهريّةً، لا قِبَل لثقل السنين على إعاقتها، لا بل إنّه يذكيها.

كانت امرأةٌ عجوزٌ تعبّر لي، مبتسمةً، عن سعادتها باكتشافها، في الصلاة، ثروة الشيخوخة، قائلةً: «حينئذٍ يقتحم الله حياتنا من ثغرة هشاشتنا». وأضافت، بصوتٍ خفت خَفَرًا: «ينبغي أن نقدّم للغير

خدمةً، بأن نكون أفضل حالاً». وهكذا، بإرشادنا إلى القِيَم الجوهريّة، تُدخلنا الشيخوخة إلى عتبة السرّ القدسيّ.

– **غيتّون:** العمر الأخير يُعِدّ لتحوّلٍ أخير. فنحن لم نبلغ بعد نهاية الشوط، ولم نكتمل. أجل، الشيخوخة تؤهّلنا لرؤية اللّه عن كثبٍ. ومن ثمّ، فعوضًا عن كونها عمر الانحلال، هي عمر الاندماج.

– **أنتييه:** يروي «ميلان كونديرا» (Milan Kundera) أنّ أباه الشيخ كان يزداد فهمًا، بقدر ما كان يوغل في العمر. وتسنّى له ما يشبه رؤية الجوهر. ولكنّه بالمقابل كان يعاني مشقّةً في التعبير عن رؤيته. وفي النهاية، عندما أشفى على الموت، بات يرى، ولكنّه فقد القدرة على النطق.

– **غيتّون:** هذه حالةٌ شبيهةٌ بحالة الطفولة الأولى. فالطفل يرى، ولكنّه يعجز عن التعبير عمّا يراه. والحالة المثلى هي بلوغ الرؤية مع الاحتفاظ بالقدرة على التعبير عنها.

– **أنتييه:** الآن أُدرك قول «جان كاسّو» (Jean Cassou)، الذي احتُفِل مؤخّرًا بذكراه المئويّة: «في قلب الشيوخ شيءٌ واهنٌ ولكنّه لا محدودٌ، ينبغي ألاّ نمسّه بأذًى، بل ينبغي تجلّته برعدةٍ، كما هي الحال قبل مباشرة تعليم شؤون الدين للصغار».

– **غيتّون:** قال لاكوردير (Lacordaire): «أنا لم أشخْ، ولكنّني عهدت عدّة مراحل شبابٍ متعاقبةٍ». وها أنذا قد بلغت مرحلة شبابي الأخيرة، شبابٍ بلا شبابٍ، ويبدو أنّ لا مستقبل له. ولكن بما أنّ الوجود البشريّ، عبر مراحل الحياة، هو سلسلة تحوّلاتٍ، آمل أنّ يتحوّل شبابي الأخير، تحوّلاً سرّيًّا، عقب العبور الكبير، وأن يكون، في هذه النوبة، تحوّلاً أبديًّا. ولذلك ينبغي أن يموت المرء حرًّا، خارج القوانين، أو وفق قوانين أوفر حميميّةً.

– **أنتييه:** ما هو سرّ عمرك الطويل؟

– **غيتّون:** الحبّ. أُحبّ الحياة. أُحبّ الكتابة، وأحبّ الرسم، أيضًا. أحبّ أن أُحِبّ وأن أُحَبّ. الشيوخ يموتون، لأنّه لم يبقَ لهم من يحبّهم. بفضل مؤلّفاتي أشعر أنّني، دائمًا، أحظى بقسطٍ من الحبّ، وربّما أنّني مفيدٌ، بعض الشيء. وأعتقد، أيضًا، أنّ الشيخوخة هي التذكّر.

– **أَنتييه:** عندما أراك، يا جان غيتّون، وأشاهدك تحيا وتعمل، مقابل حديقة اللوكسمبرغ الرائعة هذه، في تجرّد هذا الشتاء الجميل، تخطر بذهني نصيحة نيتشه هذه: «دع ثمار وجودك تكتسب مزيدًا من النضج والعذوبة، لكي لا يشوبها أثرٌ من حموضةٍ أو مرارةٍ».

– **غيتّون:** أجل، كلانا نطلّ على هذه الحديقة التي لن يلبث أن يعيد إليها الربيع الاخضرار. انظر إلى هؤلاء الأولاد الذين يركضون أمام هذين الزوجين المسنّين. ولتغمرنا، جميعًا، أنوار الرقّة، والسعادة، والرجاء، رجاء الحياة الحقّة، أخيرًا!

ولنختم بالتحدّث عن السعادة

«السعادة فضيلةٌ، بل هي من أكثر الفضائل منعةً». (غوبينو)

«أمّا في ما يتعلّق بسعادة الآخرين، فخير ما نستطيع فعله من أجل من يحبّوننا، هو، أيضًا، أن نكون سعداء». (آلان)

حوارٌ

– **أنتيه:** وما قولك بأن نختتم حوارنا بالتحدّث عن السعادة، فهي الخير الأسمى لمعظم البشر. أليس امتلاكها، وحسن التمتّع بها، واقتسامها، فضيلةً؟ في أثناء زيارة «الدالَيْ لاما» إلى مدينة «كاين»، استوضحتْه فتاةٌ تدعى «إيلويز»: «ما هي السعادة؟ إنّني مستعدّةٌ لفعل أيّ شيءٍ في سبيل الظفر بها».

– **غيتّون:** السعادة هي انعكاسٌ ثابتٌ لحياتنا الداخليّة، هذا التيّار الذي ينساب، بلا ضجيجٍ، في أعماق الروح، في هذا الغور الحميم من ذاتنا، حيث لا ننحدر، وحيث تتكوّن وتنضج الفكرة التي تعلن فينا الصفات الإلهيّة.

السعادة تتخطّى اللذّة، والسلام، والبحبوحة. إنّها رضًى بالوجود يكتفي بذاته. إنّها عالم صمتٍ، حيث كلّ شيءٍ في مكانه، ويفرح بالحياة. كنتُ، وأنا أُراقب الفيلسوف «موريس بلونديل»، أستطيع أن أسمع وأتأمّل رجلاً سعيدًا، يقطن الكائن الكونيّ الشامل، مع كونه كَلِفًا بكلّ ما هو فريدٌ؛ رجلاً يولّد، من جديدٍ، فكرة الكلّيّ، في

كلّ ذرّة كيانٍ؛ رجلاً دائم التوتّر، ولكنّه حرٌّ؛ همّه الدائم بلوغ الفائق الطبيعة في ذاته، ومع ذلك متيقّظًا للتفاصيل.

– **أنتييه:** ألا يتباين الأفراد، تباينًا شاسعًا، في مفهومهم للسعادة، وفي أسلوب تمتّعهم بها؟

– **غيتّون:** في الواقع، إنّه من العسير إجراء مقارنةٍ بين شتّى أنماط السعادة. إنّ سعادة القدّيسين تسمو على سعادة العلماء، وهذه، بدورها، تسمو على سعادة الرياضيّين. في نظر پاسكال، السعادة القصوى لا تنفصل عن المحبّة، والحبّ، والقداسة؛ وهي لا تنفصل، أيضًا، عن تصعيد الطبيعة صوب ما يفوق الطبيعة، وتصعيد الحرّيّة صوب النعمة.

– **أنتييه:** ما هو، لديك، سرّ السعادة العاديّ؟

– **غيتّون:** السعادة زيادةٌ تضاف إلى أعمال من لا يبحث عنها. السعادة هي، في المقام الأوّل، بساطةٌ، على غرار سعادة الأطفال. كانت «مارغريت يورسنار» (Marguerite Yourcenar) تقول: «كلّ سعادةٍ هي براءةٌ». السعادة هي تجنّب المُتَع النافلة، والعودة إلى بساطة العيش. وبالإجمال، إنّ فنّ الحياة الأكثر بساطةً وصعوبةً، في آنٍ واحدٍ، هو الحياة يومًا فيومًا، كالطفل، والزنبقة، والحمامة، إذ حسْبُ كلّ لحظةٍ رجاؤها وفرحها. وهذا ليس موقفًا سلبيًّا. بل هو تقبّل الحياة وأحداثها، والإفادة منها. ينبغي الانتظار، ثمّ إضفاء وجهٍ جميلٍ على الأحداث. وإذا ما دُعينا، يومًا، إلى أُمورٍ عظيمةٍ، فعلينا النفاذ إليها من خلال أمورٍ صغيرةٍ ننفّذها على خير وجهٍ.

– **أنتييه:** ألا ينطوي ذلك على شيءٍ من الأنانيّة؟ يخطر ببالي بيت شعر «فلوريان»: «لكي نعيش سعداء، فلنعِشْ متوارين»، وقول أَرسطو: «يظفر بالسعادة من يكفون أنفسهم بأنفسهم».

– **غيتّون:** أنت على حقٍّ. وقد أضافت التجربة المسيحيّة إلى تلك الحكمة الوثنيّة، نصيحةً مجنونةً: إنكار الذات، وبذلها، والاستسلام للعناية الإلهيّة. ذلكم هو سرّ سعادة القدّيسين. إنّ السعادة هي حالة نعمةٍ رقيقةٌ وسريعة العطب. إنّها، قبل كلّ شيءٍ، ثمرة القلب. وما من سعادةٍ حقّةٍ، ثابتةٍ، ودائمةٍ، سوى سعادة المشاركة.

– **أنتيه:** وهذا يقتضي إنكار الذات، ويعود بنا إلى التجرّد.

– **غيتّون:** في الواقع ما من سعادةٍ دائمةٍ إلاّ في التجرّد: عدم الامتلاك هو كينونةٌ. قال إيپيكتيتُس[١]: «ليست السعادة اكتسابًا وتمتّعًا، بل هي انعدام الرغبة، لأنّها حرّيّةٌ». والسعادة تقتضي، أيضًا، الصدق، وأوّلاً مع الذات، وتجنّب السعي إلى التألّق تحت مظهرٍ زائفٍ، والامتناع عن ارتداء الأقنعة، والوقوع في عبوديّة شخصيّةٍ يودّ المرء لعب دورها. وقد نوّه «رومان رولان» (Romain Roland) بأنّ «السعادة هي أن يعرف الإنسان حدوده وأن يحبّها». وفضلاً عن ذلك، ينبغي الدأب على التطوّر، والتحوّل، والتصعيد الصامت، بإنماء كنز المكتسبات الفكريّة، والأدبيّة، والفنّيّة، وطبعًا الروحيّة، وهذا ما أسماه سقراط «الرغبة في امتلاك أجنحةٍ».

– **أنتيه:** ولنعد إلى سؤال «إيلويز» الساذج. ما هي النصيحة العمليّة التي بوسعك إسداؤها لشابٍّ ينشد السعادة؟

– **غيتّون:** عليه، أوّلاً، أن يكتشف لنفسه مبرّرًا للحياة، وأن يتبيّن ما يريد، فيريده بهوًى، بحيث يتماهى لديه العمل والمتعة. ذلكم هو فنّ السعادة الأسمى. عليه أن يكون ذاته، وأن يكتشف جذور تميّزه؛ وعليه اختيار دعوةٍ تضمن له مكانةً في العالم، وجدوى، ومن ثمّ إتقان تحقيقها.

---

(١) إيپيكتيتُس: فيلسوفٌ رواقيٌّ رومانيٌّ، عاش في القرن الأوّل، ودعا إلى الصبر على الشدائد والمِحَن.

– **أَنتييه:** ولكن ما عساه يفعل، إن لم تكن له دعوةٌ محدَّدةٌ؟

– **غيتّون:** عليه، حينذاك، أن يدع للمشورة، ولصدفةٍ ما، ولتآمر الظروف، إكراهه على اختيار طريقه الفريد، حيث يعمل كلّ يومٍ بمهارةٍ وجرأةٍ.

العالم، اليوم، يطلب أصحاب اختصاصٍ. ولكي يتجنّب الشابّ البطالة، عليه المثابرة على تنمية مهاراته، وعليه، أيضًا، تنويعها، كي يتوافق مع شتّى المقتضيات.

– **أَنتييه:** أليس في التخصّص المفرط خطرٌ؟

– **غيتّون:** هذا محقّقٌ. ولذلك ينبغي أن يستفيد الشبّان من أوقات فراغهم كي يُنمّوا دعواتٍ لم يختاروها. كم من الدعوات غافيةٌ فينا، وهي شديدة الحيويّة! ومن ثمّ، فإن أنت اخترت مهنة الآداب، دعْ ذهنك مشرعًا على العلوم، وبذلك تجعل مهاراتك الأدبيّة أشدّ منعة ومصداقيّةً. وإن اخترت العلوم فليكن لديك عشق اللغة، وروعة الشعر اللامحدودة، وبذلك تضفي على العلوم قوّة وقعٍ وإقناعٍ تميّزك وتسعدك. وإن كنت نشيطًا، بل حتّى مسرفًا في النشاط، نَمِّ، في سرّك، روح عزلةٍ وتأمّلٍ، وبذلك تسبغ على مهنتك بُعد عمقٍ. كن، إذن، مختصًّا ومنفتحًا على الشموليّة، وبذلك تتفادى الجفاف. فهذا العالم يحتاج، أيضًا، إلى أذهانٍ مشرعةٍ، رحبةٍ، كفيلةٍ بأن تردف دعوةً مهيمنةً بدعواتٍ أُخرى كانت مهملةً.

– **أَنتييه:** وهل لديك نصائح أُخرى من أجل السعادة؟

– **غيتّون:** في المدرسة، فليبحث الجميع، معلّمين وتلاميذ، عن الحقيقة. أيّها المفكّرون مارسوا مهنةً يدويّةً، وأيّها العمّال اليدويّون، طالعوا، وتثقّفوا. وسواءٌ قطنتم قريةً، أو بناءً في مدينةٍ، اسعوا إلى تحقيق التضامن بين الجميع. لا تنتظروا مبادرة الآخرين إلى ملاطفتكم ومساعدتكم. بل بادروا أنتم، وبلا تحفّظٍ. وفي ما بعد، احرصوا

على ألاّ يكون مكتبكم، أو مصنعكم، مكان صراعٍ بين ربّ عملٍ ومأجوريه، بل جماعة عملٍ أخويّةً.

– **أَنتييه:** ولكن ما العمل، إن حلّت مصيبةٌ، أو طرأ مجرّد محنةٍ؟

– **غيتّون:** بإمكانك أن تقول مع «شارل بيرّو» (Charles Perrault): «لا يسعد المرء إلاّ بقدر ما يتألّم». إن كنت وحيدًا، قابعًا في الظلمة، فكّر بالغائبين الذين يحدّقون إليك، واستمدّ من ذاتك قوًى. وإن كنت في مكانٍ حيث الألم مشتركٌ، فاحرص على ألاّ تكون، ثمّة، دموعٌ وحيدةٌ، لكي يخفّ ألم كلّ فردٍ بحمله ألم الآخرين. وللوحيدين، الذين تُفعم نفوسَهم المرارةُ والكروبُ، والذين يظنّون أنّ الوجود قهرهم، قولوا: «كم من مجهولٍ ما زال بانتظاركم!».

– **أَنتييه:** وللشيوخ فلنقل: ما زال بقدرتكم إسداء خدماتٍ كثيرةٍ!

– **غيتّون:** إن لم تقووا على القيام بأعمالٍ مادّيّةٍ، فاعملوا بكلامكم. وإن تعذّر عليكم الكلام، اعملوا بحضوركم الصامت.

– **أَنتييه:** السعادة لا تُعطى بلا جهدٍ، بل تُكتَسب. إنّها فتحٌ مستمرٌّ. ولا بدّ من التفكير قبل العمل. لقد خُلق الإنسان حرًّا، لا حرّيّةً جسديّةً، فهو يخضع لألف ضغطٍ، ومع ذلك هو حرٌّ روحيًّا.

– **غيتّون:** إنّه، على الأقلّ، مدعوٌّ إلى حرّيّةٍ روحيّةٍ.

– **أَنتييه:** بوسع الإنسان أن يكون سعيدًا وحرًّا، وهو قابعٌ في سجنٍ. وبوسعه أن يكون تعيسًا وهو يتسنّم قمّة السلطة والثروة، بإغفاله نصيحة القدّيس أوغسطينُس: «السعادة هي الاستمرار في اشتهاء المرء ما يملك». لا ريب أنّ الأحداث والبشر غالبًا ما تسحق الإنسان، ولكنّ ثمّة فسحةً للإفلات من هذا الواقع. فالضغوط الحقيقيّة هي ثمرة قراراتنا. فمن يختار العنف لا بدّ له من أن يقع

ضحيّة العنف. ومن يختار المال سيتألّم، يومًا، من افتقاره إليه. ومن يختار الكذب سيصبح أسيره.

– **غيتّون:** من يختار الأنانيّة لن يعرف الحبّ، يومًا. وما من سعادةٍ بمنأًى عن الحبّ. سعادة المسيحيّ القصوى هي حبّه للّه، والشعور بأنّ اللّه يحبّه، وما ينبع عن ذلك: أي حبّه للقريب، وحتّى للبعيد، لا بل حتّى لعدّوه.

– **أَنتيبه:** هناك، أيضًا، العديد من السعادات الصغيرة، مثل الكَلَف بحيوانٍ أليفٍ، وتأمّل حياة حيوانٍ برّيٍّ، بعيدًا عن محاولة قتله أو أسره.

– **غيتّون:** أو مثل الرقاد على العشب أو الطحالب، في ليلةٍ حالكة السواد، بعيدًا عن المدينة، وتأمّل النجوم، أو التفجّر سعادةً أمام جمال الكون، وأسراره، ومعجزته.

– **أَنتيبه:** أو تأمّل انعكاسات أمواج البحر، من قمّة تلّةٍ، وتأمّل معجزة التناغم المنبعثة من جمال الريف الفرنسيّ. أو مثل التعرّض لأشعّة الشمس، إلهنا الوثنيّ.

– **غيتّون:** أو مشاهدة عودة الشمس، بعد المطر، أو بعد الشتاء، أو عقب الليل.

– **أَنتيبه:** أو سماع تغريد شحرورٍ في الصباح الباكر، أو عندليبٍ في الليل؛ أو الإصغاء إلى نشيد الشمس يشدو به صرصارٌ أو قبّرةٌ، أو إلى معزوفةٍ بالناي للموسيقار «ڤيڤالدي» (Vivaldi)، أو إلى بضعة إيقاعاتٍ موسيقيّةٍ لباخ على بيانٍ قيثاريٍّ عتيقٍ. أو الإنصات إلى صمت الليل الذي لا يعكّره سوى خفقان القلب، وجرْس سريان الدم في العروق.

– **غيتّون:** الإنصات إلى الحياة! تنشُّقٌ عميقٌ للنسيم النقيّ في

الريف، أو على شاطئ بحرٍ، وتنسّم أريج النباتات، وشذا الزهور، وروائح الطحالب القويّة؛ مراقبة تساقط المطر على حديقةٍ جفّفها الصيف، واستشمام روائح الحياة المتصاعدة من التربة.

– **أَنتييه:** وضع اليد على صخرةٍ غمرتها الشمس بأشعّتها الدافئة، وتلمّس قوّة الأرض. الاستمتاع بريح أعالي البحار التي تدفع المركب الشراعيّ، وهي تداعب البَشَرة. الانغماس في مياه البحر الفاترة، واستعادة سعادة الوضع الجنينيّ المفقودة. قضم تفّاحةٍ ببطءٍ، وارتشاف ماءٍ باردٍ. تناول خبزٍ طازجٍ عجنه خبّازٌ ماهرٌ بيده. وهناك، أيضًا، الكثير من المُتعَ الصغيرة الناجمة عن هناتٍ ضئيلةٍ، مثل إنقاذ طائرٍ صغيرٍ وقع من عشّه، أو دودةٍ تائهةٍ على دربٍ، أو هرٍّ صغيرٍ مهجورٍ؛ أو التسكّع في مدينةٍ غريبةٍ، ومقابلة أشخاصٍ مجهولين، وتبادل بسمةٍ ودّيّةٍ معهم.

– **غيتّون:** العثور على كتابٍ قديمٍ لدى بائع كتبٍ عتيقةٍ، لكاتبٍ بات منسيًّا، والتمتّع بمطالعته، ليلاً.

– **أَنتييه:** ولكن من أين تأتي متعة الشعور الحادّ بما تؤتيه الأَشياء الصغيرة من تأثير؟ ولمَ يعي المرء بغتةً عظمة شأنها؟ ولمَ يغمرنا هذا الوعي بالسعادة؟

– **غيتّون:** لأنّنا اكتشفنا، بغتةً، في التافه معنًى، وفي أصغر الصُّدَف مشروعًا، وفي ضآلة الأشياء حدَثًا، وهذه كلّها تتضافر في اللامرئيّ كي تصنع واقعًا، وتتوجّه إلى صميم ذواتنا حيث تولّد حاجةً لا تقاوَم: الرغبة في واقعٍ لا مرئيٍّ يفضي إلى الكائن الأسمى، الكائن اللانهائيّ والمتعدّد الأشكال، الذي لن تراه ههنا وجهًا لوجهٍ، ولكن نستطيع أن ننعم به من خلال روائع خليقته.

* *

انتهى كتابنا، وانتهت حواراتنا. ووقفنا، آسفين، أمام النافذة المطلّة على حديقة اللوكسمبرغ. كنت أتأمّله وقد غمرته أشعّة الشمس الأخيرة، التي كانت تنفذ من خلال الغيوم. وقد قاسمني جان غيتّون تأثّري وقال:

- هذا أيضًا سعادةٌ. فعند غروب الشمس، تتجدّد الخليقة دائمًا وتتجلّى. انظر هذه الأشجار، وهذه الجدران العتيقة: إنّ صفاقتها وكتامتها تعكس النور، وتحرف اتّجاه أشعّته.

وأخذت يده وشددتها طويلاً. كان يبتسم، وشعرت، تحت البشرة الشفّافة، خفقان الحياة، ومعجزتها، وسرّها. وإذ كنت توّاقًا إلى النور، عدت، في ذلك المساء عينه، إلى الجنوب، إلى الشمس. وتمتمت:

- بتّ الآن أعرف حلمك في السعادة.

وقد أجابني ببسمةٍ زاخرةٍ باللغز:

- أنا لا أخلط بين الحلم والسعادة. السعادة تثوي في القلب. وعلى كلٍّ أن يستجيب لها في سرّ حياته.

الفهرس

توطئة	٥
تمهيد	٧
الحبّ	٢٣
الحبّ الجسديّ	٢٨
الحبّ الزوجيّ	٣٦
الصداقة	٤٧
حبّ المحبّة	٥١
العفّة	٥٨
التركيز	٦٨
الشجاعة	٧٢
التجرّد	٨١
الوداعة	٨٦
الرجاء	٩٠
الدقّة	٩٥
الوفاء	٩٩
الإيمان	١٠٤
التناغم	١١٦
التواضع	١٢٤

العدل	١٣٠
الرحمة	١٣٦
الموت الصالح	١٤١
الطاعة	١٥١
التفاؤل	١٥٨
الوطنيّة	١٦٧
المثابرة والصبر	١٧٤
الفطنة	١٧٩
الحشمة	١٨٢
الاحترام	١٨٧
الحكمة	١٩١
الصمت	١٩٨
البساطة	٢٠٢
الاعتدال	٢١٠
التسامح	٢١٤
الفراغ (الراحة)	٢٢٢
الشيخوخة (السعيدة)	٢٢٩
ولنختم بالتحدّث عن السعادة	٢٣٩

ظهر من سلسلة «صفحات روحيّة»

١ – م. يوسف الكلاّس: على دروب الإنجيل
٢ – ماري – تريز دو ماليسمي: صلاة على مدى ١٥ يومًا...
٣ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ: قصص تأمّليّة (١)
٤ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ: قصص تأمّليّة (٢)
٥ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ: قصص تأمّليّة (٣)
٦ – أ. غَردِيّ الدومنيكيّ/ أ. باسيليوس بريدي: مقام الروح القدس في الحياة المسيحيّة
٧ – أ. جوزيف شريفرز/ جورج الريّس: بذل الذات
٨ – أ. باسيليوس بريدي البولسيّ: عظات في التطويبات ومريم العذراء
٩ – م. كيرلّس بسترس: تأمّلات في إنجيل ربّنا يسوع المسيح
١٠ – هنري كافاريل/ جورج عازار: الصلاة لقاء مع الله
١١ – أ. بيتر فان بريمن/ أ. وفيق نصري اليسوعيّ: كالخبز الذي كُسِر
١٢ – أندريه لوفيه/ أ. الياس زحلاوي: هروبي الأخير مع يسوع المسيح
١٣ – عادل تيودور خوري: مع يسوع المسيح في لقاءاته
١٤ – رينهارد لتمان/ عادل تيودور خوري: من حصاد المطالعة
١٥ – الخوري بولس الفغالي: إرفعوا الكِسَر
١٦ – كرت رومل/ حنّا شوملي: أبانا الذي في السماوات
١٧ – م. يوسف الكلاّس: من وحي الإنجيل
١٨ – م. سليم الصائغ: الصلاة بالروح والحقّ (١)
١٩ – م. سليم الصائغ: الصلاة بالروح والحقّ (٢)
٢٠ – هنري كافاريل/ أ. أنطوان نصر: «لا تخفْ أن تأخذ مريم زوجةً لك»
٢١ – م. سليم الصائغ: يسوع خبز الحياة (١)
٢٢ – م. سليم الصائغ: يسوع خبز الحياة (٢)
٢٣ – الكردينال مارتيني/ أ. مارون اللحّام: الله يكفيني
٢٤ – ترجمة المعهد الإكليريكيّ في بيت جالا: القراءة الربّانيّة
٢٥ – ترجمة المعهد الإكليريكيّ في بيت جالا: مقالات في الدعوة الكهنوتيّة والرهبانيّة
٢٦ – أديب مصلح: أَبانا...
٢٧ – الأب سهيل قاشا: كيف أعترف...؟
٢٨ – م. سليم الصائغ: دردشات مع يسوع (١)
٢٩ – م. سليم الصائغ: دردشات مع يسوع (٢)
٣٠ – طوني هاشم: اللصُّ التائب
٣١ – إيلوا لو كليرك/ الأب جرجس المارديني: الفقير الحكيم
٣٢ – طوني هاشم: قال نيتشه: «مات الله» قلتُ: «حقًّا! إنّما قام»
٣٣ – م. يوسف كلاّس: رُوحُكَ الصَّالح يَهديني
٣٤ – الخوري أنطوان الدويهيّ:

أنجزت المطبعة البولسيّة، جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب في شهر تمّوز